وزارة الثقافة والارشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

عصارة الأيام

تأليف
سمرست موم

عربه
حسام الخطيب

راجعه
يوسف الخطيب

سلسلة روائع الأدب الغربي – ٨

الناشر
دار دمشق
للطباعة والنشر والتوزيع

وزارة الثقافة والارشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة



تأليف
سمرست موم

عرّبه
حسام الخطيب

راجعه
يوسف الخطيب

سلسلة روائع الأدب الغربي – ٨

الناشر
دار دمشق
للطباعة والنشر والتوزيع


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

تليجرام

غواص في بحر الكتب



المقدّمة

تبدأ مقدمات الكتب المترجمة عادة بالتعريف بشخصية المؤلف وانتاجه ، ولكن مقدمة كتاب في السيرة الذاتية لابد من أن تكون شيئاً آخر مختلفاً مادام المؤلف يتولى الحديث عن نفسه وأحداث حياته وخاطرات أفكاره ، ولذلك أراني في حل من سرد أحداث الحياة المديدة الخصبة التي عاشها سمرست موم مؤلف هذا الكتاب ، وكل ماسأفعله في هذه السطور انما هو محاولة لإعطاء فكرة سريعة عن انتاجه الادبي ومراحل هذا الانتاج وقيمة كل مرحلة لأصل بعد ذلك الى عرض لمادة كتابه الممتع (عصارة الايام)آملاً أن يكون في هذه المقدمة مايعين القارىء على استيعاب الإشارات الكثيرة التي تضمنها الكتاب

ألف سمرست موم كتابه الاول سنة ١٨٩٧ ثم تدفقت حياته الادبية فياضة معطاء خلال النصف الاول من القرن العشرين حتى كانت سنة ١٩٥٨ اذ نشر كتابه (وجهات نظر) وأعلن أنه خاتمة المطاف ، وانه لمطاف طويل صعد فيه المؤلف سلم النضج الفني درجة درجة ، ففي مدى عشر سنوات (١٩٠٠ - ١٩١٠) قفز من كاتب مغمور الى أن أصبح أشهر مؤلف مسرحي في لندن ، ثم عكف على كتابة القصة خلال العقد الثالث من القرن العشرين ، وفي العقد الرابع سجل انتاجه نمواً رائعاً ونضجاً ووفرة اذ نشر أفضل رواية له ، وكتاباً في أدب الرحلات يعد أفضل ما كتب عن الاندلس ومجموعة من القصص القصيرة نالت حظاً عظيما من الاعجاب ثم عرض سيرته الذاتية بأسلوب أدبي عملي لايكاد يضاهيه أسلوب منذ (ترولوب) . وخلف هذه

المؤلفات جميعاً يد كاتب صناع اعتاد أن يصرّح بأنه يكتب الانكليزية كما يغني البلبل بطبع وسهولة ، وفي الوقت نفسه ما انفك يشتكي من صعوبة اللغة الانكليزية وقوة شكيمتها .

وفي هذا الكتاب بسط موم تجربته مع اللغـــة الانكليزية بوضوح ودقة وحلل طريقته في الكتابة وعالج العوائق الفنية التي تعترضها وذلك بأسلوب ممتع شيق لم يسبق له مثيل في الآداب العالمية .

ولعل ممرست موم ورث الخط الرئيسي في حياته عن العصر الفكتوري حيث كان الناس يصرون على وضع خطة للحياة يوجهون خطاهم على هديها ، كانوايحبون الاشياء المرسومة المرتبة ويكرهون التشتت والسير على الهوى ، ومن هنا أصر موم منذ مطلع حياته على أن يضع لنفسه نمطاً في الحياة يحتذيه ، وأنت الصوى التي وضعها في الدرب تشير الى أنه سائر في طريق واحد الى هدفين متلازمين :

الاول : أن يكون كاتباً محترفاً يعيش للكتابة ومن الكتابة وهكذا أقدم في مطلع شبابه على ترك مهنة الطب المربحة الى سراب الكتابة المحترفة ومشاقها ، وكانت مجازفة غير معروفة النتائج لا يقدم عليها الا فدائي تؤرقه الغاية وتنسيه أهوال الطريق .

والثاني : أن يدرس المناخ الانساني وأن يبث ماوصل اليه من دراسة في مؤلفاته المختلفة . ولعل هذا الهدف يفسر مارأيناه عند موم من قلق بالنسبة للفنون الادبية وتقلب بين القصة والرواية والمسرحية بأنواعها والسيرة والذكريات ، اذ كان دائم البحث عن النوع الادبي الذي يمكن أن يستوعب المناخ الانساني استيعاباًطبيعياً بعيداً عن التكلف والتقعر خالياً من أشواك الوعظ التي تخز القارىء وتنفره .

وفي سبيل الهدف الاول هجر موم مهنة الطب حين بدأت تعطيــه أكلها ، وفي سبيل الهدف الثاني تخلى عن المسرح الذي أوصله الى الاوج شهرة وثروة ليكتب روايته (في العبودية الانسانية) ، ولست اعرف كاتباً غيره أوتي مثل هذا الوضوح في الهدف والايمان به في المجالين الفني والحياتي ومع ذلك نجت كتابته من بوادر الجفاف والقسر .

وقد انغمس موم ، على نحو ما فعل أبناء عصره في مشكلة القوة في المجتمعات الانسانية وأثناء شبابه حين كان طالباً في مدرسة الطب قضى احدى اجازاته في فلورنسة وعكف على قراءة كتابات مكيافللي التي ظهر طابعها في بعض مؤلفاته بعد ذلك. ويعد سبينوزا كذلك من المفكرين الذين تأثر بهم موم وانحصر تأثيره بصورة رئيسية بأبحاث سبينوزا الاخلاقية ومعالجته لمفهوم الخير ، وكانت قراءة الفلسفة عنده عـــادة متأصلة بل تمريناً صباحيا لابد منه : (وكان من عادتي أن أبدأ يومي بمطالعة بضع صفحات من المؤلفات الميتافيزيائية ، وهو تمرين يفيد الروح صحياً كما يفيد الجسم الحمام الصباحي) .

واهتم صاحبنا بالرسم كذلك وتظهر كتاباته عن الرسامين ما يتجاوز حدود معرفة الهواة العاديين ، على أن الأدب كان حقل اهتمامه الرئيسي ، وقد تعلم في شبابه الفرنسية والالمانية والاسبانية والايطالية واطلع على آداب هذه اللغات وأحسن الاستفادة منها .

وهذه الاهتمامات والمعارف انصبت جميعاً في غاية واحـدة هي رواية القصص على اختلاف أشكاله ، والنمط الذي اختاره موم لحياته لم يكن الا تصميما مناسباً لحياة تعتمد على الكتـابة الأصيلة الخلاقة وقد انطوى صدره على ايمان عميق بأن الكتابة الخلاقة هي وحدها المهمة وان الفنان المبدع هو الذي يضفي الأهمية على العالم ، ولكنه في الوقت نفسه كان يحرص على مناقشة مسألة خلود الكاتب وسوف يرى قارىء هذا الكتاب كيف عالج الكاتب هذه الناحية باستخفاف وكاد يحصر أهمية الكاتب بمقدار ما يقبل معاصروه على قراءته ولعل ذلك رد طبيعي لما أتهم به موم من ايثاره الجانب التجاري في الكتابة .

واليوم اذ نستعرض انتاج هذا الكاتب المبدع نجد أنه أشبع نهم معاصريه الى معرفة العـالم بطريقة ممتعة ، وقد أقبلت عليه جماهير القراء وفاق في ذلك كل الكتاب الانكليز المعاصرين ، وما زالت مؤلفاته تبعث البهجة والسرور في أبناء جيلنا ، وهذا دليل على أنه استطاع أن يحقق الحسنيين في آن واحد فأرضى أبناء عصره من جهة وضمن الخلود والاستمرار لانتاجه الادبي بفضل المضمون الانساني الذي ينطوي عليه .

ويجمع النقاد على أن عصارة الايام The Summing up هو أمتع ما كتبه موم ، وحين

شرع في كتابته كان قد أوفي على الستين ورمي فيه الى عرض آرائه المتعلقة بالموضوعات التي حظيت باهتمامه الرئيسي خلال سني حياته ، ولم تكن حياته مجرد حياة أديب محترف وكفى : (لقد أردت أن أضع مخططاً لحياتي تحتل فيه الكتابة المكانة الرئيسية ولكنه يحوي كل أنواع النشاط الأخرى التي تليق بالرجل) ... وقد أتى كتابه (عصارة الايام) حافلا بجميع السمات - الرئيسية في هذا المخطط ، فالفصول الاولى تعرض طفولة الكاتب وطبيعة الحياة من حوله ، ويلي ذلك الحديث عن مهنة الطب التي كان مقدراً له أن يحترفها لولا أنه نفذ المخطط الذي وضعه لنفسه دون أن يبالي بالعواقب ، ثم يصف رحلاته الى هيدلبرغ وجنوب فرنسا وفلورنسة وكابري واسبانيا ، ويخلص من ذلك الى عرض تجربته في كتابة القصة والمسرحية ويخصص فصلاً للحديث عن مطالعاته ولاسيما في ميدان الفلسفة ثم يشرح آراءه في كثير من القضايا التي تؤرق النفس الانسانية كالحق والخير والجمال والدين متابعاً خلال ذلك سرد أحداث حياته الحافلة بالمفاجآت والتجديد .

وقد أصر موم على أن كتابه هذا ليس سيرة ذاتية ولا سلسلة يوميات ، انه خلاصة لكل مامر به في حياته من تجارب في المجال الأدبي وفي المجال العملي ، والكاتب يعرض هذه التجارب دون نظام معين انه يختار زبدة ماوقع له من أحداث في الحياة محاولا أن يفصل الكلام على أهمية كل حادث ومغزاه بالنسبة لفهم الحياة ، نافراً كل النفور من أية لهجة وعظية لأنه ظل طوال حياته متأكداً من شيء واحد فقط هو أنه غير متأكد من شيء البته ، وعدم التأكد هذا أفاده كثيراً اذ جعله دائم الحرص على تفحص الأشياء بعين الناقد المتشكك في غير تزمت ، وكلما عرض له رأي جديد يخالف المألوف سبقته الابتسامة وأطلت روحه الساخرة تضفي على أصالة الرأي جاذبية المرح ولطف الأداء ، من ذلك مثلا تعليقاته الجميلة على صحبة الحكام وعلية القوم فقد وجد أمرهم عجيباً ، حديثهم أبعد مايكون عن العذوبة وذكاؤهم قلما يكون متوقداً ومعلوماتهم العامة وثقافتهم دون الوسط بكثير ، فما الذي أهلهم لأن يقودوا النـــاس ؟ لعله نوع من الاختصاص والتفهم لأساليب الحكم والسياسة ، ولكنهم هنا أيضاً يتعثرون ومعظمهم لايدركون أبعاد القضايا التي يفترض

فيهم أن يعالجوها ، اذاً ليس هناك سوى حل واحد هو أن المقدرة على الحكم لا تتطلب ذكاء نافذاً أو ثقافة واسعة بل تتأتي من موهبة خاصة لها شروط نوعية معينة كثيراً ماتتوفر في الجهلة والأغبياء .

وأجمل ما في الكتاب صراحته البسيطة غير المتكلفة ، انه يبدو أليفاً جداً حتى لتحس به الى جانبك يفضي اليك بأسراره وهو واثق من أنك البئر العميق الذي يعب الاسرار فلا تفشو بعد ذلك أبداً ، وما كانت الألفة أبداً نزوة عابرة عند سمرست موم ، انها قيمة رئيسية وغاية منشودة وهي من بين الأسباب التي زينت له أن يعزف عن شهرة المسرح وأمجاده ، ذلك أن ضجيج المسرح أشعره بأن الألفة مفقودة بينه وبين المشاهد فآثر أن يكتب القصص التي يصطحبها القاريء في منعزل عن الناس ويفتق أسرارها في خلوته الهادئة فاذا هو والمؤلف روحان تخطران على صعيد من التفاهم والمؤانسة ، ولشد ما كان يشعر بالحرج حين يضطر الى خوض موضوعات قد تسبب الضيق للقاريء أو لا تستهوي حب الاستطلاع عنده ، ولما اقتضته الضرورة في نهاية كتابه (عصارة الأيام) أن يسجل ما انتهى اليه بشأن القيم الكبرى في الحياة بادر الى الاعتذار الى القاريء بلهجته المحببة وبذل قصارى جهده ليأتي عرضه النظري لقضايا الدين والفلسفة والحق والخير والجمال واضحاً رشيقاً بعيداً عن الغموض والالتواء .

على أن الآراء التي توصل اليها سمرست موم لا تعد فتحاً جديداً في عالم الفكر ولا تحمل مقومات النظرية الفلسفية ، وما كان له أن يدعي ذلك رغم أنه ظميء في مطلع حياته الى العثور على كتاب فصل يحسم الرأي في جميع القيم التي مازال المفكرون يناقشونها ويختصمون بشأنها منذ عهد أرسطو ، قبل ذلك ، ولما أخفق في العثور على هذا الكتاب المنشود عقد العزم على تأليفه وخاض غمار أسفار الفلسفة وطفق يجمع مواد الكتاب فاذا بها تتعقد وتتشعب وتطغى حتى تضطره الى أن يرفع يديه مستسلماً .

واذاً قيمة الكتاب ليست فيما يقدمه من حلول للقضايا الكبرى في حياة الانسان بل هي في الطريقة الأصيلة التي يعرض بها الكاتب أحداث حياته وتجاريبه وآراءه ، في الجمل

القصيرة المتقطعة التي تحمل حرارة الحـادثة وحيويتها ، في الصراحة الجريئة التي تزيد من احترامك للكاتب وتحببه الى نفسك في آن واحد ، في الروح المرحة المرنة التي يتسع مداها فيلف الآفاق الانسانية كلها في ابتسامة ساخرة ، في التجربة الغنية لحياة مديدة عريضة خصبة تقدم اليك في طبق متواضع تعبق فيه أبخرة الكفاح الحيـاني وتحمل اليك نكهة حب صميمي للحياة (الغرض من الحياة هو ممارسة الحياة وكفى ..) ..

تلك هي مقومات السيرة الذاتية الناجحة ولكنها ليست كل مقومات هذا الكتاب الشيق .

ان الفصول التي تتحدث عن تجربة الكاتب في فن الكتابة ليس لها مثيل في كل ما كتب في هذا الموضوع ، وما أجدرنا نحن الكتاب العرب أن نقرأها بامعان وتفهم ، ان الدعامة الأولى للكتابة الناجحة هي الوضوح ولا يحق للكاتب مطلقاً أن يتجاوز هذه الدعامة ، ان أعقد موضوع في الفلسفة أو العلم يمكن ان يكتب بوضوح ولا يجوز أبداً التماس العذر لاية كتابة غامضة لأن الغموض أحد أمرين اما غموض متعمد ناشيء عن رغبة الكاتب في اضفاء هالة كبرى حول أفكاره الهزيلة واما غير متعمد وهو يكشف اذ ذاك عن اضطراب المادة الفكرية في ذهن المؤلف . والدعامة الثانية هي البساطة والبساطة ليست موهبة غير مصقولة انها تحتـاج الى جهد وكد وصبر ونظام انها امتحان لقدرة الكاتب على اخفاء الجهد الذي يريقه في عملية الكتابة .

أما الدعامة الأخيرة فهي الجرس ، ، فالنثر له موسيقاه الخاصة وبدون هذه الموسيقى لا يكون الأداء كاملاً ، على أن الافراط في توفير القيم الموسيقية له من الضرر ما لاهمال هذه القيم .

وبعد ، فما أغناني عن التنويه باراء سمرست موم مادام القاريء سيجدها في هذا الكتاب مبسوطة باوضح عبارة وأمتع أداء ، اذاً لابد من ختام ، وليكن العبارة نفسها التي ختم بها براندر كتابه عن سمرست موم : (ان موم كاتب مبدع ، وقصاري القول أننا بالمثل والقدوة لا بالنظريات ، نتعلم منه كيف نسوس لغتنا الصعبة أفضل سياسة) .

المعرب

- ١ -

لست أرمي الى تدوين سيرة حياتي في هذه الاوراق أو الى تسطير ذكرياتي ، فقد عملت بطرق مختلفة على أن أورد في مؤلفاتي ماجرى لي في خضم هذه الحياة ، وفي بعض الأحيان جعلت من احدى التجارب التي خضتها موضوعاً للكتابة واخترعت سلسلة من الاحداث لإيضاحها ، وفي أغلب الاحيان كنت أصطفي أشخاصاً من الذين جمعتني بهم معرفة وثيقة أو طفيفة وأجعلهم أساساً لشخصيات من اختراع بنات أفكاري ، وهكذا تداخلت الحقيقة والخيال في كتاباتي حتى أنني اذ أعيد النظر فيها الآن لا أكاد أستطيع أن أميز أحدهما من الآخر . وليس يعنيني أن أسجل الوقائع التي سبق أن استفدت منها فائدة أوفى حتى لو استطعت تذكرها بل لعلها اذ ذاك تبدو مملة جداً . لقد قضيت حياة ملونة بل ممتعة ولكنها لم تكن حياة مخــــاطر ، ولي ، فضلا عن ذلك ، ذاكرة ضعيفة لاتسعفني في تذكر القصة الجيدة الا اذا أعيدت على مسامعي ولكنني سرعان ما أنساها قبل أن تتاح لي فرصة روايتها لشخص آخر ، بل انني أعجز عن رواية طرفي مما أضطرني الى الاستمرار في تأليف طرف جديدة ، وهذا العجز ، في اعتقادي ، جعل صحبتي أقل جاذبية مما ينبغي أن تكون عليه .

كما انني لم أسجل يوميات حياتي والآن أتمنى لو كنت أقدمت على ذلك خلال السنة التي تلت نجاحي ككاتب مسرحي لأنني قابلت حينذاك عدداً من الاشخاص ذوي الشأن مما قد يجعل من هذه اليوميات وثيقة ممتعة . وفي تلك الفترة كانت ثقة الناس بالارستقراطيين والاقطاعيين قد تزعزعت بسبب سوء تصريفهم للأمور في جنوب أفريقيا ، ولكن هؤلاء لم يدركوا الامر وظلوا على اعتقادهم القديم بأنفسهم ، وفي البيوتات السياسية التي ترددت عليها كانوا يتكلمون كما لو أن تسيير الامور في الامبراطورية البريطانية عمل خاص

بهم ، وطالما شعرت باحساس غريب حين كنت أسمعهم يتناقشون وهم على أبواب انتخابات عامة ، في وجوب تعيين توموزيراً للداخلية أو اكتفاء ديك بايرلندة ،وأحسب أنه مامن أحد يقرأ اليوم روايات السيدة (همفري وارد Humphry ward) ، ولكن بعض هذه الروايات ـ على مافي قراءتها من ملل – يعطي صورة حية لحالة الطبقةالحاكمة في تلك الفترة ، وكان الروائيون يهتمون بحياة هذه الطبقة ، وحتى الكتاب الذين لم يسبق لهم أن عرفوا لورداً كانوا يعتقدون بضرورة الكتابة عن ذوي الرتب ، وقد يدهش أي امرىء يلقي نظرة على قوائم الشخصيات المسرحية في تلك الايام أن يرى ذلك العدد الضخم من الشخصيات التي تحمل ألقاباً . كان المديرون يظنون أنها تجذب الجمهور والممثلون يحبون أن يشخصوها . ولكن اهتمام الجمهور بها تضاءل بتضاؤل دور الارستقراطية السياسي ، وبدأ رواد المسارح آنئذ يظهرون استعداداً لمشاهدة أدوار أناس من طبقاتهم كالتجار الميسورين وأهل الحرف العليا الذين أخذوا يديرون شؤون البلاد ثم درجت العادة على أن لايقدم الكاتب أشخاصاً من ذوي الرتب والالقاب الا اذا كان دلك ضرورياً لموضوعه . على أنه بدا من المستحيل أيضاً حمل الجمهور على الشغف بشخصيات من الطبقات الدنيا لأن القصص والمسرحيات التي عالجت شؤونها اعتبرت منحطة . ويلذ للمرء ان يتساءل ، بعد أن اكتسبت هذه الطبقات النفوذ السياسي ، هل يظهر الجمهور من الشغف بشخصياتها ماسبق أن أظهره لمدة طويلة بحياة ذوي الالقاب ، ولمدة محدودة بحياة البرجوازية المثرية ؟

وخلال هذه الفترة قابلت أناساً ربما اعتقدوا اعتقاداً جازماً بسبب طبقتهم أو شهرتهم أو مركزهم ، أنهم خلقوا ليكونوا شخصيات تاريخية، ولكنني لم أجدهم لامعين على نحو ماصور لي خيالي . ان الانكليز أمة سياسية وكثيراً مادعيت الى منازل كانت السياسة شغلها الشاغل ولم أستطع أن اكتشف في الساسة البارزين الذين قابلتهم أية مقدرة مرموقة واستنتجت يومذاك ، وربما بشيء من التسرع ، أن حكم الامة لايحتاج الى درجة عظيمة من الذكاء . ومنذ ذلك الحين تعرفت في بلاد مختلفة بعدد كبير من

السياسيين الذين تقلدوا مناصب رفيعة وزادت حيرتي بشأن توسط ذكائهم (عادية عقولهم) ووجدتهم مشوهي المعلومات عن أمور الحياة العادية ولم اكتشف أية ألمعية في عقولهم أو حيوية في خيالهم ، وخطر لي احياناً أنهم بلغوا مراتبهم ببراعتهم في الكلام ، اذ يكاد يكون مستحيلاً وصول المرء الى السلطة في مجتمع ديمقراطي اذا لم يكن في مقـــدوره الاستيلاء على آذان الجماهير ، وموهبة الكلام - كما نعلم - ليست مصحوبة على الاغلب بقوة التفكير ، ولكن مادمت قد رأيت رجال دولة بدوا لي أنهم ليسوا أذكياء جداً يسيرون الشؤون العامة بنجاح معقول لا أستطيع الا ان أرجح أنني كنت مخطئاً في حكمي عليهم ، ولعل تأويل الامر أن قيادة الامة تحتاج الى موهبة من نوع خاص قد تتأتى للمرء دون أن تتوفر فيه الكفاية العامة ، وعلى نفس المنوال عرفت رجالا ذوي شأن جمعوا ثروات كبيرة وقادوا مشروعات واسعة في طريق النجاح ولكنهم في كل مالايختص بعملهم بدوا كأنهم مفتقرون حتى الى المنطق السليم .

ولم يكن ماسمعته من أحاديث في تلك الفترة ذكياً كما توقعت ، وندر أن سمعت مايبعث المرء على اعمال فكره ، وكانت معظم الاحاديث سهلة - وهو حكم غير مطرد - مرحة محببة سطحية ، وتجنب الناس الموضوعات الجدية بسبب شعورهم بأن مناقشة مثل هذه الموضوعات في المجتمعات العامة تسبب الضيق ، وكان الناس يخشون أن يتهموا بالتحدث عن أعمالهم ، وهي أكثر ما يهمهم !! وبوجه عام كانت المحادثة عبارة عن نوع لطيف من المهاترة وما أندر ماسمعت من لطائف تستحق أن تروى حتى تُخيّل الي أن الفـــائدة الوحيدة من الثقافة هي تمكين المرء من التحدث بالسخافات بطريقة مميزة ، ولعل أمتع شخص وأحسن متحدث عرفته هو (ادموند غوس Edmund Cosse) وكان قارئاً مكثراً رغم ان قراءته لم تكن دقيقة على مايبدو ، وكانت أحاديثه ذكية جداً ،وقد أوتي ذاكرة هائلة واحساساً حاداً بالمرح وبالحقد ، وعرف (سوينبرن Swinburne) معرفة وثيقة وتحدث عنه بطريقة استعراضية ، غير أنه كان يستطيع التحدث عن (شلي)

أيضاً ـ كما لو كان صديقه الحميم ـ واحسب انه لم يكن بوسعه أن يعرفه ، واتصل بعدد من الشخصيات البارزة لأمد طويل ، وأظنه كان رجلاً مغروراً تقبل سخافات هؤلاء الاشخاص عن رضى ، وانا واثق انه أثار في الناس شغفاً بهم يفوق ما كانوا يستحقون .



- ٢

كنت أعجب دائماً للحماسة التي يبديها الناس من أجل مقابلة المشهورين ، وفي رأيي أن الميزة التي تكتسبها بكونك قادراً على إخبار رفاقك أنك تعرف رجالاً مشهورين تثبت فقط أنك انسان ذو قيمة ضئيلة . وللمشاهير أساليب متقنة يعاملون بها الاشخاص الذين يتصلون بهم ، فهم يظهرون للعالم من خلال الأقنعة التي تكون غالباً مؤثرة ،لكنهم يحرصون على اخفاء حقيقة نفوسهم ويلعبون الدور المنتظر من أمثالهم ويتقنون أداءه مع المران ، ولكنك تكون غبياً اذا اعتقدت أن هذا العرض العام الجهري يتفق وطبيعة الانسان الذي يعيش في داخل ذلك القناع .

ولقد كانت صلتي وثيقة ووثيقة جداً بأناس قليلين ، ولكنني كنت أهتم بالناس عامة بسبب مقتضيات عملي لا لأسباب تتعلق بهم أنفسهم ، ولم أعتبر كل شخص غاية في نفسه ، كما كان يفعل كانت (Kant) باصرار ، ولكن مادة قد تكون مفيدة لي باعتباري كاتباً ، وكان اعتنائي بالمغمورين أكثر من اعتنائي بالمشهورين ، لان المغمورين غالباً ما يظهرون على حقيقتهم وليس بهم من حاجة الى خلق شخصية تحميهم من العالم أو تمارس تأثيراً فيه ، وصفاتهم المميزة أتيح لها حظ أكبر لتنمو ضمن حلقة محدودة من فعاليتهم ، وماداموا لم يتعرضوا لعيون الجماهير فليس يخطر لهم أن هناك ما ينبغي أن يخفوه ، وهم يكشفون تصرفاتهم الشاذة لأنه لم يخطر لهم يوماً أنهم شاذون . وعلى أي حال ينبغي لنا معشر الكتاب أن نعالج شخصيات من عامة الناس ، فالملوك والمستبدون والتجار المهرة لا يسدون حاجتنا . على أن الكتابة عنهم مخاطرة طالما أغرت الكتاب ولكن الاخفاق الذي منيت به هذه المحاولة يدل على أن هذه المخلوقات فريدة لدرجة أنها لا تصلح قاعدة

للعمل الفني لأنه يستحيل اضفاء صفة الواقعية عليها ، فالعادي هو ميدان الكاتب الأخصب يمده بمادة لا تنضب بسبب ما فيه من جدة وتفرد وتنوع لا حدّ له . ان الرجل العظيم لسوء الحظ غالباً ما يكون قطعة واحدة أما الرجل ضئيل الشأن فهو حزمة من العناصر المتناقضة ، انه معين لا ينفد ولا تنتهي أبداً المفاجآت المختزنة في ذاته ... وعندي أن قضاء شهر في جزيرة مهجورة مع طبيب بيطري أفضل بكثير من قضائه مع رئيس وزارة .



- ٣ -

وفي هذا الكتاب سأحاول أن أعرض آرائي في الموضوعات التي حظيت بالنصيب الأوفر من اهتمامي خلال سني حياتي ، ولكن النتائج التي توصلت اليها كانت مبعثرة في دماغي كحطام سفينة مفككة في بحر لا يستقر موجه ، وبدا لي أنني لو رتبت هذه الافكار على نحو ما استطعت أن أدرك قيمتها الحقيقية وأتوصل الى نوع من الربط بينها .

ولطالما فكرت بالقيام بمثل هذه المحاولة وصممت أكثر من مرة على أن أبدأ العمل وذلك كلما قمت برحلة يفترض فيها أن تستغرق عدة شهور ، وكانت الفرصة تبدو مثالية ، ولكنني كنت أجد نفسي دوماً مغموراً بعدد كبير من الانطباعات إذ كنت أرى الغزير من الاشياء الغريبة وأقابل عدداً ضخماً من الناس الذين اختلطوا لتبقّي حتى لم يعد لديّ وقت للتفكير ، اذ كانت لذة تلك اللحظات من الحيوية بحيث لم تترك لعقلي مجال الاستبطان والتأمل .

وأعاقني أيضاً شعوري بالضيق من تسجيل آرائي باسمي الشخصي فمع أنه سبق لي ان كتبت الكثير في هذا الشأن الا أنني كتبته بوصفي روائياً مما ساعدني على أن أعد نفسي شخصية من شخصيات الرواية على نحو ما . والعادة الطويلة جعلتني أستشعر ارتياحاً اكثر اذا تحدثت من خلال المخلوقات التي اخترعتها ، اذ انني اكثر استعداداً لان احكم على ما يكون لها من آراء من أن احكم على نفسي . وكان الحكم على شخصياتي متعة لي وأما الحكم على نفسي فكان عملاً شاقاً آثرت ان أؤجله عن طيبة خاطر ، ولكنني الآن لم أعد قادراً على الاستمرار في هذا التأجيل ، ففي الشباب تمتد السنوات أمام العين متطاولة حتى يصعب على الشاب ان يدرك أنها ستنقضي يوماً ما ، وحتى في منتصف العمر

يكون من السهل اختلاق المعاذير لتأجيل الاعمال التي ينبغي أن نقوم بها ونحن لا نرغب فيها ، لأن أملنا في حياة مديدة أمر طبيعي في تلك الايام ، ولكن لابد من أن يأتي يوم نحسب فيه الموت حسابا اذ يتساقط معاصرونا هنا وهناك ، ونحن نعرف أن كل الناس ميتون (سقراط كان إنساناً . وهكذا دواليك) ولكن هذا الامر يظل عندنا أقرب الى المحاكمة المنطقية حتى نضطر الى الاعتراف ،خلال المجرى الطبيعي للأشياء ، ان نهايتها لن تكون بعيدة . ونظرة عرضية على عمود الوفيات في جريدة (التايمز) أوحت إلي أن الستين سن غير صحيحة الى درجة بعيدة .

وقد اعتقدت منذ زمن انه سيحزنني لو مت قبل أن أنجز هـذا الكتاب ولذلك اقتنعت أنه من الأفضل البدء به تواً حتى اذا ما أنجزته استطعت أن أواجه القدر مطمئنا لأنني أكون حينذاك قد ختمت العمل المتعلق بحياتي . ولم يعد في استطاعتي ان أقنع نفسي أنني غير قادر على كتابته اذ ما دمت لم أتخذ حتى الآن قراراً بشأن الاشياء ذات الاهمية بالنسبة لي فهناك احتمال ضئيل في ان أستطيع تقرير ذلك أبداً ، وانني سعيد أخيرا لجمع كل هذه الافكار التي كانت على المدى تطفو عرضاً على المستويات المختلفة لوعيي ، وحين أنجز كتابتها أكون قد تخلصت منها وسوف يكون عقلي حراً في استيعاب أشياء أخرى لأنني آمل أن لا يكون هذا الكتاب آخر كتاب أكتبه ، فالمرء لا يموت بمجرد ان ينجز وصيته ، والوصية ليست الا نوعاً من الحيطة ، وانجاز المرء لاعماله هو اعـداد جيد لقضاء بقية العمر بدون قلق على المستقبل . وحين أُنهي هذا الكتاب سوف أعرف أين أقف وسوف استطيع ان افعل ما أشاء في السنوات المتبقية من عمري .

من الحتم أنني ساقول هنا أشياء كثيرة سبق لي أن قلتهـــا قبلا ، ولهذ السبب أسميت الكتاب(الخلاصة)[1] ، فحين تلخص القاضي قضية مـا ، يجمل الادلة التي عرضت أمام المحلفين ويعلق على المرافعـات دون أن يقدم أدلة جديدة ، وما دمت قد ضمنت مؤلفاتي حياتي كلها فان كثيراً مـا ينبغي علي أن أقوله ورد في هـذه المؤلفات ، ويندر أن تجد موضوعاً من الموضوعات التي أثارت اهتمامي غير معالج في كتبي معالجة جدية أو سطحية وكل ماأستطيع فعله الآن هو أن أعطي صورة متماسكة لمشاعري وآرائي ، وأن أعرض بين الحين والآخر بجهد عظيم بعض الافكار التي لم تسمح لي حدود فني القصة والمسرحية كما اعتقد يومذاك – باكثر من الاشارة اليها باللمح .

لابد لهذا الكتاب من أن يكون امتداحاً للنفس ، فهو يدور حول تلك الموضوعات التي تهمني ، وهو بالتالي يدور حول نفسي ،لانني لاأستطيع أن أعالج تلك الموضوعات الا بقدر ما تركته في نفسي من أثر ، ولكنه لايتعلق باعمالي الخاصة ، ولست أرغب في أن أفتح قلبي على مصراعيه للقارىء فأنا أضع حدوداً معينة للالفة التي أحب أن تسود بيني وبين القارىء ، وهناك شؤون كثيرة أرغب في ان تظل خاصة بي ، وما من احد يستطيع ان يقول الحقيقة كاملة فيما يتعلق بنفسه ، وليس الغرور وحده هو الذي منع أولئك الذين حاولو كشف انفسهم للناس من قول الحقيقة كاملة .ولكنه نوع اهتمامهم أيضاً .ان خيبتهم تجاه أنفسهم ، ودهشتهم من انهم قادرون على فعل اشياء تبدو لهم بالغة الشذوذ . لما يجعلهم يوكدون ، بشدة ، على بعض المصادفات ، التي هي في الواقع اكثر انتشاراً مما يظنون .

---

(١) وهي الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب : The Summing up
(المعرب)

لقد جاء روسو في كتاب « الاعترافات » على ذكر مصادفات هزت مشاعر الجنس البشري ومن حيث أسهب في وصفها ، بصراحة تامة ، فقد زيف بذلك قيمه الخاصة ، واعطى لتلك المصادفات في كتابه ، اهمية لم تكن لها في حياته .

ومن بين احداث حياته الحافلة كانت هناك حوادث فاضلة أو على الأقل محايدة حذفها لانهـــا بدت له عادية لا تستحق أن تسجل ، وهناك نوع من الناس لا تظفر أعماله الطيبة بنصيب من اهتمامه ولكن أعماله السيئة تعذبه دوما ، وهذا هو الصنف الذي يكتب عن نفسه في الأغلب ، انه يطرح صفاته الصـــالحه فيبدو بذلك ضعيفـــاً ، فاسدا ، وغير مبدئي ..

- ٥ -

انني أضع هذا الكتاب لاخلص نفسي من عبء أفكار معينة طالما شغلتها . ولست أهدف الى اقنـــاع أي انسان ، فأنا مجرد من العزيزه التعليمية ، وحين اهتدى الى شيء لاأصبو أبداً الى الافضاء به للاخرين ولايعنيني كثيراً أن يوافقني الناس على آرائي.طبيعى أنني أظن الصواب في نفسي ، والا لما كان ينبغي أن أفكر مثل هذا التفكير ، وطبيعي أيضاً أنني أظن الخطأ في الآخرين ، ولكن ، لايضير ني أنهم لابد مخطئون ، ولايزعجني كثيراً ان حكمى على الأشياء يختلف عن حكم الأغلبية ،فلي ثقة مؤكدة في غريزتي .وعلى أن اكتب كما لو كنت رجلاً ذا شأن ، وانا كذلك عند نفسي فأنا عند نفسي أهم الناس قاطبة مع أنني لاأنسى انني انسان غير ذي خطر ابدا وهو حكم لايمليه علي مفهوم ضخم كالمطلق بل ان المنطق السليم يكفي لاثباته ، وما كان للعـــالم أن يصيبه تغير كبير لو انني لم اوجد ومن حيث اكتب أحياناً ، وكأن مغزى خطيراً لابد ان يكون ملتصقاً ببعض مؤلفـاتي بالذات ، فان ما اعنيه حقاً هو انها مهمة عندي بالنسبة لاي نقاش قد يصادف ان يستدعي ذكرها واعتقد ان هناك كتابا قلائل جادين – ولا أعني كتاب الموضوعات الجدية فقط – يمكن ان لايكترثوا بالمصير الذي سيحيق بمؤلفاتهم بعد وفاتهم . ويحلو للانسان ان يتصور ان بضعة اجيال من بعده سوف تتمتع بقراءة كتبه ، وانه سيحتل مكانة مهما تكن صغيرة في التاريخ الادبي لامته مع أنني انظر الى هذا الاحتمال المتواضع نظرة متشككة فيما يخص انتاجي واما الخلود فلست اطمع فيه .. ان الخلود بالنسبة للانتـــاج الادبي لايتجـــاوز في اية حال بضع مئات من السنوات ولايزيد بعد ذلك الا نادراً عن كونه خلوداً في حجرة الدرس ،لقد رايت في حيـاتي كتابا يقعون فريسة للنسيان وقد كان لهم دوي في عالم الادب يفوق بكثير ماأتيح لي ان احرزه ، وفي حداثتي كان يبدو مؤكداً

ان (جورج مريدث) و (توماس هاردي) لن يموتا ادبياً ، ولكنهما لم يعودا يعينان كثيراً عند شباب اليوم ، ولاشك أنهما يجدان ناقداً من وقت لآخر يبحث عن موضوع مقالة يكتبها عنهما ، مما قد يدفع بعض القراء هنا او هناك الى طلب بعض مؤلفاتهما من المكتبة ، ولكنني اعتقد انه ما من واحد منهما كتب ما سينال حظاً من القراءة مثل (رحلات جليفر) او (ترسترام شاندي) او (توم جونز) . وقد أبدو في الصفحات القادمة جازماً في طريقة التعبير عن آرائي ، وما ذلك الا لانني أجد من الصعب ان اكمل كل عبارة بكلمة (اظن) ، او (في رايي) . . وكل ما أقوله هو رأيي الخاص ، وللقارىء ان يأخذ به او يطرحه . واذا كان يملك من الجلد ما يسعفه على قراءة الفصول التالية فانه سيرى انني متأكد من امر واحد فقط ، هو ان الامور التي يمكن ان يتأكد منها الانسان قليلة جداً .

- ٦ -

عندما بدات الكتابة ،اقدمت عليها كما لو كانت أمراً طبيعياً لا مثيل له على وجه الارض لقد اقبلت عليها كما تقبل البطة على الماء ،ولم تنقطع قط دهشتي من انني اصبحت كاتباً ، وليس يبدو لي أي سبب لكوني أصبحت كاتباً سوى الميل الذي لايقاوم ، ولست أرى لماذا تملكني مثل هذا الميل ، فأسرتي منذ اكثر من مئة سنة مارست القانون ، واستناداً الى (معجم السيرة القومية) فقد كان جدي أحد اثنين أسسا (الجمعية الحقوقية المؤتلفة) وفي فهرس مكتبة المتحف البريطاني قائمة طويلة بمؤلفاته القضائية ، ولقد كتب كتـــابا واحداً فقد لاشأن له بالحقوق ، وهو مجموعة مقالات كتبها أصلًا للمجلات الجافة في تلك الأيام ونشرها بغير توقيع استجابة لدواعي اللياقة .وقد اتيح لي مرة ان اتناول هذا الكتاب وكان انيقـــاً مجلدا بجلد العجل ، والكنني لم أقرأه ولم أستطع الحصول على نسخة منه بعد ذلك ، وكم كنت أود لو استطعت ذلك اذاً لعرفت أي نوع من الرجال كان . لقد عاش ردحاً من الزمن في (تشانسري اين) لانه إصبح أمين سر للجمعية التي أسسها ، وحين اعتزل الخدمة الى بيت في (كنسنغتون جور ؛ مشرف على (البارك) ، تلقى هدية مؤلفة من طبق ، وعدة شاي وقهوة ، وآنية لزينة المائدة ، جميعها من الفضة المزخرفة ذات الجرم الثقيل ، حتى لقد غدت عبئاً على أصلافه من بعد ..

وقد أخبرني محام قديم كنت أعرفه في طفولتي أنه دعي مرة الى العشاء مع جدي باعتباره كاتباً مصنفاً .. وفي تلك الدعوة اقتطع جدي لنفسه قطعـــة من اللحم ثم ناوله خادم طبقاً من البطاطا المشوية بقشرها ، وما أقل الأشياء التي تفوق البطاطا المشوية في جودتها للأكل اذ تضاف اليها كمية من الملح والبهار والزبدة ، ولكن جدي لم يكن في الظاهر من اصحاب هذا الرأي فقد نهض من مقعده في صـــدر الطارلة وتناول حبات

البطاطا من الطبق واحدة واحدة وأخذ يرمي بها الصور المعلقة على الجدران ، وبدون أن ينطق بكلمة عاد الى جلسته واستأنف طعامه ، وقد سألت محدثي عن أثر هـذا العمل في المدعوين فقال انهم جميعاً لم يأبهوا له . وكذلك أخبرني ان جدي كان اقبح قزم رآه بين الرجال . وقد ذهبت مرة الى (الجمعية الحقوقية) في (تشانسري لين) لأتحقق من تهمة القبح هـذه ومداها لان صورته كانت موجودة هناك ، واذا كان ماقاله المحامي القديم صحيحاً فان المصور لا بد قد تملق جدي تملقاً شديداً ، حيث جعل له عينين قاتمتين جميلتين جداً تحت حاجبين أسودين ، فيها تعريجة ساخرة خفيفة .. كما جعل له فكا قوياً وانفاً مستقيما وشفتين حمراوين بارزتين . وكان شعره الاسود منبسطاً مع تجعد خفيف لا يقل أناقة عن شعر الآنسة (أنيتا لوس) وكان في اللوحة يمسك بريشة وبجانبه رزمة من الكتب - التي هي كتبه بلاشك . وبصرف النظر عن معطفه الاسود فانه لم يبـد محترماً بالشكل الذي كان ينبغي ان أتوقعه فيـه ، بل لعله كان بائساً نوعاً ما .. ومنـذ سنوات خلت ، اثناء ما كنت أتلف اوراق احـد ابنائه ، وهو عم لي ميت ، عثرت على المفكرة التي كتبها حين كان شاباً في مطلع القرن التاسع عشر وقام بما كانوا يسمونه على ما اعتقد (الجولة الصغيرة) في فرنسا والمانيا وسويسرا وأتذكر انه حين وصف مسقط المياه في (الراين) عند (شافهاوزن) - وهو مشهد غير مؤثر كثيراً - شكر الإله العظيم لانه بخلقه (هـذا الشلال المدهش) اعطى (عباده البائسين فرصة لادراك ضآلة شأنهم إزاء ما ابدعه من عظمة هائلة) .

- ٧ -

مات أبواي في حداثتي وكنت في الثامنة حين توفيت أمي وفي العاشرة حين توفي أبي ولذلك لا أعرف عنها الا قليلاً مما سمعته وقد غادر ابي موطنه الى باريس وعمل وكيلاً حقوقياً للسفارة البريطانية هناك واست ادري ما الذي دفعه الى ذلك ولعله كان مدفوعاً بنفس ذلك التشوف المجهول الذي استعبد ابنه من بعده . وكان يستعمل « ملحقاً » في مواجهة السفارة تماماً ، في (الفوبورج سان اونوريه) ولكن سكناه كانت فيما يسمى آنذاك بشارع (آنتين) وهو شارع عريض يتصل (بالروند بوينت) ويحف به شجر الكستناء ، وكان أبي رحالة عظيما بمقياس تلك الايام ، فقد زار تركيا واليونان وآسيا الصغرى وتجول في مراكش حتى (فاس) التي كانت قليلة الروادفي ذلك الحين . وكان يقتني مكتبه قيمة من كتب الرحلات . وكانت داره في شارع (آنتين) تغص بالاشياء التي جمعها اثناء أسفاره : تماثيل من (تناجرا) ، وخزف من (رودس) ، وخناجر من تركيا لها أغماد من الفضة بالغة الزينة . وقد تزوج أمي في الاربعين من عمره وهي التي تصغره بأكثر من عشرين عاماً ، وكانت امرأة جميلة جداً على حين كان هو بالغ القبح ، وقد علمت أنهما كان يشتهران في باريس بلقب (الجمال والوحش) ، وكان أبوها يعمل في الجيش وعندما مات في الهند استقرت زوجته (جدتي) في فرنسا بعد ان ضمنت ثروة معتبرة واعتمدت على موردها التقاعدي ، واظنها كانت امرأة ذات شخصية، بل ذات موهبة ، لانها كتبت روايات بالفرنسية (للشابات) ، وألفت ألحاناً لاغاني الصالونات ، ويحلو لي ان اعتقدان رواياتها كانت تقرأ واغانيها كانت تغنى من قبل بطلات (أوكتاف فوييه) ذوات الحسب الرفيع ، ولدي صورة صغيرة لها : امرأة متوسطة العمر في ثوب مخروطي الشكل ذات عينين لطيفتين ونظرة تدل على عزم مُخفي وراءه

مزاجاً طيباً . أما والدتي فقد كانت ضئيلة الحجم بعينين بنيتين كبيرتين وشعر ذهبي يغلب عليه الاحمرار ، وملامح بديعة ، وبشرة ناعمة ، وكانت مثار اعجاب شديد ، ومن بين صديقاتها كانت (الليدي أنكازي) وهي امرأة امريكية ماتت عن عمر طويل منذ مدة غير بعيدة وأخبرتني انها قالت مرة لامي : (انت جميلة جداً ومحبوك كثيرون ، فلماذا تخلصين لذلك الرجل القبيح الذي تزوجت منه ؟) فأجابت امي : (انه لايجرح مشاعري ابداً) .

والرسالة الوحيدة التي عثرت عليها بخط أمي هي تلك التي صادفتها حين كنت أقلب أوراق عمي بعد وفاته ، وكان عمي قساً ، وقد طلبت اليه أن يكون أباً روحياً لأحد أبنائها وعبرت ببساطة وتقوى عن أملها في أن تؤدي هذه الصلة المقدسة بين العم والابن ، الى التأثير في المولود الصغير ، فينمو صالحاً متقياً ربه . ثم انها كانت قارئة روايات نهمة ، وفي غرفة البليارد في شقة شارع (آنتين) كانت هناك حقيبتا كتب ضخمتان مملوءتان بمطبوعات « توشنتز » .. ، وكانت أمي تعاني من السل الرئوي وانني لاتذكر قافلة الحمير التي كانت تقف في بابنا لتمدها بلبن الحمير الذي ساد الاعتقاد في ذلك الوقت أنه يصلح لمجابهة هذا المرض . وقد اعتدنا أن نأخذ في الصيف منزلاً في (دوفيل) التي لم تكن حينئذ مطروقة بل قرية لصيد الأسماك تابعة تحت بلدة (ترفيل) الاخاذة .. وفي أخريات ايام أمي أخذنا نقضي الشتاء في (بو) .

وذات يوم بينما كانت طريحة الفراش بتأثير النزيف ، على ما أظن ، ولادراكها بأنها لن تعيش طويلاً ، بعد ، فقد خطر لها أن أولادها لن يعرفوا في المستقبل كيف بدت في ساعات احتضارها ، فاستدعت وصيفتها وارتدت ملاءة من الساتان الأبيض وذهبت الى المصور .. لقد ماتت في الثامنة والثلاثين اثناء الوضع ، بعد أن أنجبت ستة أولاد ، وكان أطباء تلك الفترة يعتقدون أن انجاب الاطفال مفيد للنسوة اللاتي يعانين من السل . وبعد وفاتها أصبحت خادمتها مربية لي ، وكنت في ذلك الحين في رعاية مربيات فرنسيات واذهب الى مدارس فرنسية ولابد أن معرفتي بالانكليزية كانت

ضئيلة حينذاك ، وقد قيل لي من بعد ، انني رأيت مرة من نافذة القطار حصاناً فصحت :
Regardez , Maman , Voilà un, orse[1] .

ويخيل الي أن أبي كان ذا عقلية رومانتيكية ، وحلا له أن يبتني داراً يقضي فيها أيام الصيف ، فاشترى قطعة من الارض في قمة جبل (سورين) وكان منظر السهل من هناك رائعاً وعلى مد البصر كانت تبدو باريس ، ومن أعلى جبل تنحدر طريق الى النهر الذي تقوم على ضفته قرية صغيرة . وكان البيت أشبه بدارة على البوسفور ، وقد أحيط الطبق الاعلى بشرفات ضخمة . واعتدت أن أذهب مع أبي كل أحد على قارب عبر السين لنتفقد سير العمل في البناء ، وحين رفع السقف بدأ أبي تجهيز البيت بشراء زوج من المواقد الحديدية القديمة ، وأوصى على كمية ضخمة من الزجاج حفر عليها علامة ضد (العين الشريرة) تعلمها من مراكش ويرى القارىء صورتها على غلاف الكتاب .. لقد كان البيت أبيض ، والستائر حمراء ، وسويت أرض الحديقة ، وجهزت حجراته بالاثاث .. وبعد ذلك مات أبي ..

(١) كلمة orse هي hoare الانكليزية منطوقاً بها على الطريقة الفرنسية (المعرب) .

-٨-

نقلت من المدرسة الفرنسية وتابعت دروسي كل يوم في جناح القس الانكليزي الملحق بالسفارة البريطانية .. كان منهجه في تعليمي يقوم على تعويدي على القراءة الجهرية لاخبار الشرطة والمحاكم في جريدة (الستاندرد) ومازلت اذكر الرعب الذي انتابني حين قرأت التفصيلات المريعة لجريمة في القطار بين (باريس) و (كاليه) ، ولابد انني كنت في التاسعة اذ ذاك . وبقيت غير متأكد من لفظ الكلمات الانكليزية مدة طويلة وان أنس لا أنس الضحك الصاخب الذي صبغ وجهي بحمرة الخجل حين قرأت في المدرسة التحضيرية عبارة« Unstable as water » فنطقت كلمة(آنستابيل Unstable على وزن كلمة (دونستابْلْ Dunstable) .

لم اتلق اكثر من درسين في اللغة الانكليزية طول حياتي ، فمع انني كنت اكتب المقالات في المدرسة الا انني لم اتلق اي توجيه يتعلق بكيفية ربط الجمل ، والدرسان اللذان تلقيتهما اعطيا لي في فترة متأخرة جداً من حياتي حتى لاخشى الآن انني غير قادر على الافادة منهما كما ينبغي ، اما الاول فتم منذ سنوات قليلة اذ كنت اقضي بضعة اسابيع في لندن وقد اخترت مؤقتاً سكرتيرة شابة وكانت خجولاً ذات حسن وغارقة في قضية حب مع رجل متزوج . وكنت قد وضعت كتاباً اسمه (كمك وجِعَة Cakes and Ale) ، ووصلتني مسودة الطبع في صباح السبت فطلبت اليها ان تتلطف فتأخذه الى البيت وتصححه خلال عطلة الاسبوع ، وقد قصدت ان تسجل الاغلاط الاملائية التي ربما اخطأها عامل المطبعة وان تشير الى الاغلاط التي قد تنجم عن خطي الذي لم يكن دوماً من السهل تمييز رموزه . ولكنها كانت شابة حية الضمير وفهمت كلامي فهماً حرفياً لم اعنه ، وحين اتت بالكتاب في صبيحة الاثنين كان مصحوباً بصحائف

اربع طويلة مملوءة بالتصويبات . وينبغي ان اعترف اني تضايقت المولة الاولى ثم خطر لي ان اضاعة فرصة الاستفادة من هذا الجهد ضرب من الحمق ، وهكذا جلست لاتفحص ما كتبت . واستطيع أن افترض ان الشابة قد تلقت دورة في مدرسة للسكرتيرين ولذلك اخذت روايتي بنفس الطريقة المنهجية التي كان يسلكها اساتذتها حين يراجعون مقالاتها . والملاحظات التي ملأت الصحائف الاربع كانت حادة قاسية ، ولم استطع الا ان اتخيل ان استاذ الانكليزية في مدرسة السكرتيرين لم يجزىء الامور بل اتخذ لنفسه خطأ واضحاً بغير شك ولم يكن ليسمح بوجود رأيين حول اي موضوع وكانت تلميذته الكفء تضيق ذرعاً بحرف الجر في آخر الجملة ووسمت إحدى العبارات العامية بعلامة التعجب دلالة استنكارها .. ووقر في نفسها أنه لا يجوز تكرار الكلمة الواحدة في الصحيفة ، وأبدلت كل كلمة مكررة بمرادف من عندها ، واذ تجدني أمتع نفسي في رخاء جملة من عشرة أسطر كانت تكتب : (أوضح ذلك . ويحسن بك أن تقسمها الى جملتين أو اكثر) . وحين تجدني قد مكنت نفسي من استراحة مرضية بواسطة الفاصلة المنقوطة كانت تقترح نقطة بدلا منها ، وحين أخاطر باستعمال النقطتين كانت تعلق بجفاء (باطلة الاستعمال) .. ولكن أخشن ضربة من ضرباتها هي تعليقها على ما اعتقدت أنه نكتة لطيفة : (هل أنت واثق مما تورده من حقائق ؟) .. ومن مجمل ذلك كله انتهي الى القول بأن أستاذها ما كان ليعطيني علامة عالية جداً .

والدرس الثاني الذي تلقيته كان على يد أستاذ جامعي ذكي جذاب اتفق أنه كان يقيم معي حين كنت أصحح مسودة كتاب آخر ، وكان من اللطف بحيث عرض علي أن يقرأه وترددت لأنني كنت أعرف أنه يحكم على الأشياء من خلال مستوى للابداع يصعب عليّ بلوغه ، ومع انني كنت اشعر انه يمتلك معرفة عميقة بالأدب الأليزابيثي الا انني تشككت في قدرته على تمييز الانتاج الادبي الحديث بسبب اعجابه الشديد بـ (أمتر وودز) ، الذي لا يعطيه مثل هذا التقدير العظيم من اطلع اطلاعاً كافياً على الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر ، ولكنني كنت حريصاً على اخراج كتابي في أجود حالة ممكنة ،

وأملت أن أستفيد من ملاحظاته النقدية التي كانت ، في الحق ، لينة واستمتعت بها بوجه خاص لانني قدرت ، انها الطريقة التي يعامل بها وظائف الانشاء المدرسية ، وكان له ، على ما أعتقد ، موهبة لغوية طبيعية ، وكان عمله ينصب على تنمية هذه الموهبة ، وبدا لي وكأن ذوقه لا يخطىء ، ودهشت كثيراً لاصراره على قوة الكلمات الذاتية ، وتفضيله الكلمة القوية على الكلمة الموسيقية .

فمثلا ، كنت قد كتبت أن هناك تمثالاً سيوضع في ميدان معين ، فاقترح ان أكتب : ان التمثال سينهض .. ولم آخذ برأيه لأن سمعي يتأذى من تشابه اوائل الكلمات في العبارة[1] ، ولاحظت ايضاً ان لديه شعوراً بانه لا ينبغي استعمال الكلمات من أجل موازنة الجملة وحسب ، ولكن ، من اجل موازنة الفكرة ، وهذا حق لان الفكرة قد يضيع تأثيرها اذا وردت بطريقة فجة ، ولكن المسألة مسألة حسن تصرف لان الامر قد يؤدي الى اللفظية ، وهنا قد تكون معرفة طبيعة الحوار في المسرح مفيدة ، ورب ممثل يقول لمؤلف : - (أما كان بمقدورك أن تزيد كلمة اخرى او كلمتين على هذا النص ؟ أخشى ان افقد كل طابعي اذا وقفت عند هذا الحد) .

وحين كنت أصغي الى ملاحظات أستاذي لم اجد مندوحة عن التفكير في ان كتابتي كان يمكن ان تغدو افضل بكثير مما هي عليه لو أن الظروف أتاحت ان استفيد قبلا من هذه النصيحة اللطيفة التي تدل على عقل سليم وأفق واسع .

---

(١) وهذا يدعى بالانكليزية Alliteration ، وهو من المحسنات البديعية ، والعبارة المقصودة هنا هي : The statue will stand (المعرب)

- ٩ -

وهكذا كان علي ان اقوم بتعليم نفسي .. لقد تصفحت القصص التي كتبتها في سن الحداثة لارى اية ملكة طبيعية كانت لدي ، وأي رأسمال أصلي ، من قبل أن أطورهما بالاكتساب الفكري ، فوجدت في أسلوبها سخافة قد يكون لها عذر في حداثة سني ، وكذلك حدة ناجمة عن نقص في الطبيعة ، ولكنني الآن أتحدث عن الطريقة التي عبرت بها عن نفسي فقط .. ويبدو لي انني وهبت قدرة طبيعية على الوضوح ، وحذقاً في كتابة الحوار السهل

وحين قرأ (هنري آرثر جونز) الكاتب المسرحي المشهور حينذاك روايتي الاولى، اخبر احد اصدقائه انني سأصير مع الأيام من افضل الكتاب المسرحيين الناجحين . وأحسب انه رأى في كتابتي قصداً واسلوباً مؤثراً في تقديم المشهد مما يتفق وطبيعة المسرح. وكانت لغتي عادية ، ومفرداتي محدودة ، وعباراتي مبتذلة ، ونحوي مهزوزاً . ولكن الكتابة كانت عندي غريزة طبيعية كالتنفس ولم أكن لأتوقف لاعرف قيمة ما اكتبه. ولم يخطر لي ، الا منذ سنوات قليلة ، ان الكتابة فن لطيف يكتسب بعرق الجبين . وما قادني الى الاعتراف باهمية الجهد في الكتابة الاالصعوبة التي جابهتها عند محاولة تسجيل أفكاري على الورق .. كنت اكتب الحوار بطلاقة ، ولكن سرعان ما أجد نفسي غارقاً في مختلف صنوف الحيرة حين اهم بكتابة صحيفة من الوصف ، ولربما أضعت ساعتين على جملتين او ثلاث لم استطع ان انسقها تنسيقاً مرضياً . وقد عقدت العزم على ان اعلم نفسي كيف اكتب ، ولسوء الحظ لم اجد من يساعدني ووقعت في كثير من الخطأ ، ولو قدر لي ان اجد مرشداً كالاستاذ الذي تحدثت عنه قبل قليل ، لوفرت وقتا طويلا، فقد كان انسان كهذا خليقاً بأن يخبرني ان المواهب التي امتاز بها تتركز في اتجاه

واحد ، وينبغي ان تنمّى في ذلك الاتجاه ، وكان من العقم ان انهمك في شأن لست مؤهلا للخوض فيه ، وفي تلك الايام السالفة اعجب الناس بالنثر المنمق وتوخى الكتـــاب غنى الديباجة بالعبارة المجوهرة والجمل المحشوة بالصفات المجتلبة ، وكانت الديباجة المثلى هي المثقلة بالاطريز الذهبي حتى لتنهض وحدها ، وقد أقبل الاذكيـــاء على قراءة كتابات (ولتر باتر) بحماسة ، ولكن ذوقي اوحى لي ان هذه الكتابات وامثالها تعاني من فقر الدم ، ولمحت خلف تلك الجمل الانيقة المتكلفة شخصية مرهقة شاحبة . وكنت شاباً قوياً نشيطاً تواقاً الى الهواء النقي والاحداث والعنف ، وشق علي ان اتنفس في ذلك الجو المضمّخ الميت وان اجلس في تلك الغرف الحبيسة الاصوات ، حيث يعد رفع الصوت بما يتجاوز الهمس خرقاً لمبادىء اللياقة ، وما كنت لاستمع لنداء ذوقي ، وأقنعت نفسي بان هذا الجو هو قمة الثقافة وأشحت هزءاً بالعالم الخارجي حيث يصرخ الناس ويغلظون الايمان ويتفكهون ويزنون ويعاقرون الخمر . وقرأت يومذاك (المقاصد Intentions) و (صورة دوريان جراي The picture of Dorian Gray) وقد أخذت بمـــا رايته من تلوين وابداع في الكلمات الرائعة التي تعج بها صفحات (سالومي) . واذ صدمت بفقري في المفردات سارعت الى المتحف البريطاني مع اوراقي وقلمي واخذت أسجل اسماء الجواهر العجيبة ، والاصباغ البيزنطية التي كانت تستعمل في الطلاء ، والمفردات الدالة على الانسجة والشعور الحسي بها ، وألفت جملا متكلفة تعمدت استعمال هذه المفردات فيها ، ولحسن حظي لم تتح لي فرصة استخدامها ، وما زالت حتى اليوم مطروحة في دفتر قـــديم ، وفي متناول اي انسان تزين له نفسه ان يكتب السخافـــات .. في زمني كان معظم الناس يعتقدون أن (النسخة الرسمية للتوراة) أعظم مؤلف نثري في اللغة الانكليزية ، وقد قرأتها جاهدا ، ولاسيما مزامير داوود واخترت منها نخبة من العبارات التي خلبت لبي ، وسجلت قوائم من المفردات الجميلة او الغريبة على امل ان استعملها في المستقبل ، وكذلك درست النّزع المقدس Holy Oying) لجرمي تايلور (Geremy Taylor) ونسخت مقاطع منه ، ثم حاولت ان اعيد كتابتها من الذاكرة رغبة في تمثيل اسلوبه .

واثرت هذه الجهود كتاباً صغيراً عن الاندلس بعنوان (ارض العذراء المباركة).
وقد اتيح لي ان اقرأ بعض مقاطعه فيما بعد واني لا اعرف الاندلس الآن معرفة تفضل كثيراً معرفتي بها من قبل، وقد غيرت رأيي في كثير مما كتبته، على انني هممت بمراجعة هذا الكتاب وتنقيحه لما رأيت بعض الاقبال عليه في اميركا، وسرعان ما وجدت ان الامر مستحيل لان المؤلف كان انساناً آخر نسيته تماماً. وقد حيرني هذا الكتاب وشتت افكاري، وما يهمني منه الآن هو لغته التي اعتبرها تمريناً في الاسلوب.. وانه لكتاب مرهق، بلاغي، دقيق الصنعة، لا فضية له، ولا شخصية.. وانما تفوح منه نباتات المنازل الدافئة، وعشاءات الاحد، كالهواء في مستنبت مسقوف وملحق بغرفة الطعام من دار كبيرة في (بيزووتر)... في الكتاب نعوت غنائية جمة، ومفرداته عاطفية. انه اشبه بقماش للستائر من تصميم (بيرن جونز) وانتاج (موريس) لا بنسيج ايطالي مثقل بزخرفة من الذهب.

لست أدري ماالذي جعلني أرتدالى كتاب(العصر الاوغسطي Augustanleriod)
أهو حدس لاشعوري بأن هذا النوع من الكتابة يتناقض مع ميلي أم انعطـاف منهجي
طبيعي في التفكير ؟ قد أغواني نثر (سوفيت) ووقر في نفسي ان طريقته في الكتـابة
هي الطريقة المثلى وشرعت أدرسه على نحو مادرست (جرمي تايلور) واخترت (حكاية
حابق The tale of a tub) ، ويقال ان العميد حين أعاد قراءة هذا الكتاب اخريات
ايامه صاح : (اي عبقري كنت !) وفي رأيي ان عبقريته تتجلى في مؤلفات أخرى غير
هذا لأنه موعظة مملة والتهكم فيه ظاهر ، ولكن أسلوبه معجب، ويخيل الي أن الانكليزية
لايمكن أن تكتب بصورة أجمل ، فهو خال من الجمل المنمقة والتراكيب المصنعة والصور
المجتلبة ، انه نثر متحضر طبيعي فيه حدة ومهارة وليس فيه أية محـــاولة للادلال بقوة
المفردات ، وكأن (سويفت) كان يتناول أول كلمـة تخطر له ، على أنها كانت دومـاً
الـكلمة الصحيحة موضوعة في مكانها الملائم وذلك بفضل ذهنه المنطقي الحاد ، وأما عبارته
القوية المتزنة فهي بنت ذوقه البديـع ، وحين اتبعت طريقتي المعروفة في نقل المقاطع ، ثم
كتابتها من الذاكرة ، وجدتني عاجزاً عن تغيير أية كلمة من كلماته او التلاعب في ترتيبها،
فكأن طريقته في التعبير هي الطريقة الوحيدة الممكنة وليس من سبيل الى الطعن فيها .

ولكن الكمال فيه ناحية ضعف خطيرة ، وهي قابليته لان يكون بليداً ، ان نثر
(سويفت) شبيه بقناة فرنسية محاطة بالحور تنساب في ارض انيقة متاوجة ، وسحرهـا
الهادىء يملأ النفس رضى ، ولكنه لا يثير الانفعال ، ولايحفز الخيال ، وانك لتسير على
ضفتها ، فماتلبث أن تشعر بشيء من الضجر ومهما أعجبت باشراق عبـارة (سويفت)
واسلوبه المباشر واعتماده على الطبـع ، لا على التـكلف ، فلا بد ان يشرد انتباهك عنه بعد

فترة ، اللهم الا اذا كان لك اهتمام خاص بالموضوع الذي تقرؤه .

ولو قدر لي ان امتلك زمام الوقت ثانية لتناولت نثر (درايدن) بالدراسة الدقيقة مثلما فعلت بنثر (سويفت) ، لكنني لم اطلع على نثر (درايدن) الا بعد أن فقدت القدرة على مثل هذا العمل ، ان نثره سائغ وليس له كمال (سويفت) ولا أناقة (أديسون) السهلة ، ولكن له من بهجة الربيع وسهولة المحادثة والبداهة الطروب ما يجعله ساحراً . كان (درايدن) شاعراً ، ولست أشير بذلك الى ماينسب اليه عادة من موهبة غنائية ، بل أحس ان الشاعرية هي الشيء الذي يغني في نثره المتلألىء ، ولم يكتب النثر قبله بمثل هذه الروعة ، ونادراً ماتم ذلك بعده .. لقد أينع (درايدن) في لحظة هانئة ، وكانت تسري في عظامه الجمل الجهيرة ، والصنعة الهائلة ، من لغة العصر اليعقوبي ولكنه بفضل النعومة الراقية المرهفة التي ورثها عن الفرنسيين ، احال اللغة الى اداة لا تلائم التعبير عن الموضوعات الجدية فحسب ، بل تستطيع ان تسجل الخواطر الخفيفة العابرة ، وبذلك كان رائد فن الاسلوب الموشى (rococo) ، واذا ذكرنا (سويفت) بقناة فرنسية فان (درايدن) أشبه بنهر انكليزي يتلوى في طريقه حول التلال وبين القرى الوادعة وعبر المدن المنهمكة في العمل ، وهو مغرق في الصمت عندما ينبسط مجراه ، ومسرع في تدفقه حين توعر طريقه ، انه حي غني تلعب به الرياح وتشتم من انسامه عبير الهواء الطلق المنعش الذي تمتاز به انكلترا .

وأثمر الجهد الذي بذلته ، وبدأت كتابتي تتحسن ، ولكنني لم ابدع كتابة جيدة بل كتابة جامدة هيابة .. وحاولت ان اسبغ على جملي طابعاً ما ، غير انه لم يبدُ واضح السمة ، وبذلت عناية قصوى في تنسيق كلماتي ، ولم ادرك ان النهج الذي كان طبيعياً في مطلع القرن الثامن عشر اصبح مستهجناً جداً في ايامنا . وحاولت تقليدي لطريقة (سويفت) دون ان احرز القدرة على التأثير عن طريق الدقة المتناهية في استخدام المفردات ، وهي الصفة التي اعجبت بها كثيراً عنده ثم عمدت الى كتابة المسرحيات ، ولم يعد يشغلني شيء غير الاهتمام بالحوار ، فلما انقضت على ذلك خمس

سنوات ، وجدتني أشرع ثانية في تأليف قصة جديدة ، الا أنني في هذه القصة فقدت الطموح في أن أصبح أسلوبياً ، وعقدت العزم على ان اكتب بطريقة عارية عن الزخارف بعيدة عن كل صنعة ، وصار همي الأول تدوين الحقائق ، وكان لدي منها وفرة وافرة لا تسمح لي باهدار اية كلمة سدى ، ووضعت نصب عيني هدفاً يستحيل تحقيقه ، وهو الامتناع عن استعمال الصفات امتناعاً تاماً وقر في ذهني ان استخدام المصطلح المناسب يغني عن النعت ، ثم ايقنت ان (كتاب القصة) سيبدو مثل برقية مطولة مسهبة حذفت منها ، رغبة في التوفير ، كل كلمة لا يؤثر حذفها في وضوح المعنى ، ولم يقدر لي ان اقرأ الكتاب منذ ان صححت المسودات ولست أدري الى أي مدى استطعت أن أحقق ما رميت اليه . . . غير انني احسب انه كتب بطريقه اقرب الى الطبع من كل ما كتبته قبلا وانا واثق انه يعج بالهنات وبالاغلاط النحوية الكثيرة

ومنذ ذلك الحين الفت كتباً اخرى كثيرة ومضيت في محاولتي لتحسين كتابتي غير باخل بأي جهد ، بالرغم من انني انقطعت عن الدراسة المنهجية للأئمة الاوائل مكرهاً بسبب ضغط الظروف . واكتشفت نقائصي ورأيت ان التدبير الوحيد المعقول لمواجهتها هو ان اوجه جهدي لتنمية النواحي التي استطيع ان ابدع فيها ضمن هذه النقائص . وادركت انني خلو من الموهبة الغنائية ، وكانت مفرداتي محدودة ، ولم تسعفني الجهود التي بذلتها من اجل توسيع نطاقها . ولم ارزق الا ذخيرة قليلة من المجاز ونادراً ماتأتى لي التشبيه الاصيل المبتكر الجذاب . واحسست بالعجز عن السبحات الخيالية والتعليقات الشعرية ، على انني كنت اتذوق هذه الصفات في كلام غيري من الادباء كما كنت اعجب بالصور البعيدة المنال ، وباللغة الموجبة التي تختال بها الافكار ، ولكن ملكتي لم تهبني يوماً ما مثل هذه المحسنات ، ولم اطق صبراً على محاولة اجتلاب ما لا يتأتى لي بسهولة . . . ومن جهة اخرى كانت لي قدرة على الملاحظة الثاقبة ، وخيل الي انني ارى مالايراه كثير من الناس ، وكنت استطيع ان اصب ما رأيته في لفظ دقيق واضح ، ورزقني الله منطقاً سليماً ومقدرة على التذوق الحي للنغم ، ان لم اقل احساساً عميقاً بغنى الكلمات

وتفردها ، وقد عرفت انني لن اكتب مايرضي رغائبي ، واقتنعت بأنني استطيع بعد لأي ان اتوصل الى اسلم مستوى من الكتابة تسمح به نقائصي الطبيعية ، وانتهيت بعد التفكير الى انني ينبغي ان اهدف الى توفير الوضوح والبساطة والجرس ، وقد رتبتها عمداً على هذا النحو وفق اهميتها عندي .

لم أطق الصبر يوماً على أولئك الكتاب الذين يطلبون من القارىء ان يبذل جهداً ليفهم معانيهم . وما عليك الا ان تتجه الى كبار الفلاسفة لترى انه من الممكن التعبير بوضوح عن اعمق التاملات ، وقد تجد فهم أفكار (هيوم) صعباً واذا لم يكن لديك تمرس بالفلسفة فان مقاصده ستفوتك بغير شك ، ولكن اي انسان مهما تكن ثقافته لا يعجز عن فهم معنى كل جملة من جمله على حدة . وقليل من النـــاس من استطاع أن يكتب برشاقة اكثر من (بيركلي) .

والغموض الذي نجده عند الكتاب نوعان :

أولهما يرجع الى الاهمال والآخر يكون عن عمد . وفي أغلب الأحوال يكتب الناس بغموض لأنهم لم يكلفو أنفسهم قط مشقة تعلم الكتابة بوضوح ، وهذا النوع نجده غالباً عند الفلاسفة المحدثين ، وعند رجال العلم وحتى عند نقاد الأداب . وهو أمر غريب حقاً فان المرء ليخيل اليه أن الكتاب الذين قضو حياتهم في دراسة اعظم الآثار الأدبية ، ينبغي أن يكون لديهم من الاحساس بجمال اللغة مايؤهلهم لأن يكتبوا كتـــابة جميلة أو على كتـــابة واضحة . ومع ذلك فلا بد أن نجد في مؤلفاتهم بين الفينة والفينة جملا نضطر لقراءتها مرتين لنفهم معناها ، وغالباً مانضطر الي التخمين لان الكتاب ، فيما يبدو ، لم يوفقوا في الافصاح عن مقاصدهم .

والسبب الآخر للغموض هو كون الكاتب نفسه غير متأكد من معنـــاه وفي ذهنه انطباع لم يرسخ رسوخاً كافياً اما بسبب نقص في مقدرته الذهنية أو بسبب الكسل . ومن الطبيعي تماماً أن لا يجد تعبيراً دقيقاً لفكرة مشوشة ، ويرجع هذا بالدرجة الاولى الى أن

كثيراً من الكتاب يفكرون في أثناء عملية الكتابة لاقبلها ، والقلم عندهم هو الذي يبدع الفكرة ، وعيب هذه الطريقة ـ وهو في الحق خطر ينبغي ان يظل المؤلف على حذر منه هو ان هناك نوعاً من السحر في الكلمة المكتوبة . ان الفكرة تتجسد بأن تتخذ لنفسها طبيعة مرئية . وبهذا تحول بين نفسها وبين أن تكون واضحة .

ولكن هذا النوع من الغموض يختلط بسهولة بالنوع الآخر الناتج عن القصد . وبعض الكتاب الذين لايفكرون بوضوح يميلون الى ان يفترضوا ان آراءهم فيها اهمية اعظم مما يبدو للوهلة الأولى ويحلو لهؤلاء الكتاب ان يعتقدوا انهم اعمق من ان يعبروا عن افكارهم بدرجة من الوضوح يدركها كل قارىء . ومن الطبيعي انه لايخطر لمثل هؤلاء الكتاب ان الخطأ قائم في عقولهم التي لم ترزق ملكة التفكير الدقيق . وهنـــا يقع سحر الكلمة المكتوبة ، فمن السهل جداً ان تقنع المرء بان العبـــارة التي لم يفهمها تماماً يمكن ان تعني اشياء ابعد مما استطاع ادراكه . ومن هنا يسهل على نفس الكاتب ان تنزع الى الوقوع في اعادة تسجيل انطباعاتها وهي على حالتها الأصلية من الغموض . والحمقى وحدهم هم الذين يكتشفون معاني مخبأة في مثل هذه الانطباعات .

وهناك صورة اخرى من الغموض المتعمد الذي يتخذ له قناعاً من ارستقراطية اللمح فالكاتب يلفع معانيه بالغموض لكي لاتستطيع العامة المشاركة فيها . ان روحه لحديقة سرية لاتستطيع النخبة ان تلجها الا بعد ان تتخطى عدداً من العقبات الخطيرة . ولكن هذا النوع من الغموض لاينتج عن الادعاء فقط ، بل عن قصر النظر ، اذ ان الزمن لابد ان يلعب لعبته ، فاذا كان المعنى هزيلاً مسخ الى لفظ غير ذي معنى لايفكر احد بان يقبل على قراءته . وهـــذا هو المصير الذي حل بالكتابات المتكلفة لأولئك الكتاب الفرنسيين الذين أضلتهم طريقة (غيوم أبولونير) ، وفي بعض الأحيان يلقي الزمن ضوءاً كاشفاً على

ماظهر يوماً ما أنه عميق ، وبذلك يكشف عن حقيقة تلك الالتواءات اللغوية التي أخفت أفكاراً مبتذلة جداً . فقليل من قصائد (مالارميه) الآن غير واضح ، ولايعجز الانسان أن يلاحظ أن تفكير هـذا الشاعر كان يفتقر الى الأصالة افتقاراً رئيسياً . وكانت بعض عباراته جميلة أما مادة شعره فكانت تفاهة الشعر في عصره .



- ١٢ -

والبساطة ليس لهـا من القيمة الفنية ماللوضوح . لقد تعمدت الكتابة ببساطة لأنني لاأملك موهبة الغني في الكتابة . وانني لأعجب بالغنى عند الاخرين الى حد ما ، مع أنني أجد صعوبة في هضم هذه الوفرة في الـكم . واستطيع ان اقرأ صفحة (لرسكن) بمتعة ، ولكنني لااقرأ عشرين صفحة الا بتعب شديد . ان العبارة الموقعة والصفة الفخمة والاسم الغني بالارتباطات الشعرية ، والجمل التوابع التي تعطي الجملة الرئيسية وزنا وعظمة ، والابهة التي تشبه هدير الموج يتلو بعضه بعضاً في الخضم الواسع ، كل أولئك لابد ان يكون ناتجاً عن الهام معين بلا ريب ،والكلمات المنضدة على هذا النحو لها في الأذن وقع الموسيقي والاستجابة لها حسية أكثر مما هي عقلية ، وجمال الجرس يقودنا بسهولة لأن نستنتج انه لامجال للبحث عن المعاني . ولكن الـكلمات لها طغيانها فهي توجد من اجل معانيها ، واذا نحن لم نلق بالا الى المعاني فكأننا لم نلق بالا الى شيء اطلاقاً ، وهو أمر محير ، فهذا النوع من الكتابة يتطلب موضوعاً يليق به ، ومن المؤكد ان الكتابة عن الأمور التافهة باسلوب فخم وضع للأمور في غير نصابهـا ولم يكتب احد على هذا النحو بانجح ممـا كتب السير (توماس براون) ولكن ، حتي هو نفسه ، لم ينج من الهوة دائماً . ففي الفصل الاخير من كتابه (هايد روتافيا) نجد الموضوع ، وهو مصير الانسان ، ملائماً جداً للغة الفخمة المنمقة وبذلك انتج هذا الطبيب النرويجي قطعة من النثر ليس ثمة مايفوقها في ادبنا ، ولكنه حين يصف العثور على فاروراته الأثرية بالطريقة المفخمة نفسها ، يصبح تاثير اسلوبه اقل امتاعا في ذوقي الخاص على الأقل . وحين يعمد كاتب محدث الى اخبارنا باسلوبه المتفاصح ما اذا كان يليق بومس ان تضاجع شابا مبتذلاً ، يحق لنا عند ذاك ان نشعر بالاشمئزاز .

واذا كان الغنى في الكتابة موهبة لاتتاح لكل انسان ، فان البساطة لايمكن ان تجيء بالفطرة اطلاقاً ، ولكي نبلغ البساطة نحتاج الى نظام قاس ، وعلى قدر معرفتي ، أحسب ان لغتنا هي الوحيدة التي كان ضرورياً فيها اعطاء اسم للقطعة النثرية التي لاتزيد حجما عن (مزقة ارجوان Pnrple patch) ، وما كان ذلك ضروريا الا لانها لغة مميزة ان النثر الانكليزي هو ابن الجهد لاالبساطة ، الا انه لم يكن هكذا دائماً اذ ليس هناك نثر مباشر حي ذو شخصية يستطيع ان يجاريء نثر شكسبير . وينبغي ان نذكر ان هذا النثر حوار كتب ليكون مادة للحديث ولسنا ندري على اي نحو كان شكسبير يكتب لو انه الف مقدمات لمسرحياته مثلمافعل (كورني) ، وربما اتى نثره في مثل فخامة رسائل الملكة اليزابث . ولكن النثر في الأيام السالفة كنثر (السير توماس مور) لم يكن مثقلاً ولامنمقاً ولاخطابياً ، وهو يعبر عن البيئة الانكليزية . وفي رايي ان توراة الملك جيمس تركت آثاراً ضارة في النثر الانكليزي . ولست من الغباء بحيث انكر جمالها العظيم – انها رائعة ، ولكنها كتاب شرقي وصورها الغريبة ليس لها شأن بنا – هذه المجازات الشديدة الحلاوة وتلك المبالغات غريبة عن عبقريتنا .

وليس لي الا ان اعتقد انه من بين المساوىء التي سببها الانفصال عن روما في حقل حياتنا الروحية كون هذا الكتاب (توراة الملك جيمس) قد اصبح لفترة طويلة جداً يقرا يومياً بل يقرأ وحده دون غيره من قبل ابناء شعبنا وصارت ايقاعاته ، ومفرداته القوية وتلك الحذلقة فيه جزءاً لايتجزأ من ذوقنا القومي . وبهذا اصبح الكلام الانكليزي الصادق البسيط مثقلاً بالزخارف ، واخذ الانكليزي العادي يلوى لسانه ليتكلم كانبياء العبرانيين . ولقد كان في طبيعة المزاج الانكليزي مايتفق وهذا الأسلوب المتكلف ، ولعله نقص في الدقة الفكرية عند الانكليز ، او لعله تحسس لجمال اللفظة في حد ذاتها ، او لعله تفرد فطري وحب للتنميق ، لست ادري ولكن الحقيقة الواقعة هي ان النثر الانكليزي منذ ذلك الحين ، كان عليه ان يحارب الميل الى الترف الأسلوبي ، ومن حين لاخر ، كانت

روح اللغة تؤكد نفسها كما فعلت عند (درايدن) وكتاب عصر الملكة (آن) ، ولكن ذلك ادى مرة اخرى الى انهيار اللغة في اساليب (جيبون) و (دكتور جونسن) المفخمة وعندما استعاد النثر الانكليزي بساطته على يد (هازلت) و (شلي) في رسائله و (شارلز لامب) في احسن ماكتب ، عاد ففقد هذه البساطة على يد (دوكوينسي) و (كارليل) و (مردث) و (وولتر باتر) ، ومن الواضح ان الاسلوب الفخم اشد اختلابا من الأسلوب الذي لايلفت النظر وليس اسلوبا ، وهم يعجبون بكتابات (وولتر باتر) ولكنهم يقرؤون مقالة (لماثيو آرلوند) بدون ان يعيروا اي انتباه الى الاناقة والوضوح والاتزان هذه الصفات الثلاث التي يكتب بها مايريد ان يعبر عنه .

والقول ان الأسلوب هو الرجل معروف كل المعرفة وهو واحد من تلك التعريفات السائرة التي تقول اكثر مما يلزم لتعني الشيء الكثير ، واين الرجل في اسلوب (غوته) ؟ افي قصائده الوجدانية التي تشبه تغريد الطيور ام في نثره القبيح؟ وأين (هازلت) في اسلوبه ولكنني أفترض أن الرجل اذا كان ذا عقل مضطرب فانه يكتب بطريقة مضطربة ، واذا كان ذا مزاج متقلب الاهواء يكون نثره خيالياً غير متزن . واذا كان ذا فكر نافذ ذكي يتذكر مئات من الأشياء بوحي من الموضوع الذي يبحث فيه ، فانه سيثقل صفحاته بانواع المجاز والتشبيه مالم يتصف بضبط للنفس شديد . وهناك فرق كبير بين تفاصيح كتاب العصر اليعقوبي الذين خدرتهم الثروة الجديدة التي أدخلت مؤخراً الى اللغة الانكليزية وبين بلاغة (جيبون) و (دكتور جونسن) اللذين كانا ضحية نظريات سيئة ، انني اتمتع بقراءة كل كلمة كتبها (دكتور جونسن) لأنه كان يتمتع بذوق جيد وبيان ساحر وذكاء حاد ، وماكان لأحد أن يكتب خيراً منه لولا أنه حمل نفسه عمداً على الكتابة باسلوب فخم ، وكان دكتور جونسن يعرف الأسلوب الجيد حالما يقع عليه بصره ، ومامن ناقد استطاع أن يظهر محاسن نثر (درايدن) بمثل مقدرته وقد قال عن (درايدن) انه

فيما يبدو – لم يكن لديه من فن سوى التعبير بوضوح عن افكاره القوية . وقد انهى احدى سيره[1] بالكلمات التالية :

كل من ينشد اسلوبا انكليزيا مألوفاً ولكنه غير خشن ، وانيقاً ولكنه غير متكلف ينبغي أن يكرس ايامه ولياليه لمجلدات (اديسون) .

ولكن دكتور جونسن حين اقبل على الكتابة اقبل عليها بهدف آخر مختلف ، وقد فهم الأسلوب الرفيع فهما خاطئاً فظنه الأسلوب المتكلف ، ولم يكن لديه النشأة الجيدة التي تهديه الى ان البساطة والطبع هما اصدق سمات التميز .

واذاً فان كتابة النثر الجيد مسألة مناقبية . لان النثر ، خلافاً للشعر ، فن متحضر اما الشعر فهو فن خام (Baroque) والفن الخام اميل الى المأساة والضخامة والغموض وهو يعني بالجوهر ويتطلب العمق ونفاذ الفكرة ، ولا استطيع الا ان اشعر ان كتاب النثر في عهد الأسلوب الخام ، كمؤلفي توراة الملك جيمس (سير توماس براون وجانفيل) ، كانوا شعراء ضلوا طريقهم . ان النثر هو فن الوشي (Rococo) وهو يحتاج الى الذوق اكثر من القوة ، والى الزينة اكثر من الالهام والى الوفرة اكثر من العظمة . والشكل بمثابة اللجام الذي لاتجري العربة بدونه . وليس من قبيل المصادفة ان يكون احسن النثر قد كتب حين بلغ فن الوشي باناقته واعتداله ذروة ابداعه عند بدء نشأته ، لأن الأسلوب الموشى ساد بعد ان أصبح العالم متعباً من الأساليب الفضفاضة واخذ يصبو الى شيء من الضبط ، فكان فن الوشي تعبيرا طبيعياً عند الأشخاص الذين قدروا قيمة الحياة الحضرية . ان المرح وقوة الاحتمال وخشونة المشاعر ، هذه الأمور المستجدة ، قد جعلت القضايا المأساوية (Tragic) الكبرى التي سبق ان شغلت الناس في القرن السابع عشر تبدو مبالغا فيها . وقد اصبح العالم مكانا للعيش اكثر راحة ، وربما المرة الأولى خلال القرون أصبحت الطبقات المثقفة تستطيع ان تستريح وتستمتع بفراغها . وقد قبل

---

(١) اشارة الى كتاب سير الشعراء لدكتور جونسن . (المعرب)

ان النثر الجيد ينبغي ان يشبه حديث الناس ذوي التربية الحسنة ، وهذا الحديث لا يتأتى الا اذا كانت عقول هؤلاء الناس خالية من المشاغل المرهقة ، وينبغي ان تتوافر لحياتهم ضمانات معقولة وان لا يوجهوا كل جهودهم لأنفسهم ، وعليهم ان يدركو أهمية الرقي الحضاري وان يقدروا اللياقة وان يلقوا بالا الى شخصياتهم ، (أو لم يبلغنا ان النثر الجيد ينبغي أن يكون كلباس الرجل الانيق مناسباً ولكن غير متكلف) . وينبغي ايضاً أن يظلوا في خشية من ان يثقلوا على الآخرين ، وعليهم أن لا يكونوا مستخفين ولا متزمتين ، بل اكفاء دوما ، وعليهم ان يرموا الحماسة بنظرة نافذة . ومثل هذه التربة مناسبة جداً للنثر. وليس عجيباً أنها أتاحت فرصة ملائمة لظهور أعظم كاتب في النثر عرفه عالمنا الحديث وهو (فولتير) ... ان كتاب اللغة الانكليزية نادراً ما استطاعوا ان يبلغوا الذروة التي يبدو ان فولتير بلغها بطبعه ، وربما كان ذلك راجعاً الى طبيعة لغتهم الشعرية ، ولقد استحق الكتاب الانكليز من الاعجاب بقدر ما استطاعوا الاقتراب من صفات السهولة والاتزان والدقة التي بلغها الكتاب الفرنسيون العظام

وثالثة مميزات الاسلوب عندي هي الجرس ،ويتوقف ماتعزوه من أهمية للجرس على مدى حساسية اذنك .ان هناك عدداً كبيراً من القراء ومن كتابهم المفضلين ، لايملكون هذه الحساسية ونحن نعلم ان الشعراء اعتمدوا دائماً على فن الجناس وقد استقر في اذهانهم ان تكرار الصوت يعطي اثرا من الجمال . ولست اعتقد ان هـذا الامر وارد في النثر ، ويبدو لي أن الجناس [١] ينبغي ان لايستعمل الا لسبب خاص ، واذا ما استعمل مصادفة يكون وقعه على الأذن غـير مستحب . على أن استعماله العرضي قد شاع حتى ان المرء لايستطيع الا ان يفترض ان وقعه لايخلف اثرا مؤذيا في اذان الجميع . وكثيرون من الكتاب ، دون ان يشعروا باي ضيق ، يربطون كلمتين بقافية واحدة او يصلون صفة طويلة هائلة مع اسم طويل هائل او يضعون بين نهاية كلمة وبداءة اخرى حرف عطف من الاحرف الساكنة يكاد يكسر الفك . وهذه شواهد تافهة وواضحة وماذكرتهـا الا لاثبت ان الكتاب المتأنقين يقعون في مثل هذه العيوب لانهم لم يوهبوا الاذن المرهفة ، فالكلمات لها وزنها وصوتها ومظهرها ولن تستطيع ان تكتب جملة جذابة المظهر حلوة النغمة الا بمراعاة هذه الامور الثلاثة .

ولقد قرأت كثيرا من الكتب عن النثر الانكليزي وكدت الااجد فائدة فيها لانها في معظمها كانت غامضة ونظرية اكثر مما ينبغي ومولعة دوما بالتأنيب . ولكن هذا لاينطبق على معجم فاولر Fowler للانكليزية الحديثة . انه عمل قيم ولا اعتقد ان في الناس من بلغ في اتقان الكتابة حدا يغنيه عن هذا الكتاب الحي ، ولقد احب (فاولر) البساطة والاسلوب المباشر والفهم السليم . ولم يكن ليطيق الادعاء وكان يحس احساساً

(١) Alliteration

سليماً بان الاصطلاح هو دعامة اللغه وكان نصير العبارة ذات الوقع . ولم يكن من عبيد المنطق ، وتوخى ان تظل اللغة المستعملة ضمن نطاق القواعد النحوية والنحو الانكليزي صعب وما اقل الكتاب الذين نجوا من ارتكاب الخطأ النحوي . فكاتب متـــانق مثل (هنري جيمس) كتب في احدى المناسبات مثلاً باسلوب مخالف للنحو الى حد كفيل بان يثير غضبة أي مدرس يرى مثل هذه الاغلاط في مقالة تلميذ . ومن الضروري أن يتعلم الكاتب النحو ومن الافضل ان يراعي قواعده على ان يتذكر دوماً أن النحو صيغة الكلام العادي والاستعمال هو المحك الوحيد ، وانني افضل الجملة السهلة غير المتكلفة على الجملة النحوية . ومن الفروق بين الانكليزية والفرنسية انك في الفرنسية تستطيع ان تكتب كتابـــة طبيعية مراعياً قواعـــد النحو ولكن الامر غير مطرد في الانكليزية ، وكذلك من الصعوبات في الكتابة الانكليزية كون صوت الحرف يؤثر في شكل الكلمة المطبوعة . ولقد أعطيت مسألة الاسلوب كثيراً من جهدي واهتمامي وهناك صفحات قليلة مما كتبت لا تحتـــاج الى تحسين ولكن اكثر ما كتبت لم يحظ بكل رضاي لانني على جهدي لم استطع ان اكتب افضل من ذلك ولست بقائل عن نفسي ما قاله جونسون عن بوب : (لم يغض عن غلطة قط ولم ينفض يده يأسا من اصلاحها) . انني لا اكتب ما اريده . انني اكتب ما استطيعه .

ولكن (فاولر) لم يكن ذا اذن مرهفة ، ولم يلحظ ان البساطة في كثير من الاحيان قد تؤدي الى الجرس الموسيقي ، ولست اعتقد ان الكلمة الغريبة او الحوشية او حتى المتكلفة تكون في غير محلها حين تعطي وقعاً افضل من الكلمة الواضحة العادية او حين توفر للجملة توازناً افضل . ولكنني اسرع فأضيف ان الكاتب لا يجوز قطعاً ان يأتي بما قد يلفع معانيه بالغموض . بالرغم من اعتقادي بأن المرء يستطيع ان يحقق الجرس الموسيقي دون ارتكاب هذا الخطأ .

واي كتابة ، مهما تكن ، هي افضل من الكتابة الغامضة ، ان الوضوح شرط اساسي للكتابة لا يحتمل اية مناقشة .

ليس ثمة ما يمكن أن يؤخذ على البساطة الا احتمال الجفاف وهي مخاطرة تستحق أن يجازف بها المرء ، أليس الصلع افضل بكثير من الشعر المستعار ؟ واما بالنسبة للجرس فهناك خطر له شأنه وهو احتمال الرتابة . فحين بدأ (جورج مور) بالكتابة كان اسلوبه فقيراً وكان يخيل لقارئه انه يكتب على ورق اللف بقلم غير مبري ، ولكن ، بالتدريج استطاع ان يغني موسيقي كتابته . وتعلم كيف يكتب جملا تقع على الاذن كالهمس الخفي ، وقد أغرم بهذه الموسيقي حتى انه لم يرو منها قط . ولم يستطع ان يتجنب الرتابة ، كانت اصداء كتابته أشبه بصوت الماء ينكسر على احضان شاطىء حصوي . . نعومة متناهية يكاد المرء يفقد احساسه بوجودها . انها شديدة الحلاوة لدرجة انك تشتهي احياناً شيئاً من الخشونة او نشازا مفاجئاً يقطع الانسياب الحريري ، ولست ادري كيف يستطيع المرء ان يحتاط لهذا المحذور ، وافترض ان الفرصة الوحيدة للكاتب هي ان يكون مزاجه ارهف من مزاج قرائه بحيث يشعر بالضيق قبل ان يشعروا به . وعلى المرء ان يظل يقظاً تجاه الاساليب الآلية ، فاذا ما وردت في كتابته ايقاعات معينة ، بسهولة ، فعليه ان يتساءل عن نصيبها من الآلية . ومن الصعب ان يكتشف الكاتب النقطة الدقيقة التي يكون فيها الاصطلاح الذي صاغه ليعبر عن نفسه قد فقد نكهته . وكما قال دكتور جونسن : (ان من راض نفسه مرة على صياغة الاسلوب بجهد يندر أن يكتب بسهولة تامة فيما بعد) . واني لاذكر باعجاب ان اسلوب (ما ثيو آرنولد) كان ملائماً لمقاصده الخاصة ، ولكن علي ان اعترف بأن تصنعه غالباً ما يسبب الضيق . لقد كان اسلوبه اداة اكملت صياغتها المرة الاولى والاخيرة ولكنها ليست كيد الانسان التي تستطيع ان تقوم بأنواع مختلفة من الاعمال .

ومتى استطعت ان تكتب بوضوح وبساطـــة وجرس موسيقي ، وان تطبع كتابتك بطابع من الحيوية ، فانك تكتب خـــير ما يكتب الناس ، أي على نحو ما يكتب (فولتير) ومع ذلك فلست أنكر ما في الركض وراء الحيوية من أخطار بليغة ، فقد ينتج عنها مثلا ما كتبه (مردث) من بهلوانيات مملة . وكان (كارليل)

و (ما كولي) أخاذين كل على طريقته الخاصة ، ولكنهما دفعا مقابل ذلك ثمناً غالياً هو العفوية . وكانا يشتتان ذهن القارىء بخواطرهما وصورهما البراقة مما افسد قوة الاقناع في كتابتهما ، ولن يقتنع احد بعزم امرىء على حراثة تلم في الحقل اذا كان يحمل طوقاً ويقفز داخله بين كل خطوة واخرى و كذلك كان شأنهما . ان الاسلوب الجيد ينبغي أن لا يبدو عليه اي أثر للتكلف ، والكتابة الجيدة ينبغي ان تبدو كأنها بنت مصادفة سعيدة ، ولا أظن احداً يكتب اليوم في فرنسا بأروع مما تكتب (كوليت) فهي تسوق عباراتها بسهولة توهم المرء أنها لم تبذل ادنى جهد في الكتابة ، وقد ترامي الي ان هناك نفراً من عازفي (البيانو) لهم قدرة فطرية على العزف بطريقة معينة لا يستطيع غيرهم من العازفين اداءها الا بالدأب المتواصل ، وانا اميل الى اقرار وجود مثل هؤلاء بين الكتاب ، وقد وددت لو اضع (كوليت) في قائمة هؤلاء الكتاب ، وخطر لي مرة ان استوضحها عن كتابتها ، وكم كانت دهشتي كبيرة حين اخبرتني انها تعيد ماتكتبه مرة بعد مرة ، وانها قد تقضي صباحاً كاملا في كتابة صحيفة واحدة ، وفي الحق ، ليست الطريقة التي تتم بها السهولة ذات شأن كبير اما انا فلا تتأتى لي السهولة – اذا كان لها ان تتأتى – الا بالجهد المضني ، ونادراً ما يسعفني الطبع بالكلمة أو بالعبارة تأتيان في موضعها دون ان تكونا عزيزتي المنال او مبتذلتين .

- ١٤

قرأت ان (أناتول فرانس) حاول ان يقتصر على استعمال التراكيب والمفردات التي تخص كتاب القرن السابع عشر الذين اعجب بهم اعجاباً شديداً ، ولست ادري مدى صحة هذا الكلام ، واذا كان صحيحاً فإنه يوضح بعض مافي فرنسيته البسيطة الجميلة من افتقار الى الحيوية . ولكن البساطة تصبح زيفاً اذا اعرضت عن قول شيء ينبغي ان تقوله ، لانك لم تستطع ان تقوله بطريقة معينة . وعلى المرء ان يكتب كما يكتب اهل عصره ، واللغة حيـــة ومتغيرة تغيراً مستمراً ، ومحاولة الكتابة على نمط الاوائل لاينجم عنها الا التصنع . ولست اتردد في استخدام العبارات الشائعة في ايامنـا هذه ، اذا توافرت فيها الحيوية والحركة رغم انني اعرف ان شيوعها مؤقت او انها عامية وقد تمسي غير مفهومة بعد عشر سنوات . واذا كان الاسلوب تقليدياً ، فيمكن من خلاله أن نجد استعمالا حصيفاً لبعض التعابير المحلية المؤقتة ، وما أفضل الكاتب العامي على الكاتب المتصنع لان الحياة نفسها عامية ، ولانها الحياة التي يريد .

واعتقد اننا ، أيها الكتاب الانكليز ، نستطيع ان نتعلم الكثير من زملائنا في الولايات المتحدة ، لان الكتاب الامريكيين نجوا من طغيان توراة (الملك جيمس) وهم اقل تأثراً بالائمـــة القدامى الذين تؤلف كتاباتهم جزءاً من ثقافتنا . وقد صاغ الامريكيون اساليبهم ــ وربما عن غير وعي منهم على نمط الكلام الحي الذي يطرق الاسماع من حولهم ، وتمتاز هذه الاساليب ، عند اتقانها ، بالقصد والحيوية والقوة ممـا يكسب اسلوبنا الاميل الى التهذيب طابعاً من الترهل . ومن مزايا الكتاب الامريكيين

ـ وأكثرهم كان في وقت ما مراسلاً ـ ان صحافتهم تكتب بانكليزية اشد مضاءوعصبية واقوى تصويراً من انكليزيتنا اذ اننا نقرأ اليوم الجريدة كما كان اجدادنا يقرؤون التوراة ، ونحن الرابحون لان الجريدة ، ولاسيما حين تكون من النوع الشعبي ، تمدنا بقسط من التجربة لانستطيع نحن الكتاب الاستغناء عنه ، انها المادة الخام ترد الينا مباشرة من سوق الحيل التالفة وما اغبانا اذا اشحنا عنها بانوفنا لانهـا تعبق برائحة الدم والعرق . ولن نستطيع ، مهما استبدت بنا الرغبة ، ان نهرب من تأثيرهذا النثر اليومي. ولكن صحافة فترة ما يكون لها اسلوب متشابه جداً كأنما كتب كلها بيد واحدة . وهي غير شخصية ، ومن المستحسن تلافي تأثيرها بقراءة من نوع آخر ، ولايتم ذلك الا بالاتصال المباشر المستمر بكتابة عصر غير بعيد جداً عن عصر الكاتب ، وهكذا يتوفر في حوزة المرء نفسه مستوى يقيس به اسلوبه ، ومثل يحتذيه على الطريقة العصرية. اما انا فقد وجدت (هازلت) و (كاردينال نيومان) خير من يدرس من اجل تحقيق هذا الغرض . ولم اقدم على تقليد أي منها ، (فهازلت) يمكن أن يكون بلاغياً في غير موضع البلاغة ، واسلوبه يعج بالزينة احياناً كالبناء الفكتوري ، و (نيومان) قد يكون اميل الى التنميق ، ولكن كتابتهما الجيدة تستحق الاعجاب ، ولم تستطع يد الزمن ان تؤثر فيها الا قليلاً فكأنها كتابة معاصرة . ان نثر (هازلت) حيّ محكم نشيط يتمتع بالقوة والحيوية ، وفي عبارته تشعر بالانسان ، الانسان الكامن في رؤاه المثاليـة ، لا الانسان الدنيء المحموم البغيض الذي بدا فيه هازلت للعالم الذي عرفه . (والانسان الكامن في داخلنا لايقل واقعيـة عن الانسان المسكين المتردد الذي نظهره) ، وفي اسلوب (نيومان) رشاقة بديعة ، وموسيقى عابثة حيناً جادة حيناً آخر ، وجمال في العبارة كجمال الغابات ، وتأنق ونعومة . وكلاهما كتب بوضوح بالغ ، ولم يكن أحدهما يتمتع بالبساطة التي يصبو اليها الذوق المصفى ، وهنا اعتقد ان (ماثيو أرنولد)

يتفوق عليها ، وكلاهما كان رائعاً في توازن عباراته ، وعرف كيف يكتب جملاً تسر الناظرين . وكان يتمتع بأذن بالغة الحساسية ..

واذا كان لاحد ان يجمع مزاياهما وفقاً لطريقة الكتابة في عصرنا ، فسوف يكتب خير مايمكن ان يكتبه انسان .



- ١٥ -

لقد تساءلت من حين لآخر : أكان من الممكن ان اصبح كاتباً افضل لو انني كرست كل حياتي للأدب ؟ . منذ عهد الصبا ، ولا اذكر في أية سن تم ذلك ، عقدت النية على ممارسة الحياة بأقصى ما استطيع من حول ، مادمت لا امتلك الا حياة واحدة ، ولم اكن لاقنع بالكتابة فقط ، واحببت أن اضع تصميماً لحياتي تحتل فيه الكتابة المنزلية الرئيسية ، ولكنه يشمل كل الفعاليات الاخرى التي تليق بالرجل ، فما يطويه الموت الا منجزاً تاماً ، وما اكثر ما كان في من مثبطات ، كنت ضئيل الحجم ، ضعيف القوة الجسدية ، متلجلج اللسان ، خجولاً ، منحرف الصحة ، ولم استطع ان اطرق باب الالعاب وهي التي تأخذ من الحياة السوية للانكليزي جانباً على غاية الاهمية ، وربما لاي من هذه الاسباب ، او لطبع متأصل فيّ ، كنت احس بنفور غريزي من زملائي وتعصب عليّ مخالطتهم . ولقد احببت الافراد ولم الق بالا الى الجماهير ، ولم ارزق ذلك الاستعداد للالفة الذي يدفع المرء الى الاندماج مع الآخر عند أول لقاء ، وبالرغم من انني تعودت ، مع الايام ، على اظهار المودة القلبية كلما اضطررت ان احتك بشخص غريب ، الا انني لم استملح انساناً من النظرة الاولى على الاطلاق ، ولا أظن انني بدأت بمخاطبة أي شخص لا اعرفه سواء في القطار أو على ظهر الباخرة مالم يبدأني هو بالكلام . ثم ان ضعف بنيتي حرمني من التمتع بذلك النوع من التمازج بين الناس الذي ييسره شرب الكحول ، وما كان ابعدني عن بلوغ مرحلة السكر التي تحمل من هم أسعد تكويناً مني على أن يعتبروا جميع الناس اخوة لهم ، اذ سرعان ما كانت معدتي تنقلب علي وارتمي مريضاً كالكلب قبل ان يدركني السكر ، وهذه نقائص خطيرة سواء في

الرجل او في الـكاتب ، وقد عملت على تلافيها ما استطعت ... واصررت على التصميم الذي وضعته لنفسي ، ولست ادعي انه كان كاملا ، ولكنني اعتقد انه افضل ما كنت اؤمله وانا على هذه الحال وضمن هذه القوى المحدودة التي منحتني اياها الطبيعة .

وقديماً قرر أرسطو أن وظيفة الانسـان الخاصة ، هي الفعالية الروحية ، نظراً لأنه يشترك مع النبات في خاصة النمو ، ومع الحيوان في الحس ، وهو وحده الذي يمتلك عصر العقل . ومن ذلك استنتج أرسطو ــ خلافاً لما قد تحسبه معقولاً ــ ان الانسان لا ينبغي أن يرعى الأشكال الثلاثة من الفعاليات التي عزاها له ، ولكن عليه ان يرعى تلك الفعالية الخاصة به ،والفلاسفة والأخلاقيون لم يحسنوا الظن بالجسد واعتبروه وجيز الرضى ، ولكن اللذة ليست سوى اللذة ، لأن الاحساس بها لا يستمر الى الابد .. انه يطيب لك ان تغطس في الماء البارد ذات يوم حار ، مع انها لحظة واحدة ، ونفقد بعدها متعة الاحساس ببرودة الماء .. ولن يزيد البياض بياضاً لو استمر عاماً كاملا أو يوماً واحداً ، وهكذا فقد جعلت في مخططي نصيباً لمحاولة التمرس بكل اللذات الحسية. ولم أخش الاسراف لأن الاسراف في حينه يبهج النفس ، ويمنع الاعتدال من اكتساب تأثير العادة المميت ، انه يناسب الجسم ويريح الاعصاب ، والروح في الأغلب تكون اكثر حرية حين يسكن الجسد الى اللذة ، والنجم يبدو ، بالفعل ، اشد التماعاً لعين الناظر في الوادي منه في قمة تل ، ان انفذ لذة يتحسسها الجسد هي الاتصال الجنسي ولقد عرفت رجالاً كرسوا حياتهم لها، وقد شاخوا اليوم ، ولكنني لاحظت بشيء من الدهشة انهم راضون عن ايامهم السالفة ، اما انا فمن سوء حظي ان حدة في طبعي قد حرمتني من الانغماس في هذه اللذة على النحو الذي كنت خليقاً به ، لقد مارست الاعتدال لانني كنت عزيز الارضاء ، وحين اتيح لي بين وقت وآخر ان ارى بعض من قضى معهم المحبون الكبار رغائبهم كنت اعجب من عنفوان شهوتهم اكثر من حسدي اياهم على ما حققوه ، ومن الواضح انك لن تشعر بوطأة الجوع اذا كنت ترضى بلحم ضأن وملفوف.

ان معظم الناس يعيشون حيوات سائبة ويخضعون لتقلبات الحظوظ . وكثيرون

منهم يضطرون ، بسبب الظروف التي رافقتهم منذ الولادة ، وضرورة كسب الرزق الى التزام درب مستقيمة ضيقة لا فرصة فيها لانحراف الى اليمين او الشمال . ومثل هؤلاء يكون تصميم حياتهم مفروضاً عليهم من قبل الحياة ، وليس من سبب يحول دون ان يكون هذا التصميم كاملا شأنه شأن أي تصميم وضعه المرء باختياره . ولكن الفنان يقف في وضع يمتاز عن غيره ، وانا اذ استعمل كلمة الفنان لا أرمي الى نسبة أية قيمة لانتاجه ولكن لمجرد الدلالة على أي شخص يشتغل بالفنون ، وطالما تمنيت لو أجد كلمة أنسب . ان المبدع يميل الى الادعاء ، وينسب الى نفسه اصالة يندر ان نجد تبريراً لهـا ، وكلمة (الصانع) لا تكفي للدلالة عليه ، فالنجار صانع ، ومع انه قد يكون فناناً بمعنى من المعاني ، فهو بطبيعة عمله يفتقر الى حرية العمل التي يمارسها اسوأ خطاط وأردأ دهان . والفنان يستطيع ضمن حدود معينه ان يكيف حياته على هواه . أما في المجالات الاخرى من الحياة كالطب او الحقوق فأنت حر في اختيار اختصاصك ، ولكنك بعد الاختيار تفقد حريتك وتنصاع لأحكام المهنة ، فهناك اذا نمط من السلوك يفرض عليك ، وهو نمط محتم ، وليس الا الفنان ، وربما المجرم من يستطيع ان ينتهج النمط الذي يريد . .

وربما كان ميلي الطبيعي الى الترتيب هو الذي جعلني أنهمك في وضع تصميم لحياتي منذ ان أيفعت ، وربما كان السبب يعود الى شيء اكتشفته في نفسي لن أعرض له فيما بعد الا قليلا . ويكمن خطر وضع تصميم للحياة في الخوف من قضائه على البداهة ، وهناك فرق عظيم بين أشخاص الواقع وأشخاص الرواية ، يتلخص في أن اشخاص الواقع يخضعون للدوافع الفطرية ، وقد قيل ان الميتافيزياء (ما وراء الطبيعة) هي ايجاد أسباب سيئة لما نعتقده بغرائزنا ، وفي نطاق الحياة نستطيع ان نقول ايضاً اننا نلجأ الى التصميم لتحقيق الاعمال التي نرغب فيها .. ان الخضوع الى الدافع جزء من تصميم الحياة ، واعتقـد ان

العيب الاكبر لهذا التصميم هو انه يجعلنا نعيش في المستقبل اكثر مما ينبغي . وقد ادركت هذا الخطأ منذ زمن طويل وعبثاً حاولت أن أصلحه ولم تخامرني ، الا بجهد الارادة ، الرغبة ان تطول اللحظة العابرة حتى استطيع ان انال منها متعة اكبر ، وحتى حين تأتيني اللحظة بشيء طالما صبوت اليه يكون خيالي في برهة تحقيق مرادي مشغولا بمشكلة المتعة المقبلة .. ولم امش يوماً في القسم الجنوبي من ميدان (بيكاديلي) الا فكرت فيما يجري في شماله ، وهذا حق ، فاللحظة الراهنة هي وحدها كل ما يمكننا ان نتأكد منه ، والمنطق السليم يدعونا الى ان ننتزع منها كل قيمتنا . والمستقبل سيصبح حاضراً يوماً ما ، وسيبدو ضئيل الأهمية كما يبدو الحاضر الان . ولكن المنطق السليم لا يجديني فانا لا أجد الحاضر غير مرض ، بل اقبله على علاته مادام قد دخل في التصميم واما الذي يعنيني ، فهو الذي سيأتي من بعد ..

لقد ارتكبت في حياتي اخطاء كثيرة ، ووقعت عدة مرات ضحية هوة يتعرض لها الكتاب بوجه خاص ، وراودتني الرغبة في القيام بأعمال معينة سبق ان جملت الشخصيات التي ابتدعتها تقوم بها وقد جربت أموراً كانت غريبة على طبعي ، وانغمست فيها بعناد لانني ، على كبريائي ، لم اكن لاعترف انني هزمت . وكذلك كنت أولي آراء الاخرين اهتماماً مفرطاً وقد ضحيت من اجل موضوعات تافهة لان شجاعتي لم تسعفني لايلام الآخرين . وكثيراً ما ارتكبت الحماقات . ولي ضمير حي ، وقد أتيت افعالا معينة في حياتي لا أستطيع نسيانها . ولو أن حظي أهلني لان اكون كاثوليكياً لكنت خلصت نفسي منها بالاعتراف ، وبعد اداء الجزاء المضروب نلت الغفران وارحت ذهني منها الى الابد ، ولكن كان علي ان اتصرف وفق منطقي . انني لست نادماً على اخطائي ، واعتقد ان لها الفضل في تعليمي التسامح مع الآخرين ، وقد استغرق هذا الامر وقتاً طويلا . وفي شبابي كنت متصلباً خشناً ، وما زلت أذكر ثورة نفسي حين سمعت احدهم يقول ،

ان النفاق هو جزية تدفعها الرذيلة للفضيلة ، وهي فكرة معروفة ، ولكنها كانت جديدة بالنسبة لي حينذاك . كنت اعتقد ان الانسان ينبغي ان يكون شجاعاً في رذائله ، وكنت أومن بالشرف والاستقامة والصدق ، ولم أكن ناقماً على نقائص الانسان ، بل على الجبن ، ولم اقبل عذرا للمرائين والمراوغين ، ولم يخطر لي انني كنت احوج الناس الى التسامح ..

●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

- ١٦ -

للوهلة الاولى يبدو غريباً أن تجنينا على الآخرين أقل ايذاء في نظرنا من تجـــني الآخرين علينا ، ولعل السبب راجع الى أننا نعرف كل الظروف التي لابست أفعالنـا ، فيسهل علينا أن نبرر من تصرفاتنا مالا نبرره من تصرفات الآخرين . ونحـــن نغض الطرف عن نقائصنا فاذا ما أكرهنا على النظر فيها سهل علينا أن نجد لهامخرجاً . وعندي أننا محقون في هذا التصرف ، فعيوبنا جزء منا وما علينا الا أن نقبل الخير والشر معاً في نفوسنا ، ولكننا حين نحاكم الآخرين ، لانحكم عليهم بنفوسنا كما هي في الواقع بـل بصورة كوناها عن نفوسنا بعد أن طرحنا كل مايجرح كبرياءنا ، وكل ما من شأنه أن يخفض منزلتنا في أعين الناس ، ولنأخذ شاهداً بسيطاً على ذلك : ماأشد مانحتقر شخصاً اذ نضبطه وهو يكذب ولكن من منا يستطيع أن يقول انه لم يكذب ، ليس مرة واحدة ، بل مئة مرة ؟ وكذلك يصدمنا أن نكتشف أن الرجال العظام كانوا ضعـافاً ووضيعين ، ومخاتلين أو أنانيين ، وفاسدين جنسـياً ، ومغرورين أو مسرفين علىأنفسهم ، وكثير من الناس يعتبرون افشاء عيوب أبطالهم آمراً غير لائق ، ولكن أي الرجـــال المهذب ؟ كلهم خليط من العظمة والصغـــار ، من الفضيلة والرذيلة من النبل والحطة . وبعضهم أقوى شخصية أو أرحب فرصة ، وكلهم يطلق العنان لغرائزه في اتجـاه أو في آخر ، ولكنهم جميعاً واحد في الجوهر . ومن جهتي لاأعتقد أنني أفضل من سائرالناس أو اسوأ منهم ، ولكنني اعلم انني اذا بسطت كل عمل عملته في حيـــاتي ، وكل فكرة خطرت في ذهني فسينظر العالم الى نظرته الى وحش فاجر .

واني لاستغرب كيف لايخجـل المرء من ادانة الآخرين حين يستعرض أفكاره

الخاصة ان قسماً كبيراً من حياتنا غارق في الاحلام، وكلما كان خيالنا أقوى كان هذا القسم أكثر حيوية وتنوعاً. ومن فينا يستطيع الصمود لو عرض امامه سجل كامل لاحلامه؟ لابد لنا حينذاك ان ننهار امام عارنا، وليس لنا الا ان نصرخ محتجين بأننا لا يمكن ان نكون فعلا، في هذا الدرك من الدناءة، واللؤم، والوضاعة، والانانية، والهوس، والعنجهية والغرور، وسطحية العاطفة .. على ان احلامنا هي، بالتأكيد، منا بقدر ماتكون افعالنا منا، واذا قدر لانسان ان يطلع على دخائلنا اطلاعاً تاماً، فاننا نشعر ازاءه بمسؤولية لاتقل عن مسؤولية افعالنا والناس ينسون الافكار المرعبة التي تجوس في اذهانهم وتثور نفوسهم حين يقعون على هذه الافكار في غيرهم، ويروي لنا (غوته) في (الحقيقة والشعر [1]) كيف انه لم يحتمل في شبابه ان يكون والده محامياً من الطبقة الوسطى في (فرانكفورت) لقد كان يشعر بأن دماً نبيلا ينبغي ان يسري في عروقه، وهكذا حاول ان يقنع نفسه بأن احد الامراء قد مر بتلك المدينة، وقابل امه واحبها، وجاء هو ثمرة هذا الحب. وقد كتب محرر النسخة التي قرأتها تعليقاً ثائراً على الموضوع وذكر انه لا يليق بشاعر كبير مثل (غوته) ان يصم شرف امه الذي لا مجال للشك فيه لكي يريش بمنجهية ارستقراطيته الزنيم وهذا امر غير لائق حقاً، ولكنه ليس مخالفاً للطبيعة، بل اجرؤ ان أقول انه شائع. ومن بين الصبيان الرومانتيكيين الثائرين الخياليين، ما اقل من لم تداعب مخيلته فكرة استحالة كونه ابن ابيه البليد الموقر، فعزا ما كان يؤزنه في نفسه من وهم التفوق الى شاعر مجهول، أو سياسي عظيم، او أمير حاكم، وهذا الموقف الاوابي ل «غوته» ملأ نفسي تقديراً له فيما بعد، فالرجل يستطيع أن يكتب مؤلفات عظيمة، ويظل رجلاً بمعنى الكلمة.

وأخال ان مثل هذه الافكار الانانية الدنيئة البشعة المنحطة، هي التي عذبت القديسين واستقرت في عقولهم رغم ارادتهم، حتى بعد ان كرسوا حيواتهم للخير، وبعد

---

(١) Wohrheit und Diehtung

ان كفرت التوبة عن خطاياهم السابقة . وحين ذهب القديس « أغناطيوس لويولا » ، كما نعلم الى (مونسرات) ادى اعترافاً شاملاً ونال الغفران ، ولكنه ظل مهووساً بشعور من الخطيئة كان يدفعه الى قتل نفسه . وحتى تاريخ اهتدائه ، كان يتمتع بالحياة المعتادة للشاب ذي المنبت الشريف في تلك الايام ، وكان مغتراً نوعاً ما بمظهره ، وقد زنى ، وقامر ، ولكنه اظهر في مرة واحدة على الاقل سمواً روحياً ، وكان دائماً شريفاً مخلصاً ، كريماً شجاعاً ... واذا كانت طمأنينة النفس لم تواته ، فماذاك الا انه لم يستطع ان يسامح نفسه على ما تذهب اليه من افكار ، وقد يكون عزاء لنا أن نعرف ان القديسين أنفسهم عانوا من هذا الامر . وحين كنت نرى عظماء الارض مترفعين منتصبين في مجالسهم ، كنت اسأل نفسي هل يتاح لهم في مثل تلك اللحظات أن يذكروا كيف يملأ عقولهم فراغ وحدتهم ؟ وهل ازعجهم يوماً ما ، التفكير بالاسرار التي تنطوي عليها نفوسهم المتأبية ؟

يبدو لي أن معرفتنا باشتراك الناس جميعاً في مثل هذه الاحلام قمينة بأن تلهمنا مع نفوسنا ومع غيرنا ، وما اجدرها ان تمكننا من النظر الى زملائنا ، ولاسيما المبرزين والاجلاء منهم ، بعين الدعابة ، والنظر الى انفسنا بقليل من الجدية .. وكلما سمعت القضاة يعظون الناس بحماسة من على منصاتهم سألت نفسي : هل تمكن ان ينسوا انسانيتهم مثل هذا النسيان التام الذي توحي به اقوالهم ؟ وكم تمنيت لقاضي القضاة في (اولد بيلي) ان يضع الى جانب باقة الزهر امامه رزمة من اوراق الحمام (التواليت) ، اذاً لتذكر دوما انه انسان كسائر الناس .

لقد وصفت بأنني متشكك، واتهمت بأنني اجعل الناس اسوأ مماهم ولا اظنني فعلت ذلك... كل ماعملته هو انني ابرزت خصائص انسانية معينة اعتاد الكتاب ان يشيحوا بابصارهم عنها، واعتقد ان اظهر ما لفتني من صفات بني الانسان، قلة ثباتهم، لم اشهد في حياتي اناسا قدوا من معدن واحد، وقد حيرني ان الانسان الواحد تجتمع فيه صفات ابعد ماتكون عن التجانس، ومع ذلك تراها متساوقة في انسجام معجب، وكثيراً ماسألت نفسي، كيف توجد في الانسان نفسه صفات لايجمعها اي جامع؟ لقد عرفت دجالين قادرين على التضحية بالنفس، واصوصاً ذوي طبيعة عذبة، ومؤمسات يعتبرن من الشرف بذل مقابل لائق للمــــال الذي يدفع لهن، والتفسير الوحيد لهذا الوضع عندي هو ان كل انسان له من الاعتقاد الغريزي بتفرده وتميزه في هذا العالم مايدفعه الى الشعور بان مايقوم به من أعمال مهما تكن خاطئة في نظر الآخرين، يصح أن تغتفر، هذا اذا لم يعتبرها طبيعية ومحقة. وهذه المفارقات التي وجدتها في الناس كانت موضع اهتمامي، ولكنني لااعتقد انني بالغت في تأكيدها. وماوجه الي من مأخذ بين حين وآخر ربما يعود الى انني في الواقع لم أحمل على النواحي الشريرة في الشخصيات التي خلقتها، ولم اثن على النواحي الخيرة. وقد يكون من بين اخطائي انني لااندد كثيراً باخطاء الآخرين مالم تقع علي جرائرهــــا، وحتى في مثل هذه الحالة، انتهيت اخيراً الى التماس العذر لهم، وعليك ان تكون ممتناً اذا عاملك الناس معاملة طيبة، وأن لاتثور اذا عاملوك معاملة سيئة (لان كلا منا ــ على حد قول الغريب الاثيني ــ طبع على ماهو عليه بعامل رغائبه وطبيعة روحه) ان مايمنع الناس من رؤية الامور من غير زاويتهم الخاصة، ليس الانقصاً في الخيال، ولا يعقل ان يستبد بنا الغضب منهم، لانهم يفتقرون الى هذه الملكة.

وفي رأيي انني ملوم حقاً اذا رأيت عيوب الناس فقط وتعاميت عن فضائلهم ، ولا أعتقد ان هذا هو الواقع ، وليس من شيء يفوق الطيبة حسناً ؛ وكم امتعني ان اظهر مدى توفرها في الاشخاص الذين تدينهم الاحكام الشائعة بلا هوادة .

وانما اظهرت هذه الطيبة لانني رأيتها فعلا ، وبدت لي احيانا اسطع في نفوس هؤلاء لانها كانت تتلألأ في ظلمة الخطيئة انني اعتبر طيبة الطيبين امراً طبيعياً ، ويسليني ان اكتشف عيوبهم ورذائلهم بينما يهزني أن أرى الطيبة في اللئام ، ويحلو لي أن أغض الطرف عن لؤمهم ، ولا أعتبر نفسي قاضياً عليهم وانما تكفيني مراقبتهم ، وهذه المراقبة هي جعلتني اخيراً اعتقد بعدم وجود فارق كبير بين الصالحين والطالحين ، خلافاً لما يؤمن به الاخلاقيون .

لم اكن ، بوجه عام ، اميل الى تقدير الناس من خلال مظهرهم ، ولست ادري اذا كانت هذه البرودة في التفحص موروثة عن آبائي ، وهم الذين لم يكن لهم أن ينجحوا في المحاماة ولو لم يرزقوا من نفاذ النظرة ماوقاهم شر الانخداع بالمظاهر ، او لعلها ناتجة عن افتقاري الى تلك الدفقه البهيجة من العاطفة التي تدفع الناس الى التآلف والاستئناس عند اللقاء الاول . وقد اذكى في هذه الصفة ، على أي حال ، تمرني على ممارسة الطب ولم اكن ارغب في ان اصير طبيباً بل كنت اود ان اصبح كاتباً ، ولكن حيائي كان يمنعني من التصريح بذلك في وقت يستهجن فيه الناس ان يقدم ولد في الثامنة عشرة ، من اسرة محترمة ، على اتخاذ الادب مهنة له . وكانت هذه الفكرة غريبة جداً حتى انني لم احلم قط بالافضاء بها الى احد . وفي بادىء الامر توقعت ان ادخل عالم الحقوق ، الا ان اخوتي الثلاثة – وهم اكبر مني كثيراً – كانوا يمارسون هذه المهنة ، فلم يبق لي متسع فيها .

- ١٨ -

تركت المدرسة مبكراً ، ولم اكن سعيداً في المدرسة التحضيرية التي الحقت بها بعد وفاة والدي ، لانها كانت في (كنتربري) على مسافة ستة اميال فقط من (ويتستيبل) حيث كان عمي – وهو الوصي علي – قسيسها . انها فرع من المؤسسة القديمة (مدرسة الملك) ، واليها ارسلت حين بلغت الثالثة عشرة ، وقد اكتفيت بانجاز الصفوف الدنيا التي كان اساتذتها قساة مرعبين ، ثم شاء لي سوء حظي أن اقع فريسة مرض اكرهني على قضاء فصل من السنة في جنوب فرنسا ، ذلك ان امي واختها الوحيدة ماتتا بالسل ، وحين تبين ان رئتي قد اصيبتا بالعدوى ، اهتم عمي وعمتي للامر . ومن ثم وضعت في رعاية معلم في (هييرس) . وعندما عدت الى (كنتربري) لم ارتح للحياة فيها ، فأصدقائي بنوا صداقات جديدة اصبحت معها وحيداً ، ونقلت الى صف اعلى بعد ان اضعت ثلاثة اشهر ، فوجدتني كحاطب ليل ، واخذ معلم الصف ينكد عيشي ، فاقنعت عمي بانه من الافضل لرئتي ان اغادر المدرسة واقضي الشتاء في الريفييرا ، وانه من مصلحتي الذهاب الى المانيا بعد ذلك لتعلم الالمانية ، حيث يمكنني الاستمرار في دراسة الموضوعات المؤهلة لدخول (كامبردج) ، وكان عمي رجلا ضعيفاً ، وكانت حجتي قوية . وما كان عمي ليحبني ، ولست الومه مادمت اعتقد بأنني لم اكن ولداً محبوباً ، ولما كنت سأصرف على تعليمي من مالي الخاص ، فقد اعطاني حرية الاختيار ، وحبذت عمتي الخطة ، وكانت المانية رفيعة النسب ، خالية الوفاض ، فخورة بما عند اسرتها من عدد الحرب وشارات الاحلاف والوقائع ، وقد رويت في مكان ما من هذا الكتاب كيف انها ترفعت ، وهي زوجة قس فقير ، عن زيارة زوجة ثري اقام صيفاً في جوارنا ، ذلك لانه كان يشتغل

بالتجارة . وهي التي رتبت لي امر الذهاب الى اسرة في (هيدلبرغ) كانت قد سمعت عنها من اقاربها في ميونيخ .

غير انني حين قفلت عائداً من المانيا ، وسني هي الثامنة عشرة ، فقد كانت لدي وجهة نظري الخاصة ، الجازمة ، حول مستقبلي ، وكانت تملأ نفسي سعادة لم اعهدها من قبل ، فقد تذوقت طعم الحرية ، ولم اعد احتمل فكرة الذهاب الى (كمبردج) والخضوع مرة ثانية للقيود ، وراودني شعور بالرجولة ، وتشوق الى خوض غمار الحياة في الحال ، ورغبت ان لا اضيع دقيقة واحدة . كان عمي يأمل دائماً ان التحق بالكنيسة ، مع انه كان خليقاً ان يعلم انها ابعد ما تكون عن ملاءمتي ، بسبب الجلجلة كنت اعاني منها ، وقد نزل عند رغبتي في عدم الذهاب الى (كمبردج) بلا مبالاته المعهودة ، ومازلت اذكر الى الآن المناقشات السخيفة التي دارت حول تقرير مصيري ، وقد اقترح بعضهم ان التحق بخدمة الحكومة ، وكتب عمي الى صديق قديم له من ايام (اوكسفورد) يشغل منصباً هاماً في وزارة الداخلية يسأله المشورة . وكان الحل ان وظائف الحكومة لم تعد تليق بالاشراف بسبب نظام الفحص والطبقة الاجتماعية التي دخلت الوظائف الحكومية وهكذا تقرر أخيراً ان اصبح طبيباً ولم استسغ مهنة الطب ولكنها اعطتني فرصة الاقامة في لندن وحققت صبوتي لخوض تجربة الحياة . فقد دخلت مستشفى (سانت توماس) في خريف سنة ١٨٩٢ ووجدت منهاج السنتين الاوليين بليــــداً ، ولم اصرف من الانتباه لعملي الا القدر الذي يؤهلني لاجتياز الامتحانات ، وهكذا كنت تلميذاً غير مجد ، ولكنني تمتعت بالحرية المنشودة ، وجعلت سكناي في اماكن مستقلة ، اعيش فيها وحيداً مع نفسي ، واعتز بجعلها جميلة ومريحـــة ، وقضيت كل فراغي ومعظم الوقت الذي يفترض فيَّ ان اخصصه للدراسات الطبية في المطالعة والكتابة لقد قرأت بغزارة وملأت دفاتري بأفكار قصص ومسرحيات ومقاطع من الحوار والتأملات اوحت لي بها قراءاتي وتجاربي ، وكلها خال من نفح العبقرية .. ولم اتوغل في حياة المستشفى الا قليلا ، وكان اصدقائي هناك قلة لانني كنت مشغولا بأمور اخرى . على انني اخذت ابدي شيئاً من

الاهتمام بعد انقضاء السنتين الاوليين ، إذ اصبحت موظفاً في دائرة المرضى الخارجيين .
واخذ اهتمامي بالعمل يتزايد ، واقبلت على ممارسة الطب حتى انني حين اصبت بالتهاب اللوزتين خلال اجرائي كشفاً على جثة كانت في حالة بالغة من التشويه ، واضطررت الى ملازمة الفراش ، لم اكد اطيق صبراً على البعد عن واجباتي . وكان عليّ ان اخضع لعدد من القيود قبل ان انال الشهادة ، بما في ذلك ان اذهب الى اكواخ (لامبث) ، وغالباً الى اماكن خطرة كانت الشرطة تتردد قبل دخولها ، ولكن حقيبتي السوداء كانت تحميني ، وعلى اية حال ، فقد استغرقت في العمل .. ولفترة من الزمن ، كانت مهمتي اجراء الاسعاف الاولي لجميع الحالات الطارئة ليل نهار ، وقد اتعبتني هذه المهمة ، ولكنها انعشتني انعاشاً عجيباً .



- ١٩ -

ها هنا ، بلغت أقصى ما تمنيت ، ألا وهو الاتصال بالحياة في شكلها الخام الطبيعي ، ففي ثلاث سنوات من ممارسة الطب كان لابد لي ان اشاهد تقريباً كل انفعال يدخل في طاقة الانسان ، وهذا ما أرضى غريزتي الروائية وأثار شخصية القاص في نفسي ، حتى انني اليوم ، بعد انقضاء اربعين عاماً استطيع ان اتذكر أناساً معينين تذكراً دقيقاً يمكنني من رسم صورة لهم ، ومازالت العبارات التي كانوا يرددونها تطن في أذني . لقد شهدت كيف يموت الناس ، وكيف يتحملون الألم ، ورأيت الأمل مجسماً ، وكذلك الخوف والارتياح ، ورأيت الخطوط السود التي يرسمها اليأس على الوجه ، ورأيت الشجاعة والثبات ، ورأيت الايمان يلتمع في عيون أناس وثقوا بما لا أستطيع أن اسميه الا وهماً، ورأيت الشجاعة التي تدفع الانسان الى ان يستقبل أعراض الموت بنكتة ساخرة لأن كبرياءه لم تسمح له بأن يدع الناس يطلعون على الرعب الذي يجتاح روحه .

في تلك الايام (اذ كان الناس في بحبوحة من العيش ، سلامهم مضمون ، ونجاحهم مؤكد) ظهرت مدرسة من الأدباء بالغت في تقدير القيمة الخلقية للمعاناة ، وادعت انها خيرة ، وانها تقوي العاطفة وتشحذ الاحساس ، وانها تفتح أمام الروح معارج من الجمال جديدة ، وتؤهلها لأن تكون على صلة مع مملكة الله وأسرارها ، وأنها تقوي الشخصية وتطهرها من غلظتها البشرية وتمنح من ينشدها ، لا من يتجنبها ، سعادة أقرب الى الكمال . وقد ظهرت كتب عديدة في معنى هذه الأسطر ، ولاقت نجاحاً عظيماً ، على حين كان مؤلفوها الذين يرتعون في منازلهم المريحة ، ويتناولون ثلاث وجبات يومياً ، ويرفلون بأثواب العافية ، ينعمون بشهرة واسعة . وقد سجلت في دفتري ، في أماكن كثيرة ،

لا مرة ، ولا مرتين ، الحقائق التي رأيتها ، وعرفت أن المعاناة لم تسم بالمرء بل انحطت به ، وصيرت الناس أنانيين دنيئين وضيعين مرتابين ، وجعلتهم ينغمسون في الصغائر ، ولم ترفعهم فوق الرجال بل خفضتهم دونهم . وكتبت يومذاك باصرار ، أن المرء لا يتعلم الجلد عن طريق معاناته الخاصة ، بل من معاناة الآخرين .

كان ذلك كله خبرة قيمة لي ، ولست أعرف تدريباً للكاتب أفضل من قضاء بضع سنوات في ممارسة الطب . وأحسب أنك تستطيع ان تتعلم الكثير عن الطبيعة الانسانية في مكتب محام ، ولكنك إذ ذاك تتعامل مع الناس وهم في كامل وعيهم ، وقد يكذبون هناك بقدر ما يكذبون على الطبيب ، ولكنهم يكذبون بثبات ، وكذلك قد لا يكون الاطلاع على الحقيقة ضرورياً جداً للمحامي ، ثم ان القضايا التي يعالجها مادية ، عادة ، وهو يرى الطبيعة البشرية من زاوية اختصاصه . ولكن الطبيب ، ولاسيما طبيب المستشفى فانه يرى الطبيعة الانسانية عارية ، قليلة التحفظ عامة بل خالية منه في أغلب الاحيان . ان الخوف قادر على تحطيم كل دفاع للانسان حتى ان الغرور نفسه ينهار أمام الخوف ، ومعظم الناس لديهم شهوة هائجة للحديث عن أنفسهم وليس يوقفهم عن ذلك الانصراف الآخرين عن الاستماع اليهم ، بينما التحفظ صفة متكلفة تنميها عند أغلب الناس الصدمات التي لا تحصى ، ولكن الطبيب ينبغي أن يكون حليماً .. ان وظيفته هي أن يستمع بينما التفاصيل التي يسمعها لا تشوق أذنيه ..

على انك لن تتعلم شيئا من الطبيعة التي تعرض أمامك اذا لم تكن ذا بصر ثاقب . فان كان التعامل يعميك ، أو كان مزاجك مرهفاً ، فقد تجوب أرجاء المستشفى وتخرج منها جاهلا مثلما دخلت . واذا رغبت في أن تجني أية فائدة من هذه التجربة فلا بد أن تكون منفتح الذهن ، مهتماً بالكائنات البشرية . وانني اغبط نفسي لأنني وجدت الناس بالرغم من أنني لم احبهم كثيراً ، ممتعين جداً لدرجة لا أستطيع معها ان أتبرم بهم ، ولست أحب ان اتولى الحديث ، ولكنني مولع بالاصغاء .. انني لا ابالي اذا كان الناس يهتمون بي او لا يهتمون ، ولا أشعر بالرغبة في الافضاء بما اعرفه الى الآخرين ، ولا

أحس بالحاجة لردهم الى الصواب اذا زلت بهم القدم . وانك لتستطيع أن تنتزع قسطاً كبيراً من التسلية من الناس المتعبين اذا تذرعت بالصبر ، وما زلت اذكر انني خرجت الى نزهة بالسيارة في بلد غريب مع سيدة أحبت ان تربني الجوار ، وكان حديثها جملة بديهيات ، معتمدة على رصيد ضخم من العبارات المبتذلة التي يشت من تذكرها ، ولكن ملاحظة واحدة أبدتها رسخت في ذهني الى جانب الاقوال الذكية القليلة التي اقبلها عادة. قالت لي حين كنا نجتاز صفاً من المنازل الصغيرة على شاطىء البحر : (هذه اكواخ خاصة بعطلة الاسبوع اذا كنت تفهم ما اقول ، وبعبارة أخرى هي اكواخ يقصدها الناس أيام السبت ويغادرونها ايام الاثنين) ولشد ما أسفت لما فاتني حينذاك !!

لست أحب ان اقضي اوقاتاً طويلة مع الغلاظ من الناس ، وكذلك لا احب ان اقضي وقتاً طويلا مع الأنيسين منهم ، ان مخالطة الناس تتعبني ، واعتقد ان معظم الناس ينتعشون ويرتاحون الى الحديث ، اما عندي فهو عبء دوما ، وحين كنت اتعلم في حداثتي كان انفرادي بالكلام ينهكني ، وحتى اليوم بعد ان شفيت نوعاً ما ، مازال الحديث يجهدني ، وكم اشعر بالارتياح اذ اتخلص من الناس وانصرف الى قراءة كتاب .

- ٣٠ -

لست أزعم لحظة ان تلك السنوات التي قضيتها في مستشفى (سانت توماس قد أمدتني بمعرفة للطبيعة البشرية كاملة ، ولا أحسب أن ثمة انسانا يطمع أن يتم له ذلك . . لقد دأبت على دراسة الطبيعة البشرية مدة اربعين عاماً ، في شعوري ولا شعوري ، ومازلت عاجزاً عن تبرير تصرفات الناس ، فقد يفجؤني أصدقائي الخلّص بعمل لم أكن قط أحسبهم قادرين عليه ، او باكتشاف ناحية جديدة فيهم تفصح عن جانب من نفوسهم لم أكن أرتاب فيه قط . ولعل تدريبي في مستشفى (سانت توماس) تسبب في انحراف نظرتي الى الناس ، لان الذين اتصلت بهم هناك كانوا غالباً مرضى وفقراء وسيئي التعليم ، وقد حاولت ان احتاط لذلك ، كما حاولت ايضاً ان أحتاط لطباعي الاصلية ، فليس لي ثقة بالآخرين وانا أميل الى توقع الشر منهم قبل الخير ، وهذه ضريبة ينبغي ان يدفعها كل من كان عنده إحساس بالفكاهة ، ذلك الاحساس الذي يدفعك الى التماس المتعة في تناقضات الطبيعة البشرية ، ويقودك الى سوء الظن بالمهن الكبيرة والبحث عن الدوافع القبيئة التي تختفي وراءها . ان المفارقة بين الجوهر والمظهر تلهيك حتى انك تعمل على اختلاقها اذا لم تجدها ، وانك لتميل الى الاشاحة عن الحق والجمال والخير لانها لا تعطي مدى لاحساسك بما يضحك . ان عين الفكه تحط بسرعة على المحتالين ولا تعترف دائماً بالقديسين . واذا كانت رؤية الناس من جانب واحد ثمناً باهظاً لحس الفكاهة فلا تنس أن هناك تعويضاً له شأنه أيضاً . انك لا تغضب من الناس حين تضحك منهم ، والمرح يعلم التسامح ، وما أجدر الانسان المرح ، وعلى ثغره ابتسامة ، أو ربما تنهدة ، أن يهز كتفيه بدلاً من أن يحاسب الناس . انه لا يطبق المعيار الاخلاقي وحسبه ان يفهم ، وما الفهم ،

في الحق ، الا الاشفاق والتسامح . على أنني لا بد ان اعترف ، الى جانب هذه المحفوظات التي حاولت ان اتذكرها دوماً ، بان تجاربي خلال سنوات عمري لم تزدني الا تأكيداً من الملاحظات التي كونتها عن الطبيعة البشرية غير عامد ، لانني كنت أصغر من أن اتعمدها اثناء عملي في عيادة المرضى الخارجيين أو في أروقة مستشفى (سانت توماس) . رأيت الرجال منذ ذلك الحين كما كنت أراهم هناك ، وصورتهم على هذا النحو .. قد لا تكون الصورة حقيقية ، واعرف ان كثيراً من الناس اعتبروها غير سارة أيضاً ، وهي بدون شك صورة جزئية ، لانني رأيت الناس طبعاً من خلال مزاجي العقلي ، واجدر بامرىء مستبشر متفائل معافى رقيق المشاعر أن يراهم بشكل مختلف . إن كل ما أستطيع ادعاءه هو انني رأيتهم مترابطين . ويبدو لي أن كثيراً من الكتاب لا يلاحظون ابداً بل يخلقون شخصياتهم في حجوم جاهزة من الصور التي تملأ مخيلتهم ، وماهم الا رسامون يستقون شخصياتهم من القديم ، ولم يحاولوا مرة أن يرسموا نموذجاً حياً ، وكل مافي وسعهم ان يلبسوا شكلا حياً لاوهام عقولهم ، فاذا كانت عقولهم نبيلة أعطوك شخصيات نبيلة ، وقد لا يبالون اذا كانت شخصياتهم تفتقر الى التعقيد غير المحدود الذي تتصف به حياة الانسان .

لقد صدرت دوماً عن النماذج الحية . وأذكر ان المدرس سألني مرة في غرفة المعاينة وكنت اقوم (بدوري) معه ، عن عصب لم اعرفه ، ولما اخبرني عنه اعترضت لان العصب لم يكن في محله الطبيعي ، ولكنه أصر على انه العصب الذي كنت ابحث عنه عبثاً ، ورد على اعتراضي مبتسما بأن السوي في التشريح هو غير الشائع . وقد ضايقني الامر حينئذ ولكن الملاحظة رسخت في ذهني ، ومنذ ذلك الحين اعتبرتها صحيحة بالنسبة للانسان كما هي صحيحة في التشريح ، والسوي لا تجده الا نادراً . انه مثالي . صورة يصوغها المرء من وسطي مميزات الناس التي يصعب ان تتوقع توافرها في فرد منهم ، وهذه هي الصورة المزيفة التي يتخذها الكتاب الذين تحدثت عنهم نموذجاً ، وبذلك يندر ان تكتسب كتاباتهم تأثير الحياة ماداموا يصفون الشاذ فيها . ان الأثرة والإيثار ، والمثالية والحسية ،

والغرور والخجل ، واللامبالاة والشجاعة والكسل والعصبية والعناء وضعف الثقة بالنفس هذه الصفات كلها يمكن ان توجد في شخص واحد وان تؤلف انسجاماً مقبولاً ، وقد استغرق مني إقناع القراء بهذه الحقيقة وقتاً طويلا .

ولست أفترض أن الناس كانوا في القرون السالفة يختلفون أي اختلاف عن الناس الذين نعرفهم ، ولكن ينبغي ، بالتأكيد . أنهم قد ظهروا لمعاصريهم أشبه بقطعة جامدة خلافاً لما نراهم عليه الآن ، والا لما أقدم كتاب ذلك الزمان على تصويرهم على هذاالنحو ، فقد بدا لهم معقولا أن يصنفوا كل امرىء ضمن مزاج محدد ، فالبخيل من طرازالبخلاء ، والعابث من طراز العابثين ، والفاسق من طراز الفاسقين . ولم يخطر لاي منهم أنالبخيل قد يكون عابثاً وفاسقاً ، وكثيراً مانرى أمثال هؤلاء الناس ، بل قد يكون البخيل مستقيما وشريفا مع غيرة على المصلحة العامة وحماسة متقدة للفن . وحين بدأ المؤلفون يكشفون عن التضارب الذي وجدوه في أنفسهم ، أو في غيرهم ، اتهموا بأنهم يشوهون الجنس البشري . وكان ستندال ــ فيما أعلم اول قاص كشف هذا الامر عامدا في كتابه (الاحمر والاسود) ، مما أثار النقد الادبي في عصره ولم يسلم حتى من (سانت بوف) الذي لم يكن ينقصه الا تدقيق النظر في صميمه ليكتشف كيف يمكن أن تعيش الصفات المتناقضة جنبا الى جنب في نوع من الانسجام . ان (جوليان سوريل) هو من أمتع الشخصيات التي خلقها الروائيون ، ولست أعتقد ان (ستندال)نجح في جعلهمقبولا تماماً ، وذلك لاسباب سأعرض لها في مكان آخر من هذا الكتاب . لقد سارت رواية (ستندال) في الارباع الثلاثة الاولى منها سلسلة متقنة ، ولكن (ستندال) يملؤك بالرعب أحياناً ، ويكون عاطفيا جدا في احيان اخرى ، وهو يتمتع بتماسك داخلي يجعلك تقبل مايقوله رغم انه غالبا مايهزك .

ولكن مثال (ستندال) لم يؤت اكله الا بعد زمن طويل ، و (بلزاك) ــ على عبقريته ــ اعتمد على الاسلوب القديم في رسم شخصياته ،وقد أعطاها من حيويته الغامرة

مايجعلك تؤمن بأنها واقعية ، ولكنها ـ في حقيقة الامر ليست الا انماطا من الامزجة محدودة تماما كشخصيات الملهاة القديمة ان اشخاصه لاينمون ولكنهم يشاهدون من زاوية العاطفة الجامحة التي ألهبت اولئك الذين كانوا على صلة بهم . انني افترض ان البشر ميالون بطبعهم الى تصنيف الناس ضمن خطوط جامدة ، ومن الواضح أنه يسهل على المرء انهاء التردد والحكم رأساً على أي انسان بأنه من الاخيار أو أنه كلب قذر . ان المرء ليرتبك حقاً اذ يجد أن منقذ بلاده قد يكون دنيئاً أو أن الشاعر الذي فتح آفاقاً جديدة أمام وعينا قد يكون دعياً ، وأنانيتنا الطبيعية تدفعنا دوماً للحكم على الآخرين في ضوء علاقاتهم بنا .

اننا نريد أن نطمئن اليهم ، ومن هذه الزاوية نعرفهم ، أما سائر صفاتهم فنهملها لانها لاتجدينا نفعا

ولعل هذه الاسباب توضح نفور الناس الشديد من قبول المحاولات التي يبذلها الكتاب لتصوير الانسان بصفاته المتناقضة ، وانصرافهم بأسى عن السير التي تحاول ان تكشف حقيقة المشاهير ، وان المرء يتضايق اذ يتصور أن مؤلفه الحماسية في (المايسترسنجر Meistersinger [1]) كان غير أمين في قضايا النقود ، وخان اولئك الذين نفعوه ، وربما لم تكن هذه المواهب العظيمة لتتأتى له لو لم تصحبها نقائصه العظيمة . ولست أوافق الذين يقولون بإخفاء مثالب المشاهير ، بل أفضل أن نعرفهم على حقيقتهم ، وحينذاك نستطيع أن نؤمن ـ مع ادراكنا أن لنا نقائص واضحة كنقائصهم بأنه ليس هناك مايحول دون احرازنا للفضائل التي اتصفوا بها .

---

(١) اوبرا لفاغنر (المعرب)

- ٢١ -

زودني تدريبي في مدرسة الطب بمعرفة ابتدائية بالعلم والاسلوب العلمي ، بالاضافة الى ماخبرته من امور الطبيعـة البشرية . وحتى ذالك الحين كان اهتمامي محصورا بالادب والفن فقط . وكانت معرفتي العلمية محدودة جـداً لان المنهج كان ضئيلا في تلك الايام ، ولكن هذه المعرفة فتحت لي دروباً يوصل الى مجـال كنت اجهله تماماً . وأخذت اشعر بالألفة تجاه مبادىء معينة . كان عالم العلم الذي احرزت منه معلومات مقتضبة ماديا صرفا ، ولاقت مفاهيمه هوى من نفسي ، واتفقت مع معتقـداتي ، فالرجال - كما قال بوب - اذا اعطي لهم الخيار لا يقبلون من أفـكار الآخرين الا مـا يتفق مع أفكارهم .

وسرني ان اعلم ان عقل الانسـان (وهو نفسه حصيلة أسباب طبيعية) وظيفة للدفاع خاضعة ، كسائر جسده ، لقوانين العلة والاثر ، وان هذه القوانين هي نفسهـا التي تتحكم بحركة النجم والذرة ، وهلت اذ فكرت بـأن الكون ليس أكثر من آلة هائلة ، ينتج كل حادث فيها عن حادث سابق ، ولابد أن تأخذ فيه الأمور مجراها المحتوم ولم تتجاوب هذه المفاهيم مع غريزتي المسرحية فحسب ، بل أمـدتني بشعور لذيذ بالتحرر ، ومع فورة شبابي تحمست لمبدأ بقاء الاصلح . وارضـاني ان اعلم ان الارض كتلة من الطين تدور حول نجم آخر آخذ بالبرودة تدريجيا ، وان التطور الذي خلق الانسـان سوف يحرمه ، باكراهه على التكيف مع بيئته ، من كل الصفات التي اكتسبها ماعدا تلك الصفات الضرورية لتمكينه من الصمود امام البرد المتزايد حتى يغدو الكوكب الارضي فحمة متجلدة لامجال فيها لأي أثر للحياة . لقد آمنت اننا لعب بائسة في يد القدر

الغاشم ، وقد كتب علينا ، بسبب خضوعنا لقوانين الطبيعة التي لا هوادة فيها ، ان نقوم بدورنا في النضال المستمر للبقاء ، وليس من مستقبل سوى الهزيمة المحتومة . وتعلمت ان الناس مسيرون بأنانيتهم الضارية ، وان الحب ليس الا لعبة للطبيعة قذرة في سبيل بقاء الأنواع ، وقررت أن كل ما يهدف اليه الانسان زيف وضلال ، ما دام يستحيل عليه أن يهدف الى شيء غير لذاته الأنانية . وقد اتفق لي ان قدمت معروفاً لاحد الاصدقاء (ولم أكف عن التفكير في السبب الذي دفعني لهذا العمل مادمت موقنا أن كل اعمالنا انانية صرف) . وحين أراد ان يظهر لي امتنانه (وهو امتنان لا محل له لان عطفي عليه كان واقعا محتوما) وسألني ان اختار الهدية التي أريد فقد طلبت بدون تردد كتاب المبادىء الاولى) First principles) لهربرت سبنسر . وقد قرأته ورضيت به ، ولكن عيل صبري ازاء ايمان سبنسر السقيم بالتقدم ، لأن العالم في رأيي -- كان ينحدر من سيء الى اسوأ ، وكنت في مثل سرور (بنش Punch) اذ اتخيل احفادي البعيدين جداً وقد نسوا الفن والعلم والصنعة اليدوية ، وتكوروا في جلودهم داخل الكهوف كلما شعروا باقتراب البرد والليل الازلي . كان تشاؤمي عنيفاً ، ولكنني تمتعت بحظ وافر من حياتي مدفوعا بحيويتي الغامرة . وكنت اطمح الى ان اصبح كاتباً مشهوراً ، فعرضت نفسي لكل ظرف يمكن ان يتيح لي فرصة للتجارب العظيمة التي صبوت اليها ، ثم انني اخذت اقرأ كل ما تقع عليه عيني .

- ٢٢ -

في ذلك الحين كنت أعيش مع مجموعة من الشبان خيل إلي ان لهم من المواهب الفطرية ما يفوق مواهبي . وكانوا يستطيعون أن يكتبوا ويرسموا ويلحنوا بسهولة أثارت حسدي . وقد رزقوا تذوقاً للفن وغرائز نقدية كنت في يأس من بلوغها . ومن هؤلاء من توفي دون أن يحقق شيئاً من البوادر التي شمتها فيه ، والباقون ما زالوا أحياء ، وليس لهم نبوغ يذكر . والآن أدرك ان البوادر التي رأيتها فيهم لم تكن الا طبيعة الشباب الخلاقة . ان كتابة الشعر والنثر ، وعزف بعض النغمات على البيانو ، ورسم بعض الخطوط ، أمور غريزية عند كثير من الشبان ، وهي نوع من اللعب ناتج عن فورة الشباب ليس له من الأهمية أكثر مما يكون لبناء قلعة يقيمها طفل على الرمال . واحسب أن سذاجتي هي التي جعلتني أعجب كثيراً بمواهب أصدقائي ، ولو كنت أقل جهالة لأدركت حينذاك أن آراءهم التي بدت لي أصيلة كانت مبتذلة ، وأن أشعارهم وموسيقاهم ناتجة عن ذاكرة مرددة لا عن خيال مبدع ، وما اريد أن اقوله هو ان هذه الصفة شائعة في الشباب ، وان لم اقل عامة ، لدرجة لا تسمح ببناء أي حكم عليها . ان الشباب هو الالهام ، ومن مآسي الفنون مشهد ذلك العدد الضخم من الناس الذين أغواهم هذا الخصب العابر ، وزين لهم أن يكرسوا حياتهم كلها من أجل الابداع . ان الابداع يهجرهم كلما تقدموا في السن ، واذا بهم أمام السنوات الطوال التي بقيت من أعمارهم - وهي سنوات لم يعد يلائمها ، الآن ، الضرب على وتيرة واحدة - اذا بهم يعتصرون أدمغتهم المنهكة ، كيما تقدم مادة هي غير قادرة على تقديمها . وما أوفر حظهم حين يستطيعون - رغم ما في ذلك من مرارة - أن يكسبوا قوت يومهم من مهنة كالتعليم أو الصحافة ذات صلة بالفن .

وبالطبع ، يخرج الفنان من بين اولئك الذين يتمتعون بالاستعـــداد الفطري ، وبدون ذلك لايمكن أن تنمو موهبة على أن هذه الموهبة جزئية ، وكل منـا يبدأ حياته في ضوء عقله المنعزل ، ثم نبدأ ببناء العالم الخارجي ليناسب حاجاتنا اعتماداً عـلى المعلومات التي نكتسبها واتصالاتنا بالعقول الأخرى . ولأننا جميعاً نتاج عملية تطورية ، ولان بيئتنا واحدة ، فان أبنيتنا تأتي متشابهة تقريباً ، ورغبة في البساطةوالتلاؤم ،فاننا نعتبر هذه الابنية متطابقة ونتحدث عن عالم خارجي واحد . ومما يميز الفنان أنه يختلف عن الناس في بعض الامور وبذلك يكون عالمه الخارجي مختلفاً أيضاً . وهذه البنيــة العقلية هي خير عدة للفنان ، وحين تستهوي الصورة التي يرسمها من عالمه الخاص عـدداً معيناً من الاشخاص ، اما بسبب غرابتها أو جمالها الذاتي ، او اتفاقها مع استعداداتهم (لانه ما من أحد منا مثل جاره تماماً ، بل هناك شبه تقريبي ، وما من احد يقبل العالم المشترك بيننا بجميع نواحيه) . حينذاك تحرز موهبته القبول . واذا كان كاتبـاً فهو يسد حاجة في طبع قرائه الذين يتجهون معه الى حياة روحية تقر بها أعينهم ، أكثر مما تقر بظروف الحياة المفروضة عليهم .

ولكن هناك أناسا لا تستهويهم هذه البنية العقلية ، ولا يطيقون صبراً على العـالم الذي صنعته ، بل ربما ثاروا عليه ، وحينئذ لا يكون لدى الفنـــان شيء يقوله لهؤلاء الذين ينكرون موهبته .

لست أعتقد أن العبقرية شيء مختلف كل الاختلاف عن الموهبـــة ، بل لست متأكداً انها تعتمد على أي اختلاف كبير في ملكات الفنان الطبيعية . فمثلا لست أعتقد ان سيرفانتس توافرت له ملكة استثنائية للكتابة ، ومـــع ذلك قل من ينكر عليه عبقريته . وليس من السهل ان نجد في الأدب الانكليزي شاعراً ذا ملكة أوفر من ملكة (هريك Herrick ومع ذلك لن يدعي أحد أنه كان يتمتع بأكثر من موهبة حسنة . ويبدو لي أن العبقرية تتكون من اجتماع الملكات الطبيعية للابداع ، مع بنية عقلية تمكن مالكها من رؤية العالم بأقصى درجات الشخصية ، وفي الوقت نفسه بشمول لا يستهوي

نمطاً من الناس دون آخر ، بل يستهوى الناس جميعاً . ان عالمه الخاص هو العالم المشترك للناس ، ولكنه أغنى وأشد تركيزاً . ومداه يشمل الكون كله مع ان النـــاس قد لا يستطيعون ادراك مراميه ، ولكنهم يشعرون بأهميتها . . ان العبقري سوي بشكل رائع ، وبفضل مصادفة سعيدة من الطبيعة يرى الحياة بمنتهى الحيوية كأنهـــا اللحن في أوجه ، فيطلع عليها ، بما فيها من تضارب لا نهائي ، اطلاعاً سليماً كاقصى مـا يستطيعه الجنس البشري . وفي كلمات (متيو أرنولد) يراها رؤية قوية شاملة .

ولكن العبقرية تظهر مرة أو مرتين في كل قرن وهنا تنطبق قاعدة التشريح : السوي هو النادر . ومن السخف أن نجاري تلك الجمهرة من الناس التي تسارع لاطلاق لقب العبقرية على كل من كتب نصف دزينة من المسرحيات الذكية او رسم بضع لوحـات جيدة . ان التمتع بالموهبة شيء وما أقل من يتمتع بها . . وبالموهبـة لا يستطيـع الفنان أن يتخطى الدرجة الثانية ، وينبغي أن لا يسوءه ذلك ، لان الدرجة الثانية تحوي أسماء كثيرين ممن قدموا انتاجاً ذا مزايا غير عادية . ولن يساور الفنان أي خجل حين يتذكر أن كتاب الدرجة الثانية أنتجوا روايات مثل (الاحمر والاسود) واشعـارا مثل (فتى شروبشير The Shropshire Lad) ، واذا كانت الموهبة عـــاجزة عن بلوغ الذرى فانها قادرة على الكشف عن مشاهد حلوة غير متوقعة ، عن غابة غير مطروقة ، اوجدول ذي خرير غريب او كهف رومانتيكي ، وبذلك تضع المرء في الطريق المؤدية الى الذرى .

ومن غرائب النفس الانسانية أنها قد تحجم حين يتاح لها تطلع على الطبيعـــة البشرية بأوسع إبعادها ، وقد تنفر من روعة (الحرب والسلم) لتولستوي لكي تقبل راضية على (كانديد) لفولتير ، ومن الصعب ان نعيش دوما مع سقف (ميشيل أنجلو) في كنيسة (سيستين) ، ولكن كل انسان يستطيـع أن يعيش مع رسوم (كونستابل) في كاتدرائية (سالزبوري) .

ان عواطفي محدودة ، ولا استطيـع أن اكون غيري اياي . لان نفسي بسبب

تكوينها الطبيعي من جهة ، وبسبب ظروف حياتي من جهة ثانية ، انما هي نفس متحيزة ولست بالشخص الاجتماعي ، ولا أستطيع ان أغل الى درجة ان اشعـــر بالحب العظيم لرفاقي ، ان التسليات الجماعية تضايقني دوماً ، واذ يشرع رواد حانة للشرب او ركاب قارب للنزهة بالغناء ، تجدني صامتاً ، ولا اذكر انني غنيت ترتيلة في حياتي . انني لا احب ان اكون عرضة للتأثر ، وكثيراً ما أضغط على نفسي كي لا انسحب حين يلف أحدالناس ذراعه على ذراعي . ولا استطيع ابدا ان انسى نفسي . انهستيريا العالم تكدرني واشعر بغربة لا تدانيها غربة حين اجد نفسي وسط جمهور واقع تحت تأثير شعور عارم بالحزن او بالسرور ، ومـــع انني وقعت في الحب عـــدة مرات الا انني لم امارس ابدانعمة الحب المتبادل ، واعرف ان هذا خير ما يمكن ان تقدمه الحياة ، وهو امر تمتع به معظم الناس ، ولكن ضمن فترة قصيرة على الارجح . احببت كثيرا اولئك الذين لم يهتموا بي ، واظهروا اهتماماً قليلا بي ، وضقت ذرعا بالذين احبوني ، ولم اعرف كيف اعـالج هذه العقدة ، وكثيراً ما اظهرت لهم عواطف لم اشعر بها ، لـكي لا أوذي مشـاعرهم ، وقد حاولت ان انملص من الالتزامات التي قيدتني بها محبتهم باللين اذاامكن ، والا فبالشدة ، لقد انتابتني غيرة من استقلالي ، ولست قادراً ان استـلم استسلاماً كاملا ، وهكـذا ، مادمت لم أشعر ابداً ببعض الانفعالات الاساسية عند الانسـان السوي ، فانه يستحيل ان تتوافر في انتاجي الالفة والالمسة الانسانيةالعريضة ، والصفاء الحيواني . هذهالصفات التي لا تتوافر الا في انتاج الكتاب العظام .

-٢٣-

من الخطر اطلاع الجمهور على ماخلف المشاهد ، فأوهامه تنكشف اذ ذاك ويستبد به الغضب لأن مايحبه هو الوهم ، ولا يستطيع الجمهور أن يفهم أن اهتمامك ينصب على الطريقة التي تمكنت بها من خلق الوهم . لقد كف الناس عن قراءة (انتوني ترولوب) ثلاثين عاما لأنه اعترف أنه كان يكتب في ساعات منتظمة ويحاول جهده الحصول على أغلى سعر لانتاجه .

أما بالنسبة لي فقد سبق السيف العذل الآن ، وسوف يسوءني كثيراً أن أخفي الحقيقة ، ولا أحب أن يمنحني امرؤ من تقديره أكثر مما أستحق ليقبلني المحبون كما أنا ، وليعرض الآخرون عني . ان طبيعتي أقوى من دماغي ، ودماغي أقوى من موهبتي النوعية . وقد أفضيت بذلك منذ سنوات الى ناقد مبدع مرموق ، ولا أدري ما الذي دفعني إليه مادمت غير ميال إلى الحديث عن نفسي في الأماكن العامة .. حدث ذلك في (مونديديه) أثناء الأشهر الأولى من الحرب ، وكنا نتناول غداءنا في الطريق إلى (بيرون) ، بعد أيام من الانهاك الشديد ، ووجدنا متعة في إطالة المكوث حول المائدة التي بدت لنا ونحن متفتحو الشهيه ، بصورة جيدة غير عادية . وأحسب أن الخمر لعبت برأسي ، وأنني أخذت باكتشافي ، من تمثال في السوق ، أن (مونديديه) كانت مسقط رأس (بارمنتييه) الذي أدخل البطاطا الى فرنسا . وعلى أي حال وجدتني أندفع ،أثناء تعاطي القهوة والمشروب ، لاعطاء تحليل دقيق لموهبتي . ودهشت إذ قرأت هذا التحليل بعد سنوات على أعمدة إحدى الصحف المهمة وبكلماتي نفسها تقريبا . لقد تضايقت قليلاً لأن هناك فرقا بين أن تقول الحقيقة عن نفسك وأن تسمع غيرك يسردها ، وتمنيت لو أن الناقد أطراني بقوله إنه سمعها من فمي . ثم ثبت إلى نفسي ، وبدا لي طبيعيا أن يود

الناقد الاعتقاد بأنه على جانب كبير من نفاذ النظرة ، وكانت هذه هي الحقيقة . ومن سوء حظي أن الناقد كان يتمتع بنفوذ كبير ، وأعيد ماقاله عني مرارا . وفي لحظة أخرى من لحظات الصراحة اخبرت قرائي انني أعتمد على الصنعة اعتماداً غير عادي ولعل النقاد لم يكونوا قادرين على اكتشاف هذا الأمر لولا تصريحي هذا ، ولكنهم ألصقوا بي هذه الصفة منذ ذلك التاريخ ، وبشيء من الانتقاص ، وبدا لي عجيباً أن عددا كبيرا من المهتمين بالفن ، ولو اهتماماً سطحيا فقط ، ينظرون إلى الصنعة بقليل من الرضى .

وعلمت فيما علمت أن في المغنين من هو مطبوع وفيهم من هو مصنوع . والمغني المصنوع ، بالرغم مما قد يتمتع به من صوت لابأس به طبعاً ، مدين في كفايته لحسن الاعداد والتدريب ، ويستطيع ، بالذوق والقدرة الموسيقية ، أن يعوض شيئا من الفقر النسبي فيأعضائه الصوتية، وغناؤه يوفر متعة كبيرة ولاسيما للمطلعين ، ولكنه لايستطيع ان يحرك النشوة في نفسك كما تفعل الأنغام الصافية المغردة من فم المغني المطبوع . قد يكون المغني المطبوع غير مدرب تدريبا كافيا ، وقد تنقصه المعرفة أو المهارة ، وقد ينتهك كل قواعد الفن ، ولكن يظل لصوته سحر يأسر القلوب . وأنت تغفر له تصرفاته وسوقياته واستهواءه للانفعالات الواضحة حين يسحر أذنك صوته السماوي . وأنا كاتب مصنوع ، ولكنني أكون مغروراً إذا زعمت أن ماتوصلت اليه من النتائج راجع الى خطة طبقتها على نفسي عمدا . لقد جرتني دوافع بسيطة إلى دراسات مختلفة ، والآن فقط ، إذ أعود القهقرى بذاكرتي ، أكتشف أنني كنت أتجه باللاوعي الى نهاية معينة، هي تنمية شخصيتي والتعويض بذلك عن النقائص في موهبتي الطبيعية .

لقد أوتيت ذهنا منطقيا واضحا ، ولكنه ليس لطيفا جدا ، ولا قويا جـــدا ، ولطالما تمنيت لو كان أفضل ولطالما سخطت عليه لانـه عجز عن تحقيق ماأردت منه . وكنت أشبه برياضي لايستطيع أن يقوم بأكثر من الجمع والطرح ، ومع أنه يود لو عالج مختلف العمليات المعقدة ، الا انه يعرف ببساطة أنه لايستطيع ذلك . لقد استغرقت وقتا طويلا حتى تعودت أن آخذ من نفسي خير ماعندها . وكان ذهنا جيدا ذاك الذي

أتاح لي النجاح في كل مهنة مارستها .. انني لست من ذلك الطراز من الناس الذين لايحسنون شيئاً سوى اختصاصهم ، وفي الحقوق والطب والسياسة ظهرت لي جدوى العقل الواضح والنظرة النافذة في الناس

كانت لي ميزة واحدة ، هي أنني لم أفتقر أبداً إلى الموضوع ، ووجدت في رأسي من القصص دوماً أكثر مما أتاح لي الوقت أن أكتبه ، وكثيراً ماسمعت الكتاب يشكون من أنهم يريدون أن يكتبوا ولكن ليس لديهم مايكتبون عنه ، ومازلت أذكر كاتبة مرموقة أخبرتني أنها كانت تقرأ بعض الكتب التي تلخص كل ماورد في القصص من حبكات لعلها تجد موضوعا . أما أنا فلم أواجه مثل هذه العقبة أبدا ، فمثلي كمثل (سويفت) — ؟ الذي كان — كما نعلم — يدعي أنه يستطيع أن يكتب في أي موضوع كان ، وحين طلب إليه أن يكتب خطابا عن يد المكنسة أدى المهمة على خير مايرام . ولعلي لم أقض ساعة في صحبة أي انسان الا حصلت على مادة تكفي على الأقل لكتابة قصة مقروءة عنه .

وجميل أن يكون لدى المرء هذه الكثرة من القصص ، فمهما كان مزاجه فلديه قصة يستطيع أن يجيل خياله فيها ساعة أو ساعتين خلال أسبوع أو أسبوعين ان الحلم هو أساس الخيال المبدع ، وهو ميزة الفنان ، لأنه عند الفنان ليس هربا من الواقع كما عند الآخرين ، ولكنه وسيلة الى الإيغال فيه . وأحلام الفنان هادفة ، وهي تعده ببهجة تتضاءل عندها مباهج الحواس ، وتحقق له منتهى حريته ، فليس غريبا اذاً أن يجد الفنان نفسه غير راغب في أن يستبدل بهذه المتعة الكدح وفقدان القدرة على التنفيذ ؟ . ومع أنني أوتيت من الابتكار أنواعا ، وهذا ليس غريبا مادام حصيلة التنوع في بني الانسان ، الا ان قوة الخيال عندي كانت محدودة . وقد كنت أنتقي الأحياء وأضعهم في مواقف مأساوية أو هزلية حسبما توحي به شخصياتهم . ولم أكن قادراً على تلك السبحات العظيمة المستديمة التي تحمل المؤلف على أجنحة عراض الى الاجواء السماوية وخيالي الذي لم يكن قوياً أبداً كنت اكبحه بحدود الامكان . لقد رسمت صوراً ذات أطر محدودة ، لارسوماً جدارية رحبة المجال .

- ٢٤ -

لشد ماتمنيت لو أن الله أتاح لي انسانا ذا حس سليم يتولى توجيه مطالعتي ، واني لاتحسر اذ أفكر في الاوقات الطويلة التي أضعتها في قراءة كتب لم تكن ذات جدوى كبيرة لي . ان التوجيه القليل الذي أتيح لي ، يعود الفضل فيه الى شاب أتى ليعيش مع العائلة نفسها التي كنت اقطن عندها في (هيدلبرج) ،وهو حينذاك في السادسة والعشرين من عمره . وكان قد أنهى دراسته في (كامبرج) واستدعي ليعمل في المحاماة ، ولكنه قرر أن يكرس نفسه للأدب بعد أن نفر من الحقوق ، كان يملك كمية صغيرة من النقود تقوم بأود عيشه في تلك الأيام التي لم تعرف الغلاء . وقصد الشاب (هيدلبرج) ليتعلم الألمانية ، واتصلت معرفتي به مدة أربعين عاما حتى أدركته الوفاة وقد أمضى السنوات العشرين الاولى ليسلي نفسه بالتفكير فيما ينبغي أن يكتب حين تواتيه نفسه ، وأمضى السنوات العشرين الاخيرة يفكر فيما كان يستطيع أن يكتبه لو أن الظروف كانت اكثر مواتاة. لقد نظم شعرا كثيرا ، ولكنه كان يفتقر الى الخيال والى حرارة العاطفة والى الاذن المرهفة .. وامضى سنوات في ترجمـــة محاورات افلاطون التي ترجمت كثيرا من قبل ، ولكنني اشك في انه أنجز ايا منها حتى النهاية ، فقد كان خاليا تماما من قوة الارادة ،وكان رقيق الحس فارغا مغرورا . وكان على قصره - وسيما ذا قسمات واضحة ، وشعر جعد ، وعينين زرقاوين شاحبتين ، ونظرات ظامئة ، يخيل اليك ان مظهره هو المظهر الطبيعي للشاعر . وبدا في شيخوخته ، بعد حياة من الخمول المتواصل ، اصلع هرمـــا ذا مظهر زهدي ، تحسبه باحثا قضى حياته في بحث مجرد ذي شأن ، وفي نظراته روحية تذكرك بالشك المنهك الذي يعتري فيلسوفا فض غيوب الوجود فلم يجد سوى العبث . واذ بدد ثروته الصغيرة بالتدريج ، فقد فضل ان يقتات من كرم الاخرين على ان يعمل ، ولم يقو

ابدا على التوفيق بين الامرين . على ان قناعته النفسية جعلته يحتمل الفقر باستسلام ، والاخفاق بلا مبالاة . ولست اعتقد ان قد خطر له مرة انه وهم اجوف . كانت حياته كذبة كبيرة ، ولكنني اجزم انه لو اتيح له ان يلقي نظرة على حياته في ساعات وداعها ، وهو مالم يحدث لحسن حظه ، اظن انه احسن صنعا في حياته . كان جذابا خاليا من الحسد ، غير قادر على القوة مع انه كان من الانانية بحيث لايحسن الى احد . وكان ذا قدرة حقيقية على تذوق الادب . وخلال النزهات الطويلة التي قمنا بها فوق تلال (هيدلبرج) كان يحدثني عن الكتب ، وعن ايطاليا واليونان - ولم يكن يعرف ايا منها - حتى الهب خيالي الفتي وبدأت اتعلم الايطالية . وتقبلت كل ما كان يقوله لي بحماسة المهتدي الى دين جديد . وما كان لي ان الومه لانه اثار في نفسي اعجابا دافقا بمؤلفات ، ظهر لي بعدذلك انها لاتستحق كل هذا الاعجاب . وحين وصل هيدلبرج ، وجدني اقرأ (توم جونز) التي استعرتها من المكتبة العامة ، فاخبرني ان قراءتها أمر مقبول ، ولكنني احسن صنعاً لو قرأت (ديانا في مفترق الطرق) . . . حتى في ذالك الحين كان افلاطونياً واعطاني ترجمة (شلي) للمحاورات وحدثني عن (رينان) و (الكاردينال نيومن) و (ماثيوارنولد) ووصف الأخير بان ثقافته ناقصة وحدثني عن (قصائد واناشيد) لسوينبرن وعن عمر الخيام واسمعني ، خلال النزهات ، كثيراً من رباعياته التي كان يحفظها عن ظهر قلب .

وكنت موزعاً بين النشوة الرومانيكية للمادة ، وبين طريقة (بروان) المزعجة في الاداء ، فقد كان ينشد الشعر مثل خوري في كنيسة عالية ، ينغم التراتيل تحت قوس ميء الاضاء ولكن الكاتبين اللذين كان الاعجاب بهما واجباً اذا اراد المرء ان يكون مثقفاً حقيقياً لا بريطانياً فج الثقافة - هما (ولتر باتر) و (جورج مردث) وكنت على استعداد تام لان افعل ما يقال لي كي ابلغ هذا الهدف المرتجى ، فاقدمت على قراءة (حلاقة شغبات) بعاصفة من الضحك . ثم قرأت روايات (جورج مردث) واحدة اثر اخرى ، ووجدتها بديعة ، ولكنها لم تكن بديعة الى الحد الذي تظاهرت به . كان اعجابي مصطنعاً مدفوعاً برغبتي في ان اظهر بمظهر الشاب المثقف ، وقد خدرت نفسي بحماستي الخاصة ، وما كنت لأصغي الى ذلك الواعز الضئيل الذي ما انفك يهتف بي ، والان ادرك ان

هذه الروايات تحوي قسطاً كبيراً من التهريج ، ولكن الغريب في الامر انني اذ اقرأ هذه الروايات ثانية اعود الى الايام التي قضيتها في قراءتها للمرة الاولى ، وهي تمدني اليوم بالصباحات المشمسة ، وبالذكاء المتيقظ ، والاحلام اللذيذة ابان الشباب ، حتى انني حين اطبق رواية لمريدث (ايفان هورنجتون مثلا) واقرر ان زيفها منهك وتحذلقها منفر ، ولفظيتها لا تحتمل ، وانني لن اقرأ له سواها ، سرعان مايذوب قلبي ، ويقر في نفسي انها عظيمة .

أما (ملتر باتر) فلا يخامرني مثل هذه الشعور تجاهه ، ولم تتغير درجة قدرته على اثارتي ، وليس له عندي من الارتباطات السارة ما يمنحه مزية ليست من حقه . انني اجده بليدا كصورة (لالما تاديما) ، واستغرب كيف يمكن ان ينال نثره الاعجاب على تقطعه وخلوه من الهواء النقي .. انه قطعة موزاييك أنشأتها يد غير فائقة المهارة لتزيين جدران غرفة طعام في محطة ، وان (باتر) لينفرني بموقفه من الحياة ، ذلك الموقف الصومعي السخيف المهذب الجامعي باختصار . ان الفن ينبغي ان يتذوق بعنف وحماسة لا بأناقة فاترة واعظة تتخوف من أي نقد . ولكن (والتر باتر) كان مخلوقاً ضعيفاً ، وليس من ضرورة لان نحكم عليه بعنف ، ولست اكرهه لنفسه بل لانه مثال للنموذج الادبي الشائع الممقوت ، نموذج الشخص الذي اشبع بغرور الثقافة .

ان قيمة الثقافة تكمن في تأثيرها على الشخصية ، وهي لا تساوي شيئاً مالم تسْمُ بالشخصية وتمدها بالقوة . ان فائدتها مرتبطة بالحياة ، وهدفها الخير لا الجمال ، وكثيراً مانبعث في نفس الانسان رضى وسروراً ومن منا لم ير ابتسامة الباحث العريضة اذ يصحح خطأً في رواية قول مأثور ، ونظرة الناقد الفني المتألمة اذ تمدح امامه لوحة لم يلتفت اليها من قبل ? ليس لقراءة الف كتاب من القيمة مايفوق فلاحة الف حقل ، كما ان القدرة على انشاء وصف صحيح للوحة ليس لها من القيمة مايفوق اصلاح سيارة معطوبة . ففي كلتا الحالتين نجد نوعاً خاصاً من المعرفة ، سواء عند الفلاح ، او عند الميكانيكي ، وما أشد سخف المثقفين اذ يعتقدون ان معرفتهم وحدها هي ذات الشأن ،

إن الحق والخير والجمال ليست من احتكار اولئك الذين تخرجوا من المدارس الباهظة التكاليف وانغمسوا في المكتبات وترددوا على المتاحف .

ليس للفنان اي حق في التعالي على الآخرين .

وما أشد حمقه اذ يعتقد ان معرفته اهم من معارف غيره،وما اشد جبنه اذا لم يجر معهم مرتاحا في مضمار واحد ، وقد اساء (ماثيو ارنولد) الى الثقافة اساءة بالغة باصراره على تعارضها مع المعرفة المادية والعادية .



- ٣٥ -

في الثامنة عشرة عرفت الفرنسية والالمانية وشيئاً من الايطالية ، ولكنني كنت ضئيل الثقافة واحسست احساساً عميقاً بجهلي . واخذت اقرأ كل مايقع تحت يدي ، لقد بلغ بي الفضول درجة رغبت معها ان اقرأ كتابا عن تاريخ البيرو ، او مذكرات راعي بقر ، كما رغبت ان اقرأ بحثاً عن الشعر البروفنسالي او اعترافات القديس اوغسطين . واعتقد ان ذلك امدني بقسط من المعرفة العامة التي تعود بالنفع على الروائي . ان المرء لا يدري متى يحتاج الى شيء من تلك المعلومات التي لا يؤبه بها عادة . وقد كتبت قوائم باسماء الكتب التي قرأتها ، وبقيت عندي احداها بالمصادفة ، وهي تحتوي قراءاتي مدة شهرين .. ولو لم اكن انا الذي اعددتها لنفسي لما صدقت انها حقيقية . . انها تشير الى انني قرأت ثلاثا من مسرحيات شكسبير ، ومجلدين من (تاريخ روما) للسيد مومسن) وقسما كبيراً من كتاب لانسون (الادب الفرنسي) وروايتين او ثلاثا ، وبعض الروائع الفرنسية الكلاسيكية ، ومولفين علميين ، ومسرحية لابسن . لقد كنت بالفعل تلميذاً مجداً ، وخلال اقامتي في (مستشفى القديس توماس) تابعت دراسة الانكليزية والفرنسية والايطالية والادب اللاتيني . وقرأت كمية من كتب التاريخ ، وشيئا من الفلسفة ، وقسطا وافراً من العلم ، وكان نهمي للقراءة اقوى من ان يسمح لي بأن اتوقف لافكر فيما اقرؤه كنت احترق شوقا لانجاز الكتاب الذي في يدي لكي اشرع بقراءة كتاب جديد . وكان ذلك نوعا من المغامرة اذ أقبلت على قراءة المؤلفات المشهورة بمثل الاثارة التي تدفع شابا مدركاً لأن يخرج عن طوره ، او فتاة الى حلبة الرقص ، ومن حين لآخر يسألني الصحفيون الباحثون عن مادة للطبع ، عن اشد اللحظات اثارة في حياتي ، ولولا الخجل

لكنت اجيب بأنها اللحظة التي بدأت فيها قراءة (فاوست) ل « غوته » .. انني لم انس ابدا هذا الشعور وحتى الآن ، مازالت الصفحات الاولى من بعض الكتب تدفع الدم حاراً في عروقي . ان القراءة عندي راحة كالحديث ، او لعب الورق عند الآخرين ، بل انها اكثر من ذلك ، انها ضرورة لو حرمت منها لحظة لثارت نفسي كما تثور نفس مدمن حرم من جرعته ، وخير عندي أن أقرأ جدولاً زمنياً ، أو دليلا ما ، من إلا أقرأ شيئاً على الاطلاق .. لقد قضيت ساعات مبهجة اسرح بصري في قائمة الاسعار الخاصة بمخازن الاسطول والجيش ، وقوائم باعة الكتب المستعملة ، والأبجدية، وإن هذه الاشياءلفياضة بالرومانتيكية واكثر امتاعا من نصف ما كتب من الروايات .

ولم اتخل عن الكتب الا لانني شعرت بأن الزمن اخذ يمضي وبأن علي ان اعيش.. لقد انخرطت في العالم لان ذلك كان خبرةلابد منها لممارسة الكتابة ،وكذلك لانني رغبت في ان اخوض التجربة لذاتها ، ولم اكن لاكتفي بأن اكون كاتبافقط. الخطة التيوضعتها لنفسي حتمت علي ان افعل أقصى مااستطيع لاقوم بدوري الرائـــع كرجل في هذا الوجود ، لقد رغبت ان اقاسي الآلام المشتركة واستمتع بالمذائذ المشتركة التي هي جزء من المصير الانساني المشترك . ولم اجد مبررا لاخضاع دواعي الحس لنداء الروح المغري وصممت على ان ابلغ غاية مااستطيعه من مخالطة الناس ، ومن الطعام والشراب ، ومن العلاقات الاجتماعية ، ومن الفتيات ، ومن الترف ، والرياضة ، والفن ، والسفر ، ومن أي شيء كان ، على حد تعبير هنري جيمس .. ولكن ذلك تطلب جهداً ، وكنت دائما اعود مرتاحاً الى كتبي وصحبة نفسي .

ومع انني قرأت كثيرا جدا ، أقر بأنني قارىء سيء ، اقرأ ببطء ، ولا اقوى على القفز ، ويصعب علي ان اترك كتابا قبل ان اتمه مهما كان سيئا او مضايقا . انني استطيع ان اعد على اصابعي تلك الكتب التي لم انهها من الدفة الى الدفة ، ومن جهـة اخرى ، هناك كتب قليلة قرأتها مرتين ، وانا أعلم ان كثيراً من الكتب لاتكتمل الفائدة منها

الا اذا اعيدت قراءتها ، ولكنني بقراءتها الاولى اخذت منها كل ما في وسعي ان استوعبه في ذلك الوقت ، انها ثروة دائمة لي رغم انني قد لا اذكر تفصيلاتها ، واعرف اناسا يقرؤون بعيونهم لا بعقولهم ، والقراءة عندهم تمرين آلي كادارة اهل التبت لعجلة الصلاة ، وهو عمل غير مؤذ بلا شك ، ولكنهم يخطئون اذا اعتقدوا أنه عمل ذكي .



- ٣٦ -

في شبابي ، لم اكن لأتردد في اتهام نفسي بالخطأ حين يختلف شعوري الغريزي حول كتاب ما ، عن آراء النقاد ذوي الشأن . فما كنت ادري وقتذاك ان النقاد كثيرا مايتبنون الآراء المألوفة ، ولم يخطر لي انهم يستطيعون الكلام بلهجة الواثق على امور لايعرفون الكثير عنها . وقد اكتسبت الان ثقة اكيدة بمحاكمتي الخاصة ، لانني لاحظت ان المشاعر الغريزيه التي احسست بها تجاه الكتاب الذين قرأتهم منذ أربعين سنة ، والتي لم آبه لها حينذاك ، بسبب مخالفتها للاراء السائدة ، قد حازت اليوم قبول معظم الناس ، على انني مازلت اقرأ جانبا وافرا من النقد لانني اجده شكلا محببا جدا من اشكال الانشاء الادبي . ان الانسان لايجب دوماً ان يقرأ مايعود عليه بالنفع ، ولست اجد طريقة امتع من التلهي ساعة او ساعتين بقراءة مجلد من النقد الادبي ! ان الانسان ليجد تسلية في الموافقة حينا ، والمعارضة حينا آخر ، ويلذ له دائما ان يعرف مايمكن ان يقوله رجل ذكي عن كاتب مثل (هنري مور) ، او (ريتشاردسون) ممن لم تسنح لك الفرصة أن تقرأهم .

ان الجانب المهم من الكتاب هو مايعنيه ، الكتاب في نظرك ، فقد يجد النقاد فيه معاني اعمق بكثير مما وجدته ، ولكن ذلك لن يجديك كثيرا . ولست اقرأ الكتاب من اجل الكتاب بل من اجل نفسي ، وليس من شأني ان احكم عليه ، ولكنني اتشرب منه مااستطيع ، كما يمتص الاميب جزءا من جسم غريب عنه ، ولا شأن لي بما لااستطيع تمثله ، فلست باحثا ، ولا تلميذا ، ولا ناقداً ، وانما انا كاتب محترف اقرأ الان مايفيدني في حرفتي .. ان في وسع اي امرىء ان يضع كتابا ينقض فيه كل الافكار التي اعتنقت منذ قرون عن (البطالسة Ptolemis) فاذا بي اتجنب قراءته ، كما يستطيع ان يصف رحلة

مغامرة لاتصدق في قلب (بتاغونيا Patgonia) فاذا انا باق على جهالتي بها ... ذلك ان القاص لايحتاج لان يكون خبيرا في اي موضوع عدا موضوع بحثه ، بل ان ذلك يؤذيه مادامت الطبيعة الانسانية ضعيفة امام الاغراء الذي يزين لها ان تضع المعرفة في غير محلها . والروائي تساء نصيحته اذا دفع لان يفرط في العناية الفنية ، ان العادة التي جرى عليها الكتاب في السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر ، بتكديس المصطلحات الفارغة ، كانت عادة متعبة ، فمن الممكن ان يصح الصحيح بغير هذه الطريقة التي تدفع مقابل خلق الجو المناسب ثمنا غاليا من التكلف . وعلى الروائي ان يلم بالقضايا التي تشغل الناس الذين يتخذهم موضوعاً له ، ولكن يمكنه بوجه عام ان يكتفي بالقليل من ذلك ، وعليه ان يجتنب الحذلقة بأي ثمن ، مع أن الميدان يظل واسعاً حتى ضمن هذه الحدود ، ولقد حاولت ان احصر قراءتي بالمؤلفات ذات الاهمية بالنسبة لاهدافي .

إنه ليس في مقدورك ان تعرف اشخاصك المعرفة الكافية ، والسير ، والمذكرات ، والاعمال الفنية ، تعطيك غالبا تفاصيل حساسة او لمسات غنية او خواطر كاشفة ، مما لاتستطيع ان تأخذه من النموذج الحي ، ذلك ان الناس يصعب فهمهم ، ولاتستطيع الا بعد لأي ان تحملهم على الافضاء اليك بالتفصيلات الخاصة عن انفسهم التي يمكن ان تكون ذات نفع لك ، وعيبهم انك لاتستطيع غالبا ان تلقي نظرة عليهم ثم تطرحهم كما تفعل بالكتاب ، ان عليك في حالتهم ، ان تقرأ المجلد كله على علاته ، لتجد في النهاية ان ليس لديه الشيء الكثير الذي يفضيه اليك ..

- ٢٧ -

أحيانا ، يجاملني الناشئون ، الراغبون في الكتابة ، فيسألونني عما ينبغي لهم ان يقرؤوه من الكتب ، فافعل ذلك ، ولكنهم نادراً ما يقرؤونها لانهم فيما يبدو ، يتمتعون بحظ ضئيل من حب الاستطلاع ، ولا يعنيهم ان يعرفوا ما انتجه اسلافهم ، ويظنون انهم عرفوا كل ما ينبغي معرفته من فن القصة بعد ان قرؤوا روايتين او ثلاثاً للسيدة (ولف) ورواية لـ : ف . م . فورستير ، وعددا من روايات د . هـ . لورنس .. وملحمة فورسايت (Forsyte Saga) من قبيل الزيادة الكافية ..

صحيح ان الادب الحديث يتمتع بجاذبية لم تتوفر في الادب القديم ، وان الاديب الناشىء يليق به ان يعرف ما يكتب معاصروه وكيف يكتبون ، الا ان هناك اساليب تكتسب الشيوع في الادب ، وليس من السهل ان تدرك القيمة الذاتية لاسلوب ادبي في الفترة التي يكتسب فيها الشيوع ، ان التعرف على روائع المـاضي يعطيك مقياسا جيدا للمقارنه . واني لاتساءل احيانا : هل الاهمـال هو الذي يسبب افلاس الكتاب الناشئين ، بصرف النظر عن قابليتهم وذكائهم وحذقهم الفني ؟! . ان الرجل منهم يكتب كتابين او ثلاثة كتب ، لا تكون لامعة فحسب ، بل ناضجة ، ثم يتلاشى بعد ذلك .. وبهذه الطريقة لا يغتني ادب الامة ، لان الامر يحتـاج الى كتاب لا يكتفون بمؤلف او مؤلفين ، بل ينتجون سلسلة ضخمة من الكتب . وهذا الانتاج غير متساو بالطبع ، لان العمل الرائع يحتاج الى تضافر عدد كبير من الظروف المواتية ، ولكن العمل الرائع اقرب الى ان يأتي دورة لسلسلة من الجهد المتصل ، لا فلتة سعيدة للعبقرية غير المثقفة . ان الكاتب يكون مثمرا بقدر ما يستطيع ان يجدد نفسه . ولا يستطيع ان يجـدد

نفسه الا اذا امتلأت روحه بالتجربة الجديدة باستمرار وليس من نبع اوفر عطاء في هذا المجال من ارتياد الآداب القديمة العظيمة .

ان انتاج العمل الادبي لا يتم نتيجة معجزة ، بل يتطلب تحضيراً كالـتربة ، مهما تكن غنية ، تظل بحاجة الى غذاء ، وعلى الفنان ان يوسع شخصيته ويعمقها ويغنيها باقتباس الافكار وان يبذل الجهد لتظل التربة مهيأة . ان عليه كعروس المسيح ان ينتظـر لحظات الالهام التي تتمخض عن حياة روحية جديدة : انه يمضي في نداواته العادية بصبر اثناء ما يقوم اللاشعور بعمله الغامض ، وفجأة تقفز الفكرة الجديدة من حيث لا تدري . ولكن ينبغي تعهدها بالعناية المفرطة لانها معرضة للذبول كالقمح الذي يغـرس في تربة صخرية ، وينبغي ان تسخر كل القوى الذهنية للفنان ، كل حذقه الفني ، كل تجربته ، وكل ما يتحلى به من فردية وشخصية لتعهد الفكرة الجديدة حتى يستطيع بعد معـاناة لا حد لها ان يقدمها رافلة بأثواب الكمال التي تلائمها . على انني لا افقد صبري مع الشباب الذين انصحهم ـ بعد طلب منهم ، واصر على هـــذه الكلمة ـ أن يقرؤوا شكسبير ، وسويفت ، فيخبرونني انهم قرؤوا (رحلات جليفر) في حضاناتهم و (هنري الرابع) في المدرسة . واذا وجدوا (موسم العبث Vanity Fair) غير محتملة و (انا كارنينا) خالية من المعنى فذلك شأنهم وحدهم ، لان القراءة لا تجديك نفعا اذا لم تجد متعة فيها ، واحسن ما يقال لهؤلاء الشباب ـ على الاقل ـ انهم لا يزهون بالمعرفة ، وليس ثمة حاجز من الثقافة الواسعة يحول دون تعاطفهم مع جمهرة الناس العـاديين الذين هم على كل حال ـ مادة ادبهم ، انهم اقرب الى زملائهم ، والفن الذي يمارسونه ليس سرا غامضا ، بل هو مهنة على صعيد اية مهنة اخرى ، انهم يكتبون القصص والتمثيليات بدون تكلف كما يصنع الرجال الآخرون السيارات . وفي هذا خير كثير ، لان الفنـان ، والكاتب بوجه خاص ، يبني في عزلته العقلية عالما مختلفا عن عوالم الاخرين . ان تركيبه العقلي الذي يصنع منه كاتباً يفصله عن الآخرين ، وهنا يظهر التناقض ، فمـع ان هدف الكاتب هو وصف الناس على حقيقتهم ، الا ان موهبته تمنعه من معرفتهم كما هم في الواقع ، فهو ، بذلك ، اشبه بمن رغب رغبة ملحة في رؤية شيء ما ، ثم غشي

عينيه ستار منعه من الرؤية اثناء محاولته تدقيق النظر . ان الكاتب يقف خارج دائرة العمل الذي ينهمك فيه . ان الكوميدي الذي لا ينسى نفسه اثناء قيامه بدوره لانه في الوقت نفسه متفرج وممثل . ويصح ان نقول ان الشعر هو تذكر الانفعال في الهدوء ، ولكن انفعال الشاعر نوعي ، انه انفعال الشاعر لا الرجـــل وهو لا يمكن ان يكون مجردا تماما ، وهذا هو السر في ان النساء بشعورهن الغريزي العام وجدن حب الشعراء غير كاف . وكتاب اليوم الذين يبدو انهم اقرب الى مادتهم الخام ـ وانهم لرجـــال عاديون بين رجال عاديين ، اكثر من كونهم فنانين بين جمهور غريب ـ ربما استطـاعوا كسر الحاجز ، الذي لا تستطيع موهبتهم الخاصة الا ان تقيمه بينهم وبين النـــاس ، وبذلك يصبحون اقرب الى الحقيقة الواضحة من أي وقت مضى . ولكن حين يتحقق ذلك ، يجب ان يستقر رأينا حول العلاقة بين الحقيقة والفن .

- ٢٨ -

كان لي نصيب كامل من غرور المثقفين ، واذا كنت - كما اؤمل - قد تخلصت منه ، فلست اعزو ذلك الى حكمة او فضيلة في نفسي ، ولكن الى الحظ الذي جعلني اخوض الاسفار اكثر من معظم الكتاب الاخرين . انني انتسب الى انكلترا ، ولكنني لا اشعر فيها بانني في بيتي ، وكنت دائما خجلا امام الانكليز . ان انكلترا عندي بلد أدين له بالتزامات لم ارغب ان اوفيها ، وبمسؤوليات طالما ارقتني ولم تهدأ نفسي الا بعد ان وضعت القنال [1] على الأقل ، بيني وبين بلدي . ان بعض المحظوظين يستشعرون الحرية داخل عقولهم ، أما انا – وقواي الروحية اقل منهم – فأجد الحرية في التجوال . وحين كنت في (هيدلبرج) عملت على زيارة كثير من المناطق في المانيا ، وفي ميونيخ رأيت (ابسن) يشرب البيرة في (الماكسيميليانزهوف) ويقرأ الجريدة ، وقد علمت وجهه تكشيرة ، ثم ذهبت الى سويسرا .. ولكن الرحلة الاولى الحقيقية التي قمت بها كانت إلى ايطاليا ، حيث ذهبت مثقلا بقراءاتي الكثيرة لولترباتر ، ورسكن ، وجون ادنجتن سيموندز . وكان تحت تصرفي الاسابيع الستة من عطلة الفصح ، وعشرون جنيها في جيبي وبعد زيارة جنوة ، وبيزا ، حيث تجشمت قطع مسافة لانهاية لها لاجلس لحظة في غابة الصنوبر التي قرأ شلي فيها (سوفوكل) وكتب اشعاره على الحان القيثارة .. بعد هذا مكثت قرابة شهر في فلورنسة ، في دار ارملة قرأت مع ابنتها (المطهر Purgatorio) وقضيت اياما نشيطة ازور المشاهد و (رسكن) في يدي . واعجبت بكل ما اخبرني (رسكن) ان اعجب به (حتى برج جيوتو الرهيب) ونفرت مشمئزا من كل مانفر منه .

---

(١) يقصد القنال الانكليزي بين انكلترا وفرنسا . (المعرب)

وما اظنه عرف ابدا تلميذاً لامعاً مثلي . وبعد ذلك قصدت البندقية وفيرونا وميلان .
وعدت الى انكلترا مسرورا جدا من نفسي ، ومحقرا بشدة كل من لا يشاركني ارائي
(وآراء رسكن) عن بوتيشلي وبلليني . وكنت حينذاك في العشرين من عمري . وبعد
سنة عدت الى ايطاليا وتوغلت جنوبا حتى نابولي فاكتشفت (كابري) ،وكانت اجمل بقعة
رأيتها في حياتي ، وقضيت عطلتي الصيفية ، التالية فيها . لم تكن (كابري) وقتئذ ذائعة
الصيت ، ولم يكن هناك خط يصل المدينة بالشاطىء ، وما اقل الذين كانوا يقصدونها في
الصيف .. لقد كنت تستطيع ان تحصل على الاقامة والمأوى ، بما في ذلك النبيذ ، وتسرح
بصرك من النافذة الى (فيزوف) بأربعة شلنات يوميا وكان هناك شاعر ، في ذلك الوقت
وملحن بلجيكي ، وصديقي براون من هيدلبرج ، ورسام اورسامان ، ونحات هو
(هارفارد توماس) وعميد اميركي حارب مع الجنوبيين في الحرب الاهلية .. وكنت
اصغي بجماسة الى الاحاديث ، سواءً في (انا كابرى) في منزل العميد او في حانة (مور
جانو) بالقرب من بيازا وكانت الاحاديث تدور حول الفن والجمال والادب والتاريخ
الروماني . ورأيت رجلين ينقض كل منهما على عنق الآخر ، لانهما اختلفا حول المزايا
الشعرية لمقطوعات (هيربديا) . وبدا لي كل شيء عظيما : فن ، وفن من اجل الفن ،
هذا كل ماله اهمية في العالم . ان الفنان وحده هو الذي يضفي اهميته على هذا العالم المضحك .
وماقيمة السياسة والتجارة والمهن الثقافية من زاوية المطلق ؟! قد يختلف ، اصدقائي هؤلاء
حول قيمة (سوناتا) او تمثيل يوناني (يوناني ، ياعيني !! اقول لك انه نسخة رومانية واذا
قلت لك شيئا فهو صحيح) . ولكنهم كانوا مجمعين على امر واحد وهو أنهم يضطرمون
بلهب صلب كالجواهر . وقد خجلت ان اخبرتهم انني كتبت رواية وانني في نصف الطريق
الى انجاز رواية اخرى ، ولشد ما كنت اخشى ، وانا الذي يضطرم مثلهم بلهيب صلب
كالجواهر ، ان اعامل كادي فج الثقافة لايهمه الا تشريح الجثث الميتة . ويتحين لحظة
غفلة من اعز اصدقائه ليتمكن من اعطائه حقنة [1] وسرعان ما أصبحت مؤهلا لأن

---

(١) اشارة الى مهنته وهي الطب . (المعرب)

اكون كاتباً ، وذلك على اثر نشر رواية لي لاقت نجاحا غير منتظر ، واعتقدت ان الحظ قد اقبل ، فهجرت الطب لاصبح كاتباً ويممت شطر اسبانيا وأنا في الثالثة والعشرين .. ويبدو انني كنت آنئذ أجهل من شباب اليوم ، لقد اقمت في اشبيلية واطلقت شاربي ودخنت سيجار (فليبينو) ، وتعلمت العزف على القيثار ، واشتريت قبعة ذات حافة عريضة وقمة مسطحة ، كنت اتسكع تحتها في (السيربس) ، وصبوت الى معطف فضفاض مخطط بالمخمل الاحمر والاخضر ولم استطع شراءه لارتفاع ثمنه .. كنت اجوب الريف على صهوة جواد أعاره لي صديق ، وكانت الحياة احلى من ان تسمح لي ان اصرف كل اهتمامي الى الادب ، فعزمت ان اقضي سنة في اسبانيا لاتقن الاسبانية ، ثم اذهب الى روما التي عرفتها معرفة خاطفة ، وهناك انمي معرفتي السطحية باللغة الايطالية ، واتبع ذلك برحلة الى اليونان ، حيث عزمت على تعلم العاميـــة هناك ، تمهيدا لدراسة اليونانية القديمة ، وقررت أن اقصد القاهرة أخيراً فأتعلم العربية .. كان برنامجاً طموحاً ، ولكنني مسرور لانني لم انفذه . ووفقا للخطة ذهبت الى روما (حيث كتبت روايتي الاولى) ثم عدت الى اسبانيا بسبب حادث فاجأني دون سابق توقع . لقد وقعت في حب اشبيلية وطريقة العيش فيها وكذلك بمخلوقة شابة ذات عينين خضراوين وابتسامة طروب ، (مع انني تخطيت ذلك) ولم استطع مقاومة الاغراء فكنت اعود سنة بعد سنة ، واتجول في الشوارع البيض الصامتة واتسكع عبر الوادي الكبير ، والف حول الكاتدرائية ، واذهب الى مصارعة الثيران ، واتبادل حباً عابراً مع مخلوقات رقيقة صغيرة لم تكن مطاليبها مني لتفوق امكانياتي الضئيلة .. ان قضاء ريعان الشباب في اشبيلية نعمة سماوية . وقد اجلت

دراستي الى فرصة اخرى مناسبة وكانت النتيجة انني لم اقرأ الأوديسه الا في الانكليزية ولم احقق طموحي لقراءة الف ليلة وليلة بالعربية .

وحين استوات الطبقة المثقفة على روسيا ، وتذكرت ان (كاتو) بدأ يتعلم اليونانية حين كان في الثمانين ، فقد اخذت بدوري ادرس الروسية ولكنني كنت قد فقدت حماسي حينذاك . ولم اتمكن من ان انقدم الى ابعد من قراءة تمثيليات تشيخوف وقد نسيت هذا القليل الذي تعلمته منذ زمن بعيد . واعتقد الان ان تلك الخطط القديمة كانت غير معقولة نوعا ما .. ان الكلمات ليست هي المهمة بل معانيها ، وليس من التقدم الروحي في شيء ان اتعلم نصف دزينة من اللغات . لقد قابلت اناسا يتكلمون عدة لغات ، ولم اكتشف عندهم من الحكمة مايفوق حكمتنا . ومن المفيد ، اذا كنت مسافراً في بلد ما ، ان تكون على شيء من المعرفة بلغة اهله ، حتى يتاح لك ان تشق طريقك ، وان تجد ماتأكله وأن تقرأ شيئاً من أدبه ، ان كان ذا شأن ، ومثل هذه المعرفة يمكن ان تكتسب بسهولة ولكن محاولة تعمق هذه المعرفة تظل محاولة عقيمة ، فما لم تكرس حياتك كلها لذلك فلن تستطيع ان تتعلم لغة غريبة الى درجة الكمال ، ولن تستطيع أيضاً معرفة شعبها وأدبها معرفة وثيقة ، لانهم والادب الذي عبروا به عن انفسهم ليسوا من صنـــع الاعمال التي يقومون بها ، ولا من صنع الكلمات التي يستعملونها فقط وكلاهما يسهل ادراكه - بل من صنع الغرائز الموروثة ، وظلال المشاعر التي رضعوها مع لبن الامهات ، والمواقف الفطرية التي لايستطيع الغريب ابدا ان يدرك كنهها . انه من الصعب علينا ان نعرف شعبنا نفسه ، ونحن نخدع انفسنا - معشر الانكليزبوجه خاص - اذا اعتقدنا انناستطيع معرفة شعوب البلاد الاخرى ، لان جزيرتنا المحاطة بالبحار تفصلنا عن الاخرين ، ولأن الصلة التي اقامتها الديانة المشتركة والتي خففت من عزلة الجزيرة يوما ما ، قد عاد الاصلاح الديني فقطعها من جديد ..

وهكذا ، على المرء ان يفكر كثيرا قبل ان يبذل جهداً كبيراً لاكتساب معرفة لايمكن الا ان تكون سطحية . انني اعتقد ان التعمق في تعلم اللغات الاجنبية ليس الا

هدراً للوقت والاستثناء الوحيد الذي ارغب بذكره هو الفرنسية ، لان الفرنسية هي اللغة المشتركة المثقفين ، وهي بالتأكيد ملائمة لمعالجة اي موضوع قد يدور الكلام حوله، وان لها لأدباً عظيماً ، وتأثيرها في سائر العالم كان عميقاً حتى السنوات العشرين الاخيرة ويحسن بالمرء ان يتعلم قراءة الفرنسية بالسهولة التي يقرأ بها لغة بلاده .على ان هناك حدوداً ينبغي ان لاتسمح لنفسك بتجاوزها في اتقان الفرنسية ، وانه ليجدر بك ، عملياً ، أن تأخذ حذرك من الانكليزي الذي يتقن الفرنسية اتقاناً تاماً ، فمن المحتمل أن يكون غشاشاً في ورق اللعب ، أو ملحقاً بالهيئة الدبلوماسية .

- ٣٠ -

لم اكن أبدا مأخوذاً بالمسرح ، وقد عرفت مسرحيين كانوا يتخطرون كل ليلة الى المسرح الذي تمثل فيه مسرحياتهم ويحتجون لذلك بأن عليهم ان يراقبوا سير التمثيل لئلا يهزل ، واحسب ان السبب الحقيقي هو انهم لا يشبعون من سماع كلماتهم ممثلة وكانوا يجدون متعتهم في الجلوس في غرفة الملابس خلال الاستراحات ، والحديث عن هذا المشهد او ذاك ، مستغربين كيف تراخى احد المشاهد ليلتها ،او مهنئين أنفسهم لانه بدا متقناً، ولم يشعروا بالملل ابداً من الاحاديث اليومية عن المسرحيات ، وكانوا مغرمين بالمسرح ومايتصل به ، وكانت محبته تسري في عظامهم .

ولم اكن من هذا الطراز ابداً . فأنا أحب المسرح حين يكون تحت ملاءة الغبار والصالة يغمرها الظلام ، والمنصة غيرمعدة لتنيرها الاضواء السفلية والالواح الخشبية مسندة الى الحائط الخلفي . ولطالما أمضيت ســاعات سعيدة وقت التمرينات ، وأحببت زمالة الممثلين بما فيها من بساطة، والغذاء السريع في مطعم حول الزاوية مع عدد منهم ،وفنجان الشاي الثقيل المر مع الخبز السميك والزبدة من يد الخادمة في الساعة الرابعة ، وان انس لا انس تلك الرعشة الخفيفة من السرور المفاجىء الذي انتابني حين سمعت – بعد عرض مسرحيتي الاولى – رجالا ونساء راشدين يعيدون العبارات التي تدفقت من قلمي بسهولة. وقد لذ لي ان اراقب كيف ينمو الدور على يدي الممثل ، من القراءة الاولى الخالية من الحياة ، الى مايشبه الشخصية المطبوعة في ذهني . وكنت انفر من المناقشات المهمة حول المكان الصحيح الذي ينبغي ان توضع فيه قطعة من الاثاث،ومن اعتداد المخرج بكفايته ومن تذمر ممثلة لم ترض عن مواقفها ، ومن مهارة الممثلين القدامى المصممين على احتكار قلب المسرح لمشهدهم ، ومن تجاذب اطراف الحديث حول اي موضوع يمر بالخاطر ..

كانت تجارب الملابس غاية العجب .. فثمة نصف دزينة من النساء يجلسن في الصف الامامي من حلقة اللباس ، وانهن مصممات الثياب اللائي يبدو عليهن الخشوع كأنهن في كنيسة ، ويتبادلن الهمسات القصار الحادة خلال العرض ، وتصدر عنهن ايماءات قليلة ذات مغزى.. وانك لتدرك انهن يتحدثن عن طول خراطة أو عن قصة كم ، او عن ريشة في قبعة .. وفي لحظة سقوط الستارة يسر عن والدبابيس في أفواههن الى خشبة المسرح من الباب الداخلي . ويصرخ المخرج « يرفع الستار » فعند ذلك تنتفض ممثلة ، وتنتزع نفسها من نقاش مضطرب مع سيدتين عابستين مجللتين بالسواد .

وتصرخ السيدة : آه ياسيد ثنغ . انني اعرف أن وشي الثوب غير مناسب ولكن السيدة « فلوس » تقول انها وستنزعه وتضع بدلا منه قطعة من المخرمات [1] .

وفي المقاعد الامامية ترى المصورين ، ورجال الادارة ، وبائع التذاكر ، وامهات الممثلات ، وزوجات الممثلين ، ووكيلك الخاص ، وصديقة لك ، وثلاثة ممثلين أو أربعة من القدماء الذين لم يأخذوا دوراً منذ عشرين عاما . انه الجمهور الكامل ، وبعد كل فصل يقرأ المخرج الملاحظات التي خطرت له . وهناك نزاع مع الكهربائي الذي اخطأ في ادارة أزراره وليس له من عمل سواها ، والمؤلف غاضب منه بسبب اهماله ، ولكنه في الوقت نفسه ميال الى مسامحته لانه يعتقد ان الكهربائي عندما اغفل عمله فقد كان ذلك بسبب انهماكه في متابعة المسرحية . وقد يعاد تمثيل احد الفصول ويكون قد وقع الاختيار مسبقاً على بعض المواقف المؤثرة فعند ذلك تسطع الأضواء وتؤخذ الصور ويتنزل الستار من اجل اعداد المشهد التالي ، بينما ينصرف الممثلون الى غرفهم لتبديل ألبستهم ، وتختفي مصممات الثياب ، وينسل الممثلون القدامى الى الزاوية ليأخذوا شيئاً من الشراب ، ويعب رجال الادارة من دخانهم السيء ، وزوجات الممثلين وأمهاتهم يتبادلن الهمسات ، ووكيل المؤلف يقرأ اخبار السباق في صحيفة مسائية . انها مشاهد مثيرة غير حقيقية .. واخيراً

---

(١) المخرمات : الدانتلا .

(المعرب)

تتسرب مصممات الثياب من خلال باب مكافحة الحريق ويستأنفن مجلسهن ،على حين ينتشر ممثلو المؤسسات المتنافسة في مقاعد متباعدة كبرياء ، ويدخل مدير المسرح رأسه في الستار ويصيح « مستعدون يامستر ثنج » .

- تماما ، فلنبدأ ، وليرفع الستار

ولكن تجربة الملابس كانت آخر لذة يمكن ان تمنحني أياها مسرحيتي . وفي الليالي الاولى لمسرحياتي المبكرة كنت شديد اللهفة والتوتر لان مستقبلي كان رهن نتائجها . وحين انتجت (اللادى فردريك) كنت قد اتيت على ماتبقي لي من المال الذي حصلت عليه وانا في الواحدة والعشرين من عمري ، ولم تكن رواياتي قداثمرت مايقيم اود حياتي ولم استطع ان اكسب شيئاً من الصحافة . وكنت احياناً اكلف بكتابات نقدية في بعض المجلات .. وقداقنعت رئيس تحرير احدى هذه المجلات أن أقوم بعرض بعض المسرحيات ، وتكشفت الحقيقة عن كوني غير موهوب في هذا الاتجاه ، والحق ان رئيس التحرير قال لي : انني لا أملك احساساً بالمسرح ، ولو ان (اللادي فردريك) انتهت الى الاخفاق لكان علي ان اعود الى المستشفى لانعش معرفتي بالطب مدة سنة ثم التحق بمنصب جراح على ظهر احدى السفن ، وفي ذلك الوقت كان هذا المنصب غير مرغوب فيه ،وقل من بين خريجي لندن من كان يتقدم اليه . ولكني -- بعد ان أصبحت مسرحياً ناجحاً - اخذت أقصد ليالي العرض الاولى مجنداً مشاعري لكي أميز ، من خلال ردود فعل الجماهير ، مافـــد يكون من سقطات في مقدرتي ، وكنت أبذل جهدي لكي أمتزج مع الجماهير حتى أفقد نفسي . ان الليلة الاولى بالنسبة للجمهور ، ليست سوى حدث مسل يفصل بين وجبة سريعة في السابعة والنصف ، وعشاء في الحادية عشرة ،ولا شأن الجمهور بنجاحه أو أخفاقه وقد حاولت ان أرى الليالي الاولى لمسرحياتي كما لو كانت من تأليف شخص آخر ،ولكن هذه التجربة لم ترق لي . ولم يجدني فتيلا ان اسمع الضحك يعقب نكتة لطيفة ، أوالتصفيق على اثر اغلاق الستار بعد مشهد حاز الرضي . والحقيقة انـي وضعت الشيء الكثير من نفسي حتى في أخف القطع ، مما جعلني أضيق بسماعها وهي تذاع في جمهور من الناس .

كانت الكلمات قطعاً من نفسي بيني وبينها ألفة جعلتني أنفر من أشراك القاصي والداني بها . وقد خامرني هذا الشعور غير المعقول حتى حين ذهبت لرؤية مسرحية مترجمة لي ، وجلست في المسرح كأي فرد مجهول من أفراد الجمهور . وبالفعل ما كنت لاقدم على رؤية الليالي الاولى لمسرحياتي ، أو غير الليالي الاولى ، لو لم أشعر بضرورة رؤية تأثيرها في النظارة ، لكي أجد السبيل الى اتقان الكتابة .



- ٣١ -

ان مهنة الممثل شاقة . ولست أقصد الكلام عن الصبايا اللواتي يصعدن خشبة المسرح بسبب وجوههن الصبيحة ، ولو كانت صباحة الوجه تؤهلهن لمهنة الضرب على الآلة الكاتبة لذهبن الى المكاتب ، ولا عن الشبان الذين يصعدون خشبة المسرح بسبب حسن هيئاتهم وليس لديهم قابلية لاي عمل آخر ، انهم جميعاً يدخلون مهنة التمثيل ليخرجوا منها .. فالصبايا يتزوجن ، والشباب ينتقلون الى متجر نبيذ ، أو يتولون الزينة الداخلية للمسرح انما أقصد الممثلين المطبوعين الذين يمتلكون الموهبة والرغبة في استخدام هذه الموهبة . ان مهنة التمثيل تتطلب جهداً مضنياً قبل احراز الكفاية ، فما يكاد الممثل ان يصبح بالجهد قادراً على تمثيل أي نوع من الادوار ، حتى يدركه السن ، فلا يقوى الا على قليل من الادوار .. انها مهنة الصبر الذي لاحد له . وهي مشبعة بالخيبة ، وينبغي ان يحتمل صاحبها فترات من البطالة الاجبارية فالجوائز قليلة ومدة تمتع صاحبها بها قصيرة ، والمكافآت غير كافية ، والممثل تحت رحمة الحظ ومزاج الجمهور المتقلب ، وسرعان ماينساه الجمهور اذا كف عن ارضائه ، ولن يجديه حينذاك انه كان معبود الجمهور يوماً ما ، وعليه ان يتضور جوعاً دون ان يكترث به احد . واذا افكر في هذا المصير ، اجدني اميل الى اغتفار مظاهر الابهة التي تحيط بالممثل ، واعتداده ، وغروره حين يكون على ذروة الموج .. فليكن مزهواً غراً اذا شاء . . فذلك لا يدوم طويلاً .. وعلى أية حال ، فان أنانية الممثل جزء من موهبته .

وقد مرت فترة كان فيها المسرح بابا الى الشهرة الرومانسية ، وكان كل من اتصل به يبدو مثيراً وغامضاً . وفي عالم القرن الثامن عشر المتحضر ، اعطى الممثلون الحيـــاة

مسحة من الخيـــال المشوق . كانت حياتهم اللا منظمة فتنة تخلب اللب في سن الرشد (Age of Reason) والادوار البطولية التي لعبوها والشعر الذي ألفوه كل ذلــك احاطهم بهالة خاصة . وفي كتاب جوته الرائع ، المهمل عـــادة ، (ولهلم ميستر Wilhelm Meister) تستطيع ان ترى بأية رقة نظر الشاعر الى ما كان في الحقيقـــة ابسط من فرقة تمثيل جوالة من الدرجة الثانية . وفي القرن التاسع عشر وجد الممثلون مخرجاً من وقار العصر الصناعي . . والبوهيمية التي نسبت لهم اثارت خيال الشباب الذين كانوا مضطرين للعمل في المكاتب من اجل كسب قوتهم ، كان الممثلون اشخاصـاً مفرطين في عالم رزين . . اشخاصاً لا مبالين في عالم شديد الحرص . . واحاطهم الخيـال ببريق خاص . وفي كتاب (اشياء مرئية Choses Vues) لفيكتور هوغو ، مقطع مؤثر بما فيه من دعابة غير واعية ، حيث يصف الفتى المدرك ، برهبة ودهشة ومس من الحسد ، حفلة عشاء مع ممثلة ، فالمرة الاولى في حياته يجد نفسه في حضرة شيطان . الله أكبر أية شمبانيا كانت تتدفق ، وأي ترف ، وأية فضة ، وكم هي جلود النمور الـــتي يشاهدها المرء في شقتها ! ! .

لقد اختفى هذا المجد ، واستقر الممثلون وأصبحوا محترمين وميسوري الحال . . لقد آلمهم ان ينظر اليهم على أنهم صنف خاص من الناس ، فعملوا جهدهم لـكي يصبحوا كغيرهم ، وظهروا على حقيقتهم دون زينة في وضح النهار ، وطلبوا الينا ان نرى فيهم لاعبي جولف ، ودافعي ضرائب ، ورجالاً ونساء يفكرون ، وهذا هراء وتـدن في رأيي .

عرفت في حياتي كثيراً من الممثلين ، واستطبت صحبتهم ، ووجدتها مسلية ، لما آنسته فيهم من قدرة على التقليد ، وبراعة في رواية القصص ، وبديهة سريعة ، وهم عامة طيبون وشجعان . ولكنني لم استطع ابداً أن انظر اليهم نظرتي الى المخلوقات الانسانية العادية ، ولم انجح ابداً في احراز ألفة وثيقة معهم وهم أشبه بأحاجي الكلمات المتقاطعـة التي لا تجد لفراغاتها كلمات مناسبة . والحقيقـة ، في رأيي ، ان شخصياتهم مستمدة من الادوار التي يمثلونها ، وانها ترتكز الى قاعدة مائعة . . انها شيء رخو لين يستطيع أن

يتلبس اي شكل ، وان يصبغ بأي لون ، وقد تنبأ كاتب ذكي انه لن يكون مستهجناً في المستقبل الكف عن دفنهم في المقابر ، مادام من السخف الافتراض بأن لهم ارواحاً . وربما كان هذا افراطاً . انهم في الواقع مشوقون ، والروائي اذا كان مخلصاً ،ينبغي أن يعترف ان هناك التقاء معينا بينه وبينهم : شخصيتهم كشخصية مبنية على انسجام غير محكم جداً ، انهم حصيلة كل الشخصيات التي يقلدونها ، وهو كل الاشخاص التي يخلقها .. الممثلون والكتاب يقدمون انفعالات لايشعرون بها ابداً في ابانها ، وهم ، إذ يختاون بأنفسهم خارج دائرة الحياة فانما يصورون هذه الحياة ارضاء لغرائزهم الخلاقة . . ان الايهام هو واقعهم ، والجمهور الذي هو في وقت واحد مادتهم والحكم عليهم ، هو ايضاً ضحية خداعهم . ولان الايهام هو واقعهم ، يمكنهم ان ينظروا الى الواقع على انه ايهام .

- ٣٢ -

بدأت بكتابة المسرحيات كما يفعل معظم الكتاب الناشئين على ما أعتقد ، لأن تدوين مايقوله الناس يبدو أقل صعوبة من انشاء القصص ، وقديماً لاحظ الدكتور جونسن أن وضع المحاورات اسهل بكثير من نسج المغامرات . وفي دفاتري القديمة التي حبرتها بين الثامنة عشرة والعشرين من عمري ، دونت بعض المشاهد من مسرحيات كانت تدور في ذهني ، والآن أجد حوارها سهلاً ومحتملاً ، ونكاتها غير قادرة على انتزاع ابتسامتي ، ولكنها مشبعة بلغة الناس العادية التي أخذتها بالفطرة ، وهذه النكات قليلة وشديدة القسوة ، أما موضوعات تمثيلياتي فقد كانت متجهمة وانتهت غالبــاً بالظلام واليأس والموت . وفي رحلتي الاولى الى (فلورنسة) اخذت معي كتاب (الاشباح) من أجل الترويح عن النفس ، لانني كنت ادرس (دانتي) دراسة جدية . وقد ترجمته الى الانكليزية عن نسخة المانية لكي اكتسب معرفة بالبناء الفني . واذكر ،كل ما أحمله من الاعجاب بابسن ، انني لم أملك تجاه (باستور ماندرز) إلا أن أحس بشيء من الضيق وفي ذلك الحين كانت مسرحية « السيدة تانكري الثانيــة » تعرض على مسرح (سان جيمس) ..

وخلال سنتين أو ثلاث أتممت عدداً من القطع المسرحيـة القصيرة (رافعات الستار Curtain-raisers) وارسلتها الى المنتجين ، وقد ضاعت واحدة أو اثنتان منها لان بعض المنتجين لم يعيدوها ، ولم تكن لدى نسخ اخرى عنهـــا ، على حين طرحت التمثيليات الاخرى ، او اتلفتها ، بعد ان جوبهت بالتثبيط وعدم التشجيع . وفي ذلك الوقت ، وبعده بكثير ، كانت الصعوبات التي تواجه الكاتب المجهول ، وتحول بينه وبين

انتاج مسرحياته ، اشق بكثير مما نراه اليوم .. وكان العرض يستمر طويلا لان التكاليف قليلة ، وكانت تقف على أهبة الاستعداد ، لامداد المسارح الرئيسية بما تحتاجه ، عصبة من المؤلفين يرأسهم بنرو) و (هنري ارثر جونز) . وكان المسرح الفرنسي مايزال مزدهراً ، وشاعت عنه الاقتباسات المطهرة المنقحة .. ثم القي في روعي ان فرصتي الوحيدة لتمثيل أعمالي المسرحية هي احراز سمعة لنفسي كروائي اولا ، وربما اتتني هذه الفكرة من قيام (المسرح المستقل) بتمثيل قصة (اضراب في اولنغفورد) لجورج مور. وهكذا وضعت المسرحية جانباً وشرعت اكتب القصة . وقد يحسب القاريء ان هذا الاسلوب المنهجي في اداء العمل لايلائم - بما فيه من روح عملية صرف - كاتباً شاباً ، وهو يوحي باتجاه ذهني واقعي لايفيض سماوي يصبو الى اغناء العالم بالفن . وبعد ان نشرت قصتين ، واعددت للطبع مجلداً من القصص القصيرة ، شرعت في كتابة مسرحيتي الاولى الكاملة الطول ، واسميتها (رجل شرف) وارسلتها الى (فوربتز روبرتسون) الذي كان وقتذاك ممثلا شعبياً اشتهر بميوله الفنية ، واعادها إلي بعد شهرين أو ثلاثة فارسلتها الى (شارلز فروهمان) الذي ردها إلي بدوره . ثم اعدت كتابتها وارسلتها الى (جمعية المسرح) وكنت في هذه الاثناء قد نشرت روايتين اخريين احداهما (السيدة كرادوك Mrs Craddock) اصابت نجاحاً معتبراً ، مما جعل الانظار تتجه إلي وتعتبرني قاصاً ذا شأن ومستقبل ، وهكذا احرزت المسرحية قبولاً ، ونالت حظوة لدي السيد و.ل. كورتني احد اعضاء اللجنة ، حتى انه نشر قبلها مسرحية واحده فقط هي (صورة الليل) للسيدة كليفوردز ، فكان في ذلك شرف عظيم لي .

وكان انتاج (الجمعية المسرحية) يجذب انظار الناس لانها كانت المنظمة الوحيدة من نوعها وقتئذ ، وهكذا عوملت مسرحيتي من قبل النقاد بجد كما لو أنها كانت مهيأة لان تعرض على أحد المسارح المهمة ، ولكن الخيول الهرمة تناولتها بالتجريح القوي ، وصرح ناقد (الساندي تايمز) أنها لاتحوي أية بادرة من موهبة مسرحية ، وقد نسيت

من هو . اما النقاد الذي التفوا حول اتجاه (ابسن) فقد عاملوها كعمل جدير بالاعتبار وكانوا متجاوبين ومشجعين .

واعتقدت ان هذه الخطوة التي خطوت ، ستزيل من وجهي بعد الآن الصعوبات الكبيرة ، ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت انني لم احرز شيئاً ، اللهم إلا معرفة قوية بفن كتابة المسرحية ، وماتت مسرحيتي بعد عرضين فقط . وانتشر اسمي بين اولئك المهتمين بالمسرح التجريبي فقط ، ولو انني كتبت مسرحيات جديدة لما تأخرت (الجمعية المسرحية) بلا شك عن عرضها ، ولكن ذلك لم يكن كافياً ، واثناء التجارب اتصلت بأناس مهتمين بالجمعية وخاصة (جرانفيل باركر) الذي لعب الدور الاول في مسرحيتي . وقد جوبهت بموقف عدائي فيه ترفع وضيق . وكان جرانفيل باركر شاباً في مقتبل العمر يكبرني بعام واحد ، إذ كنت في الثامنة والعشرين وكان فاتناً طروباً ، في ابهة ورونق ، متعالياً على افكار الآخرين .. ولكنني أحسست عنده شعوراً بالخوف من الحياة كان يسعى لتغطيته عن طريق احتقار عامة الناس ، حتى ندر أن تقع على شيء لم يحتقره . وكان باركر يفتقر الى الحيوية الروحية ، وكنت اعتقد أن الفنان يحتاج الى مزيد من القوة والعزم والصلابة ، والى شجاعة اكثر ، وعضلات اقوى .. وقد كتب باركر مسرحية (زواج ان ليست) فبدت لي مصطنعة فقيرة الدم .

وقد احببت الحياة واردت التمتع بها ، وصممت آن انتزع منها كل ما استطيعه ، ولم اقنع بتقدير عصبة صغيرة من المثقفين ، اشك في اهليتهم ، لانه اتفق لي ان حضرت معهم ملهاة عامية فجة اعدتها (الجمعية المسرحية) ورأيت اعضاءها مغرقين في الضحك ، ولم اكن على يقين من وجود اهتمام جدي لهم بالمسرحية الرفيعة ، ولم ارغب في مثل هؤلاء النظارة ، وانما تطلعت الى الجمهور العظيم .. كنت الى ذلك فقيراً ، ولم أشأ أن تظل حياتي كسرة خبز في ملحق ، واكتشفت ان النقود مثل حاسة سادسة لايحسن المرء بدونها ان يستغل حواسه الخمس الاخرى

وخلال التمرينات على (رجل شرف) اكتشفت ان بعض المشاهد الغزلية في

الفصل الاول كانت مسلية ، وصممت على كتابة (الملهاة) في الحال ، واسميت الملهاة الاولى (ارغفة وسمك) وكان بطلها كاهنا طموحا متعلقا بالدنيا ودارت حوادث القصة حول خطبته لارملة غنية ، واحابيله الهادفة الى منصب الاسقفية وعثوره اخيراً على وارثة جميلة ، ولكن احداً من المنتجين لم يقبل هذه المسرحية لانهم اعتقدوا انه من المستحيل احتمال مسرحية يدور فيها الضحك على رجل دين ، وانتهيت الى ان فرصتي الوحيدة هي ان اكتب ملهاة يعطى الدور الاكبر فيها الى ممثلة ، ممثلة ان استحسنت الملهاة استطاعت ان تحمل المنتج على تجربتها وسألت نفسي عن الدور الذي يمكن ان يستهوي سيدة ذات شأن ، ولما استقر رأيي حول هذه النقطة كتبت (اللادي فردريك) ، ولكن أكثر فصولها تأثيراً - وهو الفصل الذي جعلها فيما بعد ناجحة جداً - كان يدور حول بطلة تسمح لعاشقها الشاب ، كي توقظه من الوهم ، ان يدخل الى غرفة ملابسها ويرى وجهها بغير زينة وشعرها بغير تسريح . وفي ذلك الزمن البعيد لم تكن الزينة شائعة ، ومعظم النسوة كن يرتدين شعراً مستعاراً . ولم تقبل اية ممثلة ان تدع الجمهور يراها في هذه الحالة ، وقد رفضت المسرحية من قبل المنتجين واحدا بعد الاخر . واخيرا عزمت على اختراع تمثيلية لا اترك فيها مجالا لاي اعتراض . وكتبت (السيدة دوت) التي لاقت مصير اخواتها السابقات . واعتقد المنتجون انها هزيلة جداً وشكوا من قلة العمل المسرحي فيها ، واقترحت الآنسة ماري مور ، وهي وقتئذ ممثلة معروفة ، ان ادخل في المسرحية حادثة سطو لاجعلها اكثر إثارة .. وهكذا اقتنعت بأنني لن استطيع كتابة مسرحية ترضي فيها البطلة عن دورها لدرجة تجعلها تصر على اخراجها الى حيز الوجود ، ولذلك اخذت اجرب حظي في مسرحية يكون الدور الاساسي فيها لرجل ، وكتبت (جاك سترو) وخيل الي ان النجاح البسيط الذي احرزته لدى الجمعية المسرحية كفيل ان يوجه المنتجين الى مصلحتي ، وتبين لي ، للاسف ، ان الامر خلاف ذلك ، اذ ان علاقتي بالجمعية جعلت المنتجين يتحزبون ضدي ويعتقدون انني لا أستطيع أن انتج سوى مسرحيات قاتمة لا تدر الربح ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يقولوا ان مسرحياتي الهزلية قاتمة ، وان كانوا أحسوا

احساسا غامضا انها كانت غير سارة ، واقتنعوا انها لن تجني ارباحا ، وكنت خليقا ان أقع فريسة اليأس بعد ما حدث ، وان اكف عن محاولة عرض مسرحياتي للتمثيل ، فان كل مخطوطة كانت تعاد لي كانت تزيدني يأساً ، ولكن لحسن حظي ، اعتقد « جولدنج برايت » ان مسرحياتي تصلح للسوق فاخذها على عهدته ، وقدمها الى منتج بعد آخر ، حتى كانت سنة ١٩٠٧ وعرضت مسرحيتي (اللادي فردريك) على مسرح البلاط ، بعد عشر سنوات من الانتظار كتبت فيها ست مسرحيات كاملة . وبعد ثلاثة اشهر قدمت مسرحيتي (الآنسة دوت) على مسرح الكوميدى و (جاك سترو) على الفودفيل وفي حزيران قدم (لويس وولر) على المسرح الغنائي تمثيلية (الرائد The Explorer) التي كتبتها مباشرة بعد (رجل شرف) . وهكذا تم لي ما اردت .

- ٣٣ -

لقد استمر عرض المسرحيات الثلاث الاولى مدة طويلة . اما « الرائد » فكادت تكون اخفاقاً ، ولم اربح كثيراً من النقود ، لان المسرحيات الشعبية في تلك الايام قليلة الايراد بالنسبة لمسرحيات اليوم ، وهكذا كان واردي قليلا ، ولكنني على اي حال تخلصت من القلق المالي ، وبدا مستقبلي مضمونا ، وكسبت شهرة كبيرة لان اربعة من مسرحياتي كانت تمثل في وقت واحد ، وقد رسم (برنارد بارتردج) صورة هزلية لمجلة (بنش) ظهر فيها وليم شكسبير يعض بنانه امام اللوحات التي كان تعلن عن مسرحياتي واخذت لي صور كثيرة ، واجريت معي مقابلات كثيرة ، واخذ رجال المجتمع يطلبون التعرف الي ، وكان نجاحي مدوياً وغير متوقع ، وشعرت بالارتياح اكثر من شعوري بالاضطراب ، ويخيل الي انني لا املك قابلية الوقوع في الدهشة ، وكما فعلت في رحلاتي استقبلت اعجب المشاهد واغرب الظروف بطريقة عادية جدا حتى وجدتني مضطرا الى ان اكره نفسي على النظر الى هذه الامور بما تستحقه من الاهتمام ، وهكذا نظرت الى نجاحي نظرتي الى امر طبيعي . وفي احدى الامسيات بينما كنت اتناول عشائي وحيداً في ناد ما ، رأيت الى جانبي زميلا في النادي لا تربطني به معرفة ، يستضيف شخصا غريبا ، وقد قررا الذهاب الى احدى مسرحياتي وطفقا يتحدثا عني ، وذكر الزميل انني عضو في النادي فقال له الضيف :

— هل تعرف هذا الرجل . اعتقد انه شامخ الرأس منتفخه الى اقصى حد .

واجاب الزميل :

نعم : اعرفه جيدا . انه لايستطيع ان يحصل على قبعة تلائم انتفاخ رأسه .

ولقد كان متجنيا، لانني اعتبرت النجاح بعضاً من حقي، وقد تسليت بنجاحي ولكنني لم اؤخذ به، ورد الفعل الوحيد الذي اقدر ان اتذكره من تلك الفترة، فكرة خطرت لي حين كنت امر بشارع بانتون ذات مساء فحين أجتزت المسرح الكوميدي أتفق أن رفعت رأسي ورأيت الغيوم وقد أنارتها الشمس الغاربة، وصمت متأملا المنظر الجميل وقلت في نفسي: الحمد لله الان أستطيع أن أنظر الى غروب الشمس دون ان أفكر كيف أصبغه.. وعنيت بذلك انني لن اكتب كتابا آخر، بل سأكرس بقية حياتي للمسرح. ومع ان الجمهور تقبل مسرحياتي بحماسة لا في انكلترا فحسب بل في امريكا، إلا أن رأي النقاد في القارة لم يكن مجمعاً على قبول مسرحياتي.. النقاد الشعبيون امتدحوا فيها ذكاء البديهة، والبهجة، والتأثير المسرحي، وانتقدوا تشاؤمها، أما النقاد الجديون فقد استخفوها ووجدوها رخيصة وتافهة وأخبروني انني بعت نفسي للمال. والطبقة المثقفة التي كنت فيها عضواً متواضعاً ومحترماً في الوقت نفسه، لم تكتف بتصغير الحد، وهي عقوبة كافية لي، بـــل قذفت بي مثل ابليس الى الهاوية التي لا قعر لها، وقد انكمشت وتألمت قليلا، ولكنني حملت عاري بقوة، لانني عرفت انه ليس (خاتمة القصة)، اذ كنت قد رسمت لنفسي نهاية معينة، وأتخذت الوسائل الكفيلة لبلوغ هذه النهاية، ولم يكن علي الا ان أهز كتفي استخفافاً بأولئك الذين كانوا من الغباء بحيث لا يدركون ذلك. ولو انني تابعت كتابة مسرحيات مرة مثل (رجل شرف) أو تهكمية مثل (أرغفة وأسماك) لما أتيحت لي أبداً الفرصة لانتاج قطع معينة، لم يستطع أحد أن يضن عليها بالمديح حتى أقسى النقاد، لقد أتهمني النقاد بأنني أكتب للجمهور ولم أكن أفعل ذلك تماماً، وكان لي في ذلك الحين مواهب غنية: سهولة في ايراد الحوار المسلي، وعين تنتقي المشهد الكوميدي، ومرح صاف، بل اوتيت اكثر من ذلك، ولكنني طرحت ذلك مؤقتاً، وكتبت مسرحياتي مستعيناً بتلك الجوانب من نفسي التي كانت مواتية لغرضي المحدد، فقد رميت الى امتاع الناس واصبت الهدف.

ما كنت لأقبل ان أضيع في غمرة نجاح عابرة.. وقد كتبت مسرحيتي التاليتين لأشد قبضتي على الجمهور، وكانتا اجرأ قليلاً، وامتازتا بالليونة والبعد عن التكلف كما يبدو

لي الآن ، وتعرضتا لهجوم المحافظين بحجة ميلها الى التبذل . على ان احداها وهي (بناوب) لم تخل من ابداع ، لانها حين اعيد تمثيلها في برلين بعد عشرين سنة شغلت المسرح فصلا كاملا من السنة .

وحتى ذلك الحين كنت قد تعلمت من فن كتابة المسرحية اقصى ما يمكن ان اتعلمه ، وباستثناء (الرائد) التي اخفقت في احراز قبول شامل لسبب اعرفه جيداً ، اخذت احرز سلسلة متلاحقة من الانتصارات . واعتقدت ان الاوان قد آن لاجرى يدي في عمل اكثر جدية ، واردت أن ارى ما يمكن أن اصنعه في موضوعات أعقد . ورغبت ان أجري تجربة فنية صغيرة أو تجربتين يكون لها تأثير مسرحي خاص ، ووددت لو اعلم الى أي مدى يمكن ان اتمادى في صلتي بالجمهور ، وكتبت (الرجل العاشر ـ The Tenth Man) ومالكو الارض Landed Gentry) وأخيراً انتجت (ارغفة وسمك) بعد ان قبعت في مكتبي اثنتي عشرة سنة ، ولم تحقق واحدة من هذه المسرحيات ، ولكنها كذلك لم تنجح ، ولم تعد بالربح على المنتجين ، ولم تسبب لهم الخسارة ، ولم يمتد عرض (ارغفة وسمك) طويلا لان جمهور تلك الايام لم يرتح لرؤية كاهن يتعرض للهزل والسخرية ، والحق ان هذه التمثيلية تنطوي على قدر من الافراط يقربها من الملهاة العامية ، ولكن فيها مشاهد مسلية ، أما التمثيليتان الاخريان فكانت كل واحدة منها في عالم بعيد عن الآخر ، الأولى تصور الحياة الضيقة المحدودة لسكان الريف والاخرى تصور العالم السياسي والمالي ، وكنت مطلعاً على كليهما بعض الاطلاع . وعرفت أنه ينبغي ان امتع الناس وأسليهم وأحركهم ، وهكذا رفعت مستوى الكلام ، فاذا المسرحيتان لاتتصفان بالصراحة الواقعية ، ولا بالصراحة المسرحية ، وقضي عليهما هذا التردد ، ولم يستسغهما الجمهور ووجدهما غير واقعيتين تماماً ... وبعد ذلك استرحت مدة

سنتين كتبت في نهايتها (أرض الميعاد) وظلت تعرض هـــذه المسرحية خلال اشهر في مسارح مزدحمة حتى أعلنت الحرب .

لقد انتجت عشر مسرحيات في سبع سنين وقد اهملتني الطبقة المثقفه بعد أن أصدرت حكمها عليّ ، ولكنني كنت قد اطمأننت تماماً الى رضى الجمهور ..



في اثناء الحرب اتيحت لي ، أحياناً ، فرص من الفراغ طويلة ، فالعمل الذي كنت أقوم به لم يستغرق إلاجزءاً من يومي ، و كتابة المسرحيات كانت وسيلة ملائمة لصرف اهتمامي عن وجوه النشاط التي كانت تشغلني ، وفيما بعد ، أصبت بالسل وأضطررت ان آوي الى الفراش مدة طويلة ، فكان ذلك طريقة ممتعة لقضاء الوقت ، فكتبت عدداً من المسرحيات التي أصابت نجاحاً سريعاً ، بدأتها بمسرحية (أفاضلنا) التي كتبتها سنة ١٩١٥ وختمتها بـ : (الزوجة الصامدة) في سنة ١٩٢٧ .

ومعظم هذه المسرحيات من نوع الملهاة المكتوبة وفق الاسلوب الذي انتعش ولمع في (عصر رجوع الملكية Restoration Period)[١] ، وقاده جولدسمث وشريدان ، وربما كان في هذا الاسلوب خاصة معينة تستهوي المزاج الانكليزي لأنه كان الزي السائد لمدة طويلة ، والذين لايحبون هذا الاسلوب يسمونه الكوميديا المصطنعة ويعتقدون بحمق انهم يقضون عليه بمثل هذا الوصف .. انه اسلوب في فن المسرحية لايقوم على الحركة ، بل على الحديث ويعالج بمنتهى التهكم أمزجة أهل المجتمع وحماقاتهم ورذائلهم ، وهو حضري وفيه رقة عاطفية احيانا ، مما يوائم المزاج الانكليزي ، وفيه بعد طفيف عن الواقع ونفور من الوعظ ، وقد يمس أحياناً ناحية أخلاقية ولكن بهزة من الكتف تكاد توحي اليك ان لاتوليها أهمية كبيرة جداً . وحين ذهب مسيو دوفولتير المنهمك في العمل لمقابلة كونجريف

(١) نسبة الى عودة الملك تشارلز الثاني الى العرش البريطاني في سنة ١٦٦٠ .
(المعرب)

ومحادثته بشأن الدراما الحديثة ذكر السيد كونجريف انه رجل مهذب ، قبل أن يكون كاتباً مسرحياً ، فأجابه محدثه : لو كنت مهذباً وكفى ، لما كلفت نفسي مشقة طرق بابك ، وكان مسيو دوفولتير أذكى أهل عصره ولكن ذكاءه خانه في هذا الموقف ، وأتت ملاحظة السيد كونجريف عميقة ، وأظهرت انه يعرف جيداً ان الشخص الاول الذي ينبغي ان يضعه مؤلف الكوميديا موضع الاعتبار هو نفسه .



- ٣٥ -

الى هنا كان رأيي قد استقر حول أمور كثيرة متصلة بالمسرحية .

ومن بين الامور التي انهيت اليها ان التمثيلية النثرية لاتكاد تختلف الا قليلا عن نشرة الانباء في كونها وقتية . ان كاتب التمثيليات والصحفي يحتاجان الى مواهب متماثلة جداً : عين تنفذ الى القصة الجديدة او الخبر المهم ، وهمة نشطة، واسلوب حي في الكتابة . وكل مايحتاجه المسرحي الى ذلك حذق نوعي ، ولست اعرف انسانا توصل الى اكتشاف مقومات هذا الحذق .. انه شيء لايمكن تعليمه ، وقد يتوفر دون تعليم او ثقافة ، انه موهبة تمكن الكاتب المسرحي من ان يصوغ الكلمات بحيث تفرض نفسها أمام أضواء المسرح ، وان يسرد القصة مرداً مجسماً بحيث تتحرك مرئية واضحة امام الجمهور . وهذه الموهبة نادرة ، ولذلك يتقاضى المسرحيون أجوراً تفوق كثيراً مايتقاضاه الفنانون الآخرون .

ولا شأن لهذه الموهبة بالمقدرة الادبية ، ويؤكد هذا الحكم ان معظم القصاصين المرموقين ، للاسف ، اخفقوا بوجه عام ، حين حاولوا ان يكتبوا التمثيليات . وهذه الموهبة ، شأنها شأن القدرة على العزف السماعي ، ليست ذات أهمية روحية ، ولكنك لن تجيد كتابة المسرحية بدونها، ولو كانت افكارك عميقة وموضوعك أصيلا وتشخيصك دقيقاً .

وما اكثر ما كتب عن فن كتابة المسرحية ، ولقد قرأت باهتمام معظم الكتب التي طرقت هذا الموضوع . وأفضل طريقة - في رأيي لتتعلم كيف تكتب المسرحية هي ان تشاهد احدى مسرحياتك ممثلة ، واذ ذاك ستتعلم كيف تكتب سطوراً يسهل على الممثلين

النطق بها ، والى اي مدى تستطيع ، اذا كانت اذنك حساسة، ان تنظم جرس الجملة دون ان تفسد بداهة الحوار وكذلك ستعرف اي نوع من المشاهد وأي نوع من الكلام هو اكثر تأثيرا ؟ على انني اعتقد ان سر الكتابة المسرحية يكمن في مبدأين : ركز المعالجة على نقطة ما ، وحين تواتيك الفرصة ابترها . والمبدأ الاول يحتاج الى ذهن منطقي وماأقل الذين يملكونه ، ان الشيء يذكر بالشيء ، والانسان يجد متعة في التمادي بذلك حتى لو لم يكن هذا الشيء ذا ارتباط مباشر بالموضوع ، والميل الى الاستطراد شيء في طبع الانسان ولكن المسرحي ينبغي ان يتجنبه بصرامة تفوق صرامة القديس في اجتناب الخطيئة ، لان الخطيئة قد تكون مغتفرة ولكن الاستطراد قتال . والمبدأ الذي ينبغي ان يراعي هو محور الاهتمام ، وهذا مهم في الرواية ايضاً . ولكن مدى المسرحية الواسع يسمح بتشتت اعظم ، وكما هو الشأن عند المثاليين اذ يتحول الشر الى الخير التام في المطلق ، هناك استطرادات معينة في المسرحية قد تلعب دوراً ضرورياً في تطوير الموضوع الاساسي (ان تاريخ زوسيما الاكبر في (الاخوة كرامازوف) مثال جيد جداً لهذه الحالة) . وربما كان علي ان اوضح ماأعنيه بـ « محور الاهتمام » . انه الطريقة التي يتمكن بها المؤلف من ان يربط اهتمامك بخطوط اناس معينين ، تحت ظروف معينة، ويستمر على ذلك حتى ينتهي بك الى الحل ، فان سمح لك ان تشرد عن النقطة الاساسية ، فمن المحتمل جداً ان لايتمكن من استعادة انتباهك . وهناك خاصة نفسية في الطبيعة الانسانية تجعل اهتمام المرء معلقاً أشد التعلق بالاشخاص الذين يقدمهم الكاتب المسرحي في بدء المسرحية ، حتى اذا ماحول الانتباه الى اشخاص جدد يدخلون المشهد فيما بعد ، اصيب المرء بشعور من الخيبة والمسرحي الماهر يبادر الى تقديم موضوعه مااستطاع الى ذلك سبيلا ، واذا اضطر بسبب ضرورات مسرحية ان يؤخر تقديم شخصياته الرئيسية ،فانه يعمد الى تركيز حوار الاشخاص الذين يظهرون عند رفع الستار حول الاشخاص الرئيسيين ،بحيث يستقطب انتباه الجمهور اليهم ويزيد شغفه بلقائهم ، ولم يتبع احد هذا النحو بوعي كامل ، مثلما فعل المسرحي البالغ القدرة وليم شكسبير .

ان صعوبة التحكم في الاهتمام هي التي تجعل كتابة التمثيليات المعروفة باسم تمثيليات الاجواء عملا شاقا ، واحسن هذه التمثيليات طبعا ما كتبه تشيخوف . ومادام الاهتمام غير مركز على شخصين او ثلاثة اشخاص بل على مجموعة ومادام الموضوع هو علاقة الاشخاص بعضهم ببعض وبالبيئة ، فينبغي ان يعنى الكاتب باتقاء الميل الطبيعي لدى الجمهور الى تعليق الاهتمام بشخصية او شخصيتين دون سائر الشخصيات، واذا وزع الاهتمام بين الاشخاص على هذا النحو فقد ينتج عنه عدم تعلق الجمهور بأي من اشخاص التمثيلية ، ومادام المؤلف يجب ان يظل شاعراً بأن اوتار مسرحيته سواء ، في الاهمية مما يزيد في قدرته على اجتذاب انتباه النظارة ، فان كل حادث ينبغي ان يخضع لمفتاح النغمة الواطئة، وهنا يصبح من الصعب وقاية الجمهور من الشعور بنوع من الرتابة ، ويخشى عليه من جهة اخرى ان يحل به اثر انتهاء المسرحية شيء من الفوضى الروحية ،لأن المسرحية لم تتركز بقوة حول امر ما ، شخص او حادثة . وقد اثبتت التجربة ان امثال هذه المسرحيات لاتحوز القبول الا اذا اتقن تمثيلها .

وننتقل الان الى المبدأ الثاني .. فمهما يكن المشهد رائعاً ،ومهما يكن الكلام نافذاً، والفكر عميقاً ، فانه يجب ان يبتر ، اذا لم يكن اساسياً في المسرحية . وهنا يمكن ان تخدم المؤلف ثقافته الادبية، اذ ان الكاتب المسرحي الصرف يعتبر مجرد قدرته على كتابة الكلمات على الورق اعجوبة من الاعاجيب ، وحين يرى هذه الكلمات التي تفتق عنها ذهنه او هبطت عليه من السماء ، ينظر اليها نظرة قدسية ويعز عليه ان يضحي بأي منها ،ومازلت اذكر هنري ارثر جونز وهو يطلعني على احدى مخطوطاته ، ودهشتي اذ لاحظت أن جملة بسيطة مثل : « اتريد سكرا في الشاي ؟ » يؤديها بثلاث طرق مختلفة وليس عجيباً ان يميل الاشخاص الذين يأتيهم الكلام قسرا الى اضفاء اهمية غير عادية على كلامهم . أما الاديب فهو معتاد على الكتابة ، وهو يعرف كيف يعبر عن نفسه دون جهد متكلف ، ولذلك يستطيع ان يقطع كلامه بجزم ، وبالطبع لابد لكل كاتب من ان يقع أحيانا على فكرة تبدو له رائعة جداً ، او قطعة تبعث في نفسه سروراً بالغاً ، مما يجعل حذفها

أصعب من قلع ضرس ، وهنا يجديه كثيراً ان يكون قد نقش في صدره هذا المبدأ :
« اذا استطعت فابتر . »

وهذا المبدأ ضروري اليوم اكثر من اي وقت مضى ، لان الجماهير اليوم اسرع بديهة ، واقل صبرا من كل الجماهير التي عرفها تاريخ المسرح . والمسرحيات تكتب على نمط دون آخر ، لان ذلك يرضي النظارة ، ويبدو ان الجماهير في الماضي كانت ترغب في المشاهد التي احسن سبكها ، وفي سماع الاحاديث التي تعبر عن اشخاص قائليها تعبيراً كاملا . اما اليوم فالامر مختلف جداً ، وقد تسببت السينما في هذا الاختلاف على ما اعتقد.. اليوم ، ترغب الجماهير ، ولاسيما في الاقطار الناطقة بالانكليزية ، ان ترى لب المشهد بسرعة ، لتجاوزه الى المشهد التالي ، وهكذا ، دواليك .. ان الجمهور ما يكاد يلتقط مغزى الحديث من كلمات قليلة حتى يشرد انتباهه ، وعلى المؤلف ان يقاوم ميله الطبيعي الى استيفاء قيمة المشهد او اتاحة الفرصة امام اشخاصه ليعبروا تعبيراً كاملاً عن ذواتهم ، ويحسن به ان يكتفي بالتلميحات التي يدركها الجمهور . وحواره ينبغي ان يكون نوعاً من الاختزال الناطق ، وعليه ان يبتر ويبتر حتى يصل الى ذروة التركيز .

تتم المسرحية نتيجة التعاون بين المؤلف والممثلين والجمهور ، وأحسب أنه ينبغي أن نضيف المخرج في هذه الايام . ولنبدأ بالحديث عن الجمهور

لقد كتب جميع الكتاب العظام مسرحياتهم وعيونهم شاخصة اليه ، ومع أنهم في أغلب الأحوال تحدثوا عنه باحتقار أكثر مما ذكروه بالخير ،فقد كانوا موقنين بأن نجاحهم وقف على استجابته ، فالجمهور هو الذي يدفع المال واذا لم يرض عما يقدم اليه ظل بعيداً عن المسرح .

ان المسرحية لاتوجد بدون جمهور ، والحق انه يمكن تعريف المسرحية بأنها قطعة من الحوار المكتوب ، صممت بحيث ينطق بها ممثلون يصغي اليهم عدد من الأشخاص غير محدود . أما المسرحية التي تكتب ليقرأها المرء في غرفة المطالعة فهي نوع من الرواية اعتمد فيها المؤلف على الحوار وتخلى عن المزايا الطبيعية للأسلوب القصصي لسبب من الأسباب (قد لايبدو واضحاً لمعظمنا) .

والمسرحية التي لاتستجيب لجمهور ما ، قد لاتخلو من مزايا ،ولكنها لاتعد مسرحية إلا إذا عد البغل حصانا (يالأسف ، كل منا - أيها الكتاب المسرحيون - يلد أمثال هذا الانتاج الهجين الناقص) .

وكل من عمل في المسرح يدرك على أي نحو غريب يتقبل الجمهور المسرحية، وقد يرى جمهور النهار من المسرحية غير مايراه جمهور المساء ، ويقال ان الجمهور النرويجي ينظر إلى مسرحيات (إبسن) على أنها مساخر غنية بالضحك ، في حين أن الجمهور الانكليزي لم ير في هذه المسرحيات المتعبة مايضحك . إن انفعال الجمهور واهتمامه وضحكه جزء من

مجرى المسرحية ، له يد طولى في خلقها على نحو ما تخلق حواسنا من المادة الموضوعية جمال الشروق وسكينة البحر .

وليس الجمهور أقل من الممثلين أهمية في المسرحية ، فإذا لم يقم الجمهور بنصيبه المقدر له فان المسرحية تذهب بددا ويضحي المسرحي حينئذ في موقف لاعب التنس الذي يجد نفسه في الملعب وحيداً وليس من ند يلاعبه .

ان الجمهور حيوان شغوف بالاطلاع ، حدته تغلب على ذكائه ، ومقدرته العقلية أقل من مقدرة الافراد راجحي العقل فيه ، واذا صنف هؤلاء الافراد من « الألف الى الياء » بالتتابع حسب درجة ذكائهم ، حتى تكون « الياء » ممثلة لذكاء البائعة الحمقاء فان المقدرة العقلية لهذا الجمهور تحوم حول حرف « الطاء » .

والجمهور شديد قابل للايحاء ، وأفراده يضحكون لنكتة لم يشهدوها لمجرد أن الذين يشهدونها يضحكون .. وهو انفعالي ايضاً ولكنه ينفر غريزيا اذا أحس أن انفعالاته هدف للاثارة ، وهو دائماً مستعد لأن ينصرف عن المسرحية مستهزئاً . وهو رقيق الشعور ، ولكنه لايتقبل الرقة الا وفق مزاجه ، ففي انكلترا يتقبل الانفعالات المتصلة بمفهوم الوطن ، ولكن مفهوم حب الولد لأمه لايثير الا استهزاءه .

وهو لايعبأ بالمحتمل اذا كان الموقف يثير اهتمامه ، وهذه خاصة أسرف شكسبير في استغلالها .. وهو يحزن اذا خلا الموقف من الابداع . والأفراد يعلمون أنهم يخضعون للاندفاع خضوعاً مستمراً ، ولكن الجمهور يصر على أن يكون لكل عمل سبب معقول . وأخلاق النظارة هي متوسط أخلاق المجموع ، وقد يصاب الجمهور بصدمة عاطفية لم تكن لتجرح أيا من أفراده على حدة . انه لايفكر بدماغه بل بشبكة من أهوائه ، وما أسرع مايحل به الضيق .. انه يحب الجدة على شرط ان تتناسب مع استعداداته الفكرية فتثيره دون أن تزعجه ، وهو يحب الأفكار مادامت تصب في قالب درامي على شرط أن يكون لها ظل في نفسه ولكنه لم يعبر عنها لنقص في جرأته . ولن يتجاوب الجمهور اذا أوذي أو صدم .. ان رغبته الاولى هي أن ينال تأكيداً مستمراً بأن مايعرض أمامه حقيقة واقعة

والجماهير لاتختلف في الجوهر ، ولكنها قد ترتفع الى مستويات متفاوتة من الوعي في فترات مختلفة ، في عصر واحد .

ان المسرحية تصور أنماط السلوك والعادات في العصر وتؤثر فيها بدورها ، وكلما تغير السلوك والعادات تبع ذلك تغير أقل في هيكل المسرحية وموضوعاتها ، فاختراع الهاتف مثلا أغنى عن كثير من المشاهد ، وأسرع في خطوات المسرحية ويسر السبيل الى تجنب كثير من المواقف البعيدة الاحتمال . والاحتمال عامل نسبي . انه يعني فقط مايمكن أن يقبله الجمهور وغالباً لاتوجد قاعدة لما يقبله الجمهور ، والناس قد يحيطون بالريبة أو يسمعون عرضاً أشياء لايفترض فيهم أن يسمعوها كما حدث غالباً في العصر الأليزابيثي ، والعرف وحده هو الذي يرد مثل هذه الاحداث بحجة أنها غير محتملة ولكن ماهو أشد أهمية من هذا كله هو التغير الذي طرأ على نفوسنا نظراً للتغير الذي أصاب الحضارة ،حتى أصبحت بعض الموضوعات المحببة الى المسرحيين غير واردة في أيامنا . لقد خمدت شعلة الأخذ بالثأر في نفوسنا وندر أن تنال الاستحسان اليوم مسرحية تكرس لموضوع الانتقام ولعل عواطفنا أصبحت أقل حدة من ذي قبل ،أو لعل تعليمات المسيح قد تغلغلت أخيراً في عقولنا الثخينة ولذلك لم يعد الانتقام مقبولا لدينا . وقد تجرأت مرة على التصريح بأن تحرر المرأة واكتسابها الحرية الجنسية مجدداً قد غيرا آراء الرجال حول أهمية العفة ، حتى لم تعد الغيرة تصلح موضوعاً للمأساة بل للملهاة فقط ، ولكن هذه الملاحظة قوبلت بسخط شديد يحملني على عدم التعرض لها بالتفصيل .

-٣٧-

وقد قدمت هذا التحليل البسيط للجمهور ، لأن طبيعة الجمهور هي أهم ناحية يجب أن يراعيها المؤلف المسرحي في انتاجه . وعلى كل فنان أن يقبل أعراف الفن الذي يطرقه ولكن هذه الأعراف قد تكون من طبيعة تنخفض بسوية العمل الفني ، فقد كان من بين الأعراف الشعرية في القرن الثامن عشر أن تكبح الحماسة ، وأن يخضع الخيال للمعقول ، فأتى شعر ذلك العصر ضعيفاً .

وكذلك على المسرحي أن يراعي الحقيقة التي ذكرناها سابقاًوهي أن عقلية الجمهور عامة أدنى بكثير من عقلية أفراده الأذكياء . وفي رأيي أن هذه الحقيقة كفيلة بأن تخفض من مكانة المسرحية النثرية .

وقد لوحظ مرات ومرات أن المسرح متخلف عن العصر من الوجهة الفكرية أكثر من ثلاثين عاماً ، وأن المثقفين كفوا عن ارتياده بسبب هذا التخلف العقلي ، ويخطر لي أن المثقفين اذ يبحثون عن الفكر في المسرحية فانهم يبدون قسطاً من الذكاء أقل مما ينتظر منهم ، فالفكر أمر خاص نابع عن العقل ، معتمد على قدرة الفرد العقلية وثقافته ، وهو يسلك طريقاً خاصاً من العقل الذي يبدعه الى العقل الذي يتلقاه ، وكما أن ما يلذ لفلان يكون سماً عند آخر ، كذلك ما يعد فكرا عند امرىء قد يكون بديهة عند آخر . والجمهور يتأثر بالرأي الجماعي ويحركه الانفعال . وقد سبق أن عرضت رأيي في أنه اذا صنف أفراد الجمهور من « الألف الى الياء » ابتداء من ناقد (التايمز) مثلا الى بائعة الحلويات فان سويته العقلية تحوم حول (الطاء) وكيف يستطيع المؤلف أن يكتب مسرحية تبرز فيها أهمية الأفكار بحيث تحوز رضى ناقد (التايمز) في مقصورته ، وفي الوقت نفسه تجعل البائعة تنسى الشاب الذي يجلس بجوارها في الصالة ويمسك بيدها ان

الأفكار الوحيدة التي يمكن أن تؤثر في ناقد (التايمز) والبائعة الساذجة حين يلتحمان معاً في هذه الوحدة التي تسمى النظارة هي الأفكار الأساسية المبتذلة التي هي اكثر قرباً الى المشاعر . وهذه الأفكار الجذرية ، أفكار الشعر ، هي الحب والموت ومصير الانسان ، وما من مؤلف مسرحي يستطيع أن يقول في هذه الأفكار مالم يقل ألف مرة من قبل. إن الحقائق الكبرى أجل من أن تكون جديدة . يضاف إلى ذلك أن الأفكار ليست ثمرات شجيرة في متناول الجميع ، والذين يبدعون أفكاراً جديدة في كل جيل ليسوا إلا قلة قليلة . وقلما يجتمع للمسرحي أن يكون ذا موهبة في تنسيق المشاهد وخلق الأحداث وأن يكون في الوقت نفسه مفكراً أصيلاً. ولن يكون المرء مسرحياً إذا لم يتعلق فكره بالمحسوس ، ونظرته النافذة بالمشاهد الواقعية ، ولامجال لأن نتوقع منه ، أن يكون ذا موهبة للتفكير المجرد .. قد ينحو عقله منحى تأمليا فيشغف بما يدور في عصره من قضايا فكرية ولكن الفرق بعيد بين هذا الامر وبين القدرة على التفكير الخلاق .

وربما صح الامر لو أن المسرحيين كانوا فلاسفة ، ولكنهم في الواقع لايقلون عن الملوك بعداً عن الفلسفة ! والمسرحيان الوحيدان اللذان أثبتا جدارة فكرية في عصرناهما (شو) و (ابسن) ، وكلاهما كان محظوظاً بالزمن الذي ظهر فيه .. كان مقدم (ابسن) معاصراً لحركة تحرير المرأة من وضعها السيء الذي تردت فيه زمانا طويلا ، وعاصر (شو) ثورة الشاب على تقاليد العصر الفيكتوري والتزمت الذي كان يلفعه .

وكان بين أيديهما موضوعات جديـــدة بالنسبة للمسرح يمكن أن تعرض عرضاً مسرحياً ذا تأثير . وقد رزق (شو) معنويات عالية ومرحاً صاخباً والمعية وخصباً في الابداع الهزلي .

أما (إبسن) فكان إبداعه ضئيلا وتكررت شخصياته بشكل بليـد تحت أسماء مختلفة ، لم تكن حبكته تختلف كثيراً بين مسرحية واخرى ، وليس من الغلو أن نقول ان طعمه الوحيد هو ان شخصاً غريباً يأتي فجأة الى غرفة عفنة الهواء فيفتح نوافذهـا ، فيموت الجالسون فيها من شدة البرد ، وتكون النهاية تعيسة بالنسبة للجميع ، وحين تمعن

النظر في المحتوى الفكري الذي قدمه هذان المؤلفان لن يفوتك ، الا اذا كنت سيء الثقافة ، أن تدرك أن هذا المحتوى يتألف من الثقافة العامة للعصر . وقد عبر (شو) عن أفكاره بحيوية غامرة اختلبت الباب الناس لأن المقدرة العقلية للجمهور كانت غير معتبرة ، ولكنها لم تعد تخلب الألباب اليوم ، وفي الحق يميل الشباب اليوم الى اعتبارها تهريجاً عفاه الزمن .

ان العيب الذي تسديه « الفكرة » للمسرحية – وخاصة ، ان كانت « فكرة » مقبولة لا اعتراض عليها هو أن الجمهور يتقبلها ، وبذلك تفقد المسرحية مبرر الاسهاب في عرض هذه « الفكرة » وتقديمها .. اذ ليس ماهو أشد ارهاقاً لك في المسرح من ان تستمع ، رغما عنك ، الى التفصيل في فكرة ، أنت في غنى عن التفصيل فيها ، لانك مسلم بها كل التسليم .

والآن وقد أصبح حق المرأة في الاستقلال الشخصي معترفاً به من قبل الجميع، فمن المستحيل الاصغاء الى (بيت الدمية) دون ملل .

ان مسرحيات الافكار تجني على نفسها ، فالمسرحية موقوتة على أي حال ، لانها ترتدي زي زمانها ، والذي يتغير من زمن الى آخر حتى تفقد المسرحية واقعيتها وهي احدى ملامح الفتنة فيها ، ومن المؤسف أن نجعلها اكثر ارتباطا بالزمن وذلك ببنائها على أفكار سرعان ماتؤول الى الذبول . وحين اقول ان المسرحيات موقوتة ، لا أقصد المسرحيات الشعرية – فان أعظم الفنون وأنبلها يمكن أن تفسح مجال الحياة أمام غيرها من الفنون المتواضعة انما أقصد المسرحيات النثرية التي تشغل مسرحنا الحاضر . ولا أعرف أن مسرحية واحدة حية استطاعت أن تسافر عبر قرنين أو نحو ذلك بفعل المصادفة ، وانما هي تبعث بين حين وآخر لأن دورا مشهوراً يغري ممثلا مرموقاً أو منتجاً بحاجة الى فترة من الراحة يقبل على هذه المسرحيات التي تعفيه من دفع أجور للمؤلفين . انها قطع متحفية يضحك الجمهور لما فيها من ألمعية ضحكا مهذبا ، ويضيق بما فيها من تهريج سوقي . انها عاجزة عن حبس أنفاس النظارة واقناعهم ونقلهم الى الجو الوهمي للمسرح .

ولكن مادامت المسرحية موفورة فلماذا لايتساءل المسرحي عن الفارق بينه وبين الصحافي من الطراز الاول الذي يكتب لقراء المجلات الاسبوعيـــة ، ولماذا لايؤلف مسرحيات حول القضايا الرائجة في أيامه من سياسية واجتماعية ؟ وان تكون أفكاره اذ ذاك أكثر أصالة ، ولا أقل ، من أفكار الشبان الجادين الذين يكتبون في تلك المجلات ، بل ليس من سبب لان تكون أقل امتاعاً ،واذا عفا الزمن على المسرحية وبدتأفكارها عتيقة مع مرور الأيام فماذا يضيرها ؟ أليست المسرحية عرضة للموت في أي حـــال ؟ والجواب على هذا السؤال عندي أنـه لامانع مطلقاً من ذلك اذا استطاع الكاتب أن يحسن تدبيرها واذا اقتنع انها تستحق العناء .

ولكن عليه أن يأخذ حذره من النقاد الذين لن يقدموا له من الشكر الا قليلا ، فبالرغم من أنهم يرحبون بمسرحية « الافكار » حين تقدم اليهم ، فسرعان مايستهزئون بها اذا أتت أفكارها مألوفة عندهم ، معتقدين بتواضع أن مايعرفونه انهو الا شائع مبتذل أما اذا كانت الافكار غريبة عنهم فسرعان مايصمونها بالسخف المطلق وينقضون عـــلى المؤلف كما تنقض ألف طوبة . حتى (شو) الذي كان يحمل رخصة مسرحية « الافكار » لم ينج من قرون هذه المعضلة ، وقد ألفت الجمعيات لتنتج مسرحيات يرتادهـا الاشخاص الذين يحتقرون المسرح التجاري ، ولكن هذه الجمعيات تتوارى لأن المثقفين لايمكن اقناعهم برعاية هذه المسرحيات ، واذا اقتنعوا بالذهـاب الى المسرح ودوا لو يعفون من الدفع ، وهناك عدد من المسرحيين يقضون أوقاتهم بكتابـة مسرحيات لاتتبناها الا هذه الجمعيات .

انهم يحاولون ان يقدموا شيئاً لم تخلق المسرحية له ، وما ان يقبل عليهم عدد من الأشخاص في قاعة المسرح حتى يصبح هؤلاء الاشخاص جمهوراً يتعرض لمـا يتعرض له الجمهور من ردود فعل ، رغم أن سويتهم العقلية أعلى من المعتاد ويسيرهم الانفعال اكثر من العقل وينشدون عملا اكثر مما ينشدون جدالا (ولا أعني بالعمل مجرد العمل الجسدي

فمن وجهة النظر المسرحية تعد شكوى احدى الشخصيات من الصداع عملا لايقل عن سقوط شخص من على برج .

وحين تخفق أمثال هذه المسرحيات يدعي مؤلفوها أن مستوى الجمهور لايؤهله لتذوقها . وأحسب أن مسرحياتهم تخفق لأنها لاتحمل قيمة مسرحية . ولا يحسبن امرؤ أن المسرحيات التجارية تنجح لأنها مسرحيات سيئة . نعم ان القصة التي تعرض قد تكون مبتذلة والحوار شائعاً والتشخيص عاديا ومع ذلك تنجح المسرحية لانها تتمتع بمزية اجتذاب الجمهور بواسطة النداء النوعي للدراما . وهذه المزية أساسية رغم أنها تافهة بلا ريب . أما أن هذه المزية ليست الشرط الوحيد في الرواية التجارية فذلك ظاهر في مسرحيات (لوب دوفيجا) و (شيكسبير) و (موليير) .

- ٣٨ -

اذا كنت قد أفضت سابقاً في الكلام على التمثيليات الفكرية فما ذاك الا لأنني أعتقد أن السعي وراء مثل هذه التمثيليات هو السبب في الحالة المزرية الــتي تردى اليها مسرحنا . ان النقاد يلهجون بها ، والنقاد في رأيي أسوأ من يحكم على المسرحية، ذلك لأن المسرحية تتجه الى الجمهور كوحدة ،والتيار المعدي الذي يسري من شخص الى آخر أمامي بالنسبة للمسرحي الذي يهمه أن ينشر العدوى وأن ينتزع الناس من ذواتهم حتى يصبحوا أداة طيعة في يده ، وما يصدر عنهم بعد ذلك من تجاوب أو صوت أو انفعال ان هو الا جزء من المسرحية ، أما الناقد فيشاهد الرواية ليحكم عليها لا ليحس بها ، وعليه أن يظل بمنأى عن العدوى التي تكتسح المجموعة وأن يحافظ على امتلاكه لذاتها ولا ينبغي له أن يسمح لقلبه أن يحوم به بعيداً ، وعلى رأسه أن يبقى مشدوداً على كتفه ، وعليه أن يحترس لكي لايصبح جزءاً من الجمهور .

انه يراقب المسرحية من بعيد ولايندمج بها ، وتكون نتيجة ذلك كله أن الناقد لايرى المسرحية نفسها التي رآها الجمهور لانه لم يشترك في أدائهـا كما فعل الجمهور ، ومن الطبيعي اذ ذاك أن ينشد في المسرحية أموراً أخرى تختلف عما ينشده الجمهور . وليس من سبب لان يجد الناقد ضالته لان المسرحيات لاتكتب للنقاد بل للجمهور أو على الاقل ينبغي لها أن تكون كذلك . ولكن كتاب المسرحيات مرهفو الحس ، وحين يقال لهم ان المسرحيات التي كتبوها اهانة للذكاء الناضج يحل بهم الضيق ويودون لو قدموا شيئاً أفضل ، وهكذا يقدم الناشئون الذين مازالوا يخبون وراء سحب المجد على كتابة تمثيليات « الافكار » وأمامهم مثال (شو) دليل على أن المحاولة مؤتية أكلها وجالبة للشهرة والثروة .

لقد كان تأثير (شو) في المسرح الانكليزي مدمراً . فالجمهور لم يحب مسرحياته

دوماً أكثر مما أحب مسرحيات (ابسن) ، ولكنه بعد أن رأى هذه المسرحيات تضاءل حبه للمسرحيات التي كتبت على الطريقة القديمة ، وأتى أتباع (شو من بعده وحاولوا أن يترسموا خطاه وثبت أن تقليد (شو) مستحيل بالنسبة لمن يفتقر الى مواهبه العظيمة ، وكان أخلصهم موهبة (جرانفيل باركر)فقد أظهرت مشاهد كثيرة في مسرحياته أن لديه استعداداً عظيما ليكون كاتباً جيداً ، فمن موهبة مسرحية ، الى مقدرة على الكتابة السهلة ، الى حوار طبيعي سهل ، الى ادراك للشخصية المسرحية المؤثرة . وقد قاده تأثير (شو) الى أن يلحق أهمية بالافكار التي كانت مبتذلة نوعاً ما ، وأن يفترض ان الالتواء الطبيعي في ذهنه حسنة لها شأنها . ولو لم يقتنع بأن النظارة حمقى ينبغي للكاتب أن يلهب ظهورهم بالسياط ، لا ان يتلطف بهم ، لكان قد تعلم عن طريق المحاولة والخطأ ، كيف يصحح سقطاته ، ولكان أضاف الى مسرح بلاده عدداً من التمثيليات الشعبية الممتازة جداً .

أما مقلدو (برناردشو) الاقل أهمية فلم يفعلوا الا أن ينسخوا مثالبه .

لقد ان (شو) لم ينجح على المسرح لانه كاتب مسرحيات فكرية ، بل لانه مسرحي ، وليس من السبيل الى تقليده ، انه مدين بأصالته الى نمط في التفكير لم يسبق للمسرح أن عبر عنه ، ولكن ليس له قيمة كبرى في حد ذاته ومهما يكن من أمر الانكليز في العصر الاليزابيتي فانهم ليسوا عرقا يؤمن بالحب ، والحب عندهم اقرب الى الشعور الرقيق منه الى العاطفة المتأججـــة ، وهم بالطبع لايفتقرون الى الكفاية الجنسية لحفظ نوعهم ، ولكنهم لايستطيعون أن يتخلصوا من الشعور الداخلي بالاشمئزاز من العملية الجنسية ، وهم أميل الى اعتبار الحب مودة أو احسانا لا عاطفة متأججة ، ويستحسنون مايكتبه الاساتذة في الكتب المدرسية عن سمو الحب ، وينفرون أو يضحكون من التعبير عنه بصراحة . والانكليزية هي اللغة الحديثة الوحيدة التي اضطرت الى أن تستعير كلمة من اللاتينية تتضمن شيئا من الطعن للدلالة على الرجل المولع بزوجته وهي كلمة (Uxorious) كأنما بدا للانكليز أنه لايليق بالرجل أن يكرس نفسه لحب امرأته ، بينما الرجل الذي أفلس في سبيل امرأة يحاط بالاعجاب والعطف في فرنسا ، حيث يشعر الناس أن الامر

يستحق التضحية ، ويحس الرجل الذي يقدم على مثل هذا العمل بشيء من الكبرياء ، أما في انكلترا فهو يعد نفسه ، ويعده الناس أحمق منكودا ، ولعل هذا هو السبب في أن مسرحية (أنطونيو وكليوباترة) كانت دوماً أقل شعبية من سائر مسرحيات شكسبير العظيمة ، وكان النظارة يشعرون بالأسى لان رجلاً أضاع امبر طورية في سبيل امرأة ، وفي الحق لو لم تكن هذه المسرحية مبنية على أسطورة مقبولة لاجمع النظارة على التأكيد بان حدوث مثل هذا الامر لايصدق .

والجمهور قبل (شو) أكره على مشاهدة مسرحيات كان الحب فيها الدافع الاساسي للحوادث ، ولكنه كان يحس بغريزته أن الحب مهما يكن من أمره ، لايستحق تلك الاهمية التي نسبها له المسرحيون ، فهناك أيضاً السياسة و (الجوائف) وتسيير الاعمال وأشياء اخرى كثيرة ذات شأن ، ولذلك أثلج صدر الجمهور أن يستمع لكاتب اعتبر الحب مملا وثانويا وإرضاء للحظة من الاندفاع تعقبه عادة نتائج وخيمة .

وكان في هذا الموقف جانب من الحقيقة كاف لان يؤثر في الناس ، رغم أنه عرض بشيء من المبالغة كما ينبغي أن تعرض الامور على المسرح ، ولا ننس أن (شو) مسرحي ماهر جداً ، وقد وقع هذا الامر موقعاً حسناً لدى (البيوريتانية) ذات الجذور العميقة في العرق الانكليزي على أن الانكليز اذا لم يكونوا مؤمنين بالعشق ، فهم رقيقو الشعور وانفعاليون ، وقد أحسوا أن ماقدمه (شو) لم يكن الحقيقة كلها . وحين أعاد ذلك بعض المسرحيين .. لا لأنه كان كما عند (شو) تعبيراً طبيعياً عن الشخصية بل لانه كان ذا تأثير وجاذبية . فقد انكشف ضيق أفقه ، وأصبح مملا .. إن المؤلف يصف لك عالمه الخاص ، ولن تصغي له الا اذا وافق هوى في نفسك ، وليس من سبب يبيح لك أن تشق على نفسك بتقليد المؤلف دون أصالة ، وهكذا لم يصب خلفاء (شو) في اعادة ماسبق أن أفصح عنه بأقوى عبارة

- ٣٩ -

في رأيي أن المسرحية اتجهت اتجاهاً خاطئاً حين قادها السعي وراء الواقعية الى التجرد من الشعر وهو زينة لها .. ان للشعر قيمة مسرحية نوعية يستطيع أن يدركها أي انسان يلاحظ ماتتركه من أثر مدو في نفسه احدى القطع العظيمة المشهورة من مسرحيات (راسين) أو (شكسبير) ، وهذا الاثر مستقل عن المعنى ، ويعود الى القوة الانفعالية للكلام الموزون ، بل ان الشعر يفرض على المادة شكلا تقليديا يقوي التأثير الجمالي ويمكن المسرحية من اكتساب جمال لاسبيل اليه في المسرحية النثرية ، ومهما أعجبت بـ (البطة البرية) و (أهمية الجد) و (الانسان والانسان الخارق) فانك لن تستطيع أن تصف هذه المسرحيات بأنها (جميلة) دون أن تنال من هذه الكلمة .

ولكن القيمة الحقيقية للشعر هي في أنه ينقذ المسرحية من الواقعية الرصينة ويضعها في مستوى آخر على شيء من البعد عن الحيـــاة ، وبذلك يسهل للنظارة أن يندمجوا بأنفسهم في ذلك الجو الشعوري الذي يحسون فيه أرهف استجابة للنداء النوعي للمسرحية وبهذه الوسيلة الاصطناعية لاتكون المسرحية ترجمة حرفية دقيقة للحياة بل نقلا حراً يمكن المسرحي من التشديد على النواحي التي تلائم امـــكانات فنه ، لان المسرحية تعتمد على الايهام والتأثير ، لا على الواقع ، وتحتاج الى ذلك التشويق القائم على الشك الذي تحدث عنه (كولردج) .

ان أهمية الحقيقة عند القاص هي أنها تزيد من شغف القارىء ، ولكنها عند المسرحي مرتبطة بالاحتمال ، محدودة بقناعة النظارة ، فاذا صدقوا ان رجلا يشك في اخلاص زوجه لأن امرأ أخبره أنه وجد منديلها في حوزة رجل آخر ، فهذا على علاتـه يصلح دافعاً كافياً للغيرة ، واذا صدقوا أن عشاء حافلا بستة أصناف يمكن ان يلتهم في عشر

دقائق كيفما اتفق فللمسرحي أن يعتمد على قناعتهم هذه وأن يمضي في مسرحيته . ولكن المسرحي يسلب قسما عظيما من مصادره حين يطلب اليه ان يقدم واقعاً أعظم بكثير مما سبق ، ان في الدوافع ، او في الاحداث ، وان ينسخ الحياة نسخاً دون ان يوشيها بالمرح أو بالرومانتيكية ،وعليه اذ ذاك ان يطرح كلام الممثلين الجانبي ، لان الناس لايتكلمون مع انفسهم بصوت عال ، وليس له ان يرصد الحوادث التي تمكنه من جعل العمـــل المسرحي متلاحقاً متسارعاً بل عليه أن يترك الحوادث تنساق عن قصـد كما تنساق في الواقع ، وينبغي له ان يهجر المصادفة والاحداث العارضة لان الامور لاتجري (كما نعلم في المسرح) على هذا النحو . وقد أثبتت التجربة ان الواقعية غالباً ما تنتج مسرحيات بليدة باهتة .

وحين بدأت السينما الناطقة ، انهار كل دفاع عن المسرحية النثرية ، فالسينما تستطيع ان تقدم العمل المسرحي بطريقة اشد تأثيراً . وقد وفرت الشاشة ذلك الجو المصطنـع الذي سبق للشعر ان ولده في المسرح ، مما أوجد مقياساً جديداً للاحتمال مقبولاً ، اذا استطاع ان يخلق المواقف . وكذلك اعطت الشاشة فرصة لكل نمط من أنماط الرواية ، وقدمت من المشاهد الدرامية او المبهجة ما كان خليقاً ان يحرك الجمهور ويثير انفعاله . وكان على كتاب المسرحية الفكرية ان يقتنعوا رغم انوفهم ، بأن الطبقة الذكية التي كتبوا لها لم يعد لها اهتمام بمسرحياتهم ، لانها اخذت تزأر بالضحك في الروايات الهزلية ، وتتمرغ في أهوال المشاهد السينمائية ، وكانت النتيجة انهم عادوا فأذعنوا للجو الذي شق على المسرحية ان تفقده واستسلموا لشيطان الايهام الذي استطاع ان يجتذب النظـــارة الذين رأوا لاول مرة مسرحيات (لوب دو فيجا) و (وليم شكسبير) .

لقد تجنبت دائماً دور المتنبيء ، وتركت للآخرين مهمة اصلاح زملائي . على أنني لا استطيع الا أن أقر بأن المسرحية النثرية التي وهبتها جانباً من حياتي آيلة الى الزوال .

إن الفنون الجانبية المعتمدة على السلوك والعادات في عصر ما ، لا على الحاجات الانسانية الجذرية ، هذه الفنون تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر . فالاغنية الغراميـــة

(المادريغال) كانت يوماً ما وسيلة شائعة للتسلية الموسيقية ، وكان الكتاب يتسابقون الى أدائها ، ثم انكمشت حين اخترعت الآلات الموسيقية التي استطاعت أن تولد بصورة أجمل التأثيرات الخاصة التي حاولت هذه الاغنية ان تولدها ، وليس من سبب يقي المسرحية النثرية من معاناة المصير نفسه . ورب قائل يقول : ان الشاشة لا تستطيع ان تعطي الهزه العاطفية التي يشعر بها الانسان حين يرى أمامه شخصاً من لحم ودم (على المسرح) وربما قيل قديماً ان الأوتار والخشب لا تستطيع ان تولد الطبيعة المرهفة للصوت الانساني في (المادريغال) ، وقد أثبتت الوقائع بطلان هذه الادعاءات .

واحب أن اصر على ان المسرحية ينبغي ان تكف عن أداء ما يمكن أن تؤديه السينما بطريقة أفضل ، اذا ارادت ان تتيح لنفسها فرصة البقاء .

وقد ضل الطريق أولئك المسرحيون الذين حاولوا ان يولدوا عن طريق تكديس المشاهد القصيرة ، ماتقدمه السينما من عمل سريع واوضاع منوعة .

ويخطر لي ان المسرحي يحسن صنعا في هذه الايام لو عاد الى اصول المسرحية الحديثة واستعان بالشعر والرقص والموسيقى والاستعراض حتى يستطيع ان يوفر كل ضروب الامتناع الممكنة .

ولكنني واثق ان السينما بامكاناتها الضخمة تستطيع ان تؤدي بصورة افضل كل مايمكن ان يؤديه المسرح الناطق ، وبالطبع تتطلب المسرحية التي ذكرنا أن يكون كاتبها شاعراً ايضا . وربما كانت فرصة أفضل المسرحي الواقعي اليوم ، هي ان يشغل نفسه بالامور التي عجزت السينما حتى اليوم عن ادائها اداء جيداً ، اعني المسرحية التي تعتمد على العمل الداخلي لا الخارجي ، وملهاة البديهة الذكية ، لان شاشة السينما تتطلب عمـلاً جسديا ، وتتضاءل فيها قيمة الانفعال الذي لايمكن ان يترجم الى فعل ، والمرح الذي يعتمد على العقل ، وقد يتاح لمثل هذه المسرحيات ان تلقي قبولا في فترات زمنية محدودة .

وفي حقل الملهاة ينبغي ان نقرر ان نشدان الواقعية ليس له مايبرره ، لان الملهاة عمل اصطناعي لايفترض فيه ان يكون طبيعيا في جوهره ، بل يكفي ان يظهر بمظهر طبيعي . والضحك في الملهاة غاية لاوسيلة .

وليس هدف كاتب المسرحية اليوم ان يقدم الواقع كما هو (وهذا عمل مأساوي) ولكن ان يعلق على الواقع بطريقة لاذعة مسلية ويبغي ان لا تتاح الفرصة للنظارة كي يتساءلوا : هل تحدث مثل هـذه الامور ؟ بل عليهم ان يكتفوا بالضحك . وعلى كاتب الملهاة اليوم اكثر من اي وقت مضى ان يعتمد على التشويق القائم على التشكيك ، وهكذا يكون النقاد على غير حق حين يشكون من هبوط ملهاة بين حين وآخر الى مستوى الملهاة العامية . وقد اثبتت التجربة استحالة الاحتفاظ بانتباه الجمهور طوال فصول ثلاثة من الهزل الخالص ، لان الملهاة تستجيب للعقل الجماعي للنظارة ، وهذا العقل عرضة للتعب ، بينما تتجه الملهاة الى عضو اقوى هو بطنهم الجماعي ان كتاب الملهاة العظام مثل شكسبير وموليير وبرناردشو لم يترفعوا عن الملهاة العامية ، ودماء الحياة هي التي تجعل جسم الملهـاة نابضاً بالحياة والحركة .

هذه الافكار التي كانت تطوف في مخيلتي اخذت تضعف من قناعتي بالمسرح شيئاً فشيئاً حتى قررت اخيراً ان انفض يدي منه ، وساعدني على اتخاذ هذا القرار انني لم ارتح قط للتعاون الذي تتطلبه المسرحية ، باعتبارها انتاجا فنيا يحتاج الى جهد جماعي كما سبق ان بينت . وهكذا اخذت اعاني من صعوبة الانسجام في العمل مع شركائي في المسرحية.

وكثيراً مايقال ان الممثلين الاكفاء يستطيعون ان يعطوا المسرحية من القيمة اكثر مما اعطاها المؤلف ، وهذا باطل ، لان الممثل الكفء يعطي المسرحية بفضل موهبته قيمة لايتاح للرجل العادي ان يدركها بالقراءة .. ولكن الممثل لايستطيع ، على غلوائه ، ان يصل الى ابعد من المثال الذي يضعه مؤلف الرواية نصب عينيه ، فاذا بلغ هذا الحد فهو ممثل رفيع القدر ، لان المؤلف عادة مكره على الاكتفاء بأداء قريب جداً من الاداء المثالي الذي يتصوره . وفي جميع مسرحياتي حالفني الحظ بممثلين أدوا بعض الادوار وفق رغبتي ، ولكن لم يحدث في أي منها ان مثلت كل الادوار وفق ماأشتهي وهذا امر محتوم لان الممثل الذي خلق لدور معين قد يكون مشغولاً وعلينا ان نكلف ، مكرهين من هو أدنى منه درجة .

ويعرف كل من عمل في توزيع الادوار بالمسرح في السنوات الاخيرة ان المنافسة في نيويورك واغراء السينما في كل من انكلترا وامريكا جعلا قضية اختيار الممثل المناسب للدور المناسب اصعب من اي وقت مضى ، واخذ المنتجون يقدمون المرة تلو المرة على استخدام ممثلين ، يعرفون انهم متوسطو القدرة ، لانهم لايجدون خيرا منهم .

وهناك صعوبة اخرى هي قضية الاجور . فالادوار القصيرة غالباً ماتحتاج الى أداء ماهر ولكنها من زاوية الانتاج تستحق اجراً محدوداً مما يحول دون استخدام الممثل

المناسب ذي الخبرة الكافية ، وهكذا يؤدي الدور اداء ناقصا ويختل التوازن في المسرحية ، وقد يهدر مشهد له قيمة محددة لانه مثل تمثيلا غير صحيح . وقد يحدث ان يرفض الممثل دوراً مناسباً بحجة انه صغير او خال من التعاطف .

وفي كل ماذكرت لا أرمي الى التقليل من امتناني للممثلين البارزين والممثلات البارزات ممن يعود اليهم الفضل في النجاح الذي اصابه عدد من مسرحياتي . وقائمة اولئك الذين حققوا آمالي طويلة جداً لا استطيع ان اسردها مخافة الاملال ، ولكن هناك ممثلاً اود ان انوه به لانه لم يصل الى مرتبة النجم ولم ينل من الاعتراف بالجميل مايستحقه ، ذلك هو (س . ف . فرانس) الذي مثل في كثير من مسرحياتي ولم يلعب دوراً الا انتزع به الاعجاب ، وقد مثل الشخصيات في أدق التفاصيل التي دارت في مخيلتي ، ومن الصعب ان تعثر في المسرح الانكليزي على ممثل اكبر لباقة وأجدر وأذكى منه . ومن جهة اخرى شهدت كثيراً من مسرحياتي تمثل فلا يرى فيها النظارة ماأردت لهم ان يروه .

والاخطاء في توزيع الادوار ، ولاسيما حين نحدث مع ممثلين مشهورين ، لاسبيل الى اصلاحها ، وعلى المؤلف اذ ذاك ان يعاني من وطأة الحكم عليه لمجرد ان مقاصده اسيء تمثيلها وليس في المسرحية اي مشهد يتمتع بحصانة ضد تشويه التمثيل .

وهناك ادوار مؤثرة وادوار اخرى غير مؤثرة رغم اهميتها ، ولكن الدور مهما كان مؤثراً لاتظهر قيمته للجمهور الا اذا مثل تمثيلا متقنا ان امرح الكلام لايمكن ان يكون مرحا الا اذا قيل بطريقة صحيحة ، والمشهد مهما كان ناعماً يظل عرضة لان تهدر قيمته اذا ادي بغير نعومة .

وهناك وهدة اخرى قد يحفرها الممثلون للمؤلف ، ولكنها غير معروفة تماماً ومن الصعب تفاديها بسبب الاسلوب المتبع في اختيار الممثلين للادوار . ان المؤلف يبدع الشخصية ثم يختار الممثل لانه حائز على الصفات التي يبتغيها المؤلف ، وعند التمثيل تجتمع الصفات التي رسمها المؤلف مع بنية الممثل العقلية لتنتج مبالغة سخيفة ، والشخص الذي اخترعه المؤلف ليكون طبيعيا ومعجبا يصبح مغالاة مسفة . وقد حاولت كثيرا ان

اعطي بعض الممثلين ادوارا تناقض طبيعتهم ، ولا اعلم ان هذه المحاولة اصابت نجاحا ، انها تحتاج الى قـدرة على التكيف تفوق مايستطيعه الممثلون المحدثون . وقد تكون افضل طريقة لتفادي هذه الوحدة هي ان يكتب المؤلفون فصول المسرحية ويرسموا حدوداً خفيفة للشخصيات تاركين الممثلين مجال التصرف الفردي . وهنا ينبغي ان يتأكد المؤلف من وجود الممثل الذي يمكن ان ينهض بهذا العبء .

ان المبالغة من هذا النوع والخطأ في توزيع الادوار - وهما محتومان احيانا - يؤديان الى تشويه مقاصد الكاتب التي كثيرا مايشوهها المخرج ايضاً . وحين بدأت أكتب الى المسرح كان المخرجون ينظرون الى مهمتهم نظرة اكثر تواضعاً مما يفعله مخرجو اليوم ، فقد قصروا مهمتهم على حذف ماقد ينصرف اليه المؤلف من اطالة ، وكذلك اخفاء اخطائه في البناء المسرحي بحسن تصرفهم ، وكانوا ينظمون اوضاع الممثلين ويساعدونهم على ان يؤدوا ادوارهم خير اداء واعتقد ان (راينهارت) هو اول من جعل للمخرج نصيباً راجحاً في هذا العمل المسرحي المشترك ، واقتفى اثره مخرجون كانوا يفتقرون الى موهبته ، ووقر في الاذهان الادعاء بأن مخطوطة المؤلف ليست اكثر من عربة يستخدمها المخرج لنقل افكاره ، حتى وجدت اكثر من مرة شواهد على مخرجين تصوروا انهم كتاب مسرحيات وقد اخبرني (جيرالد دي موريه) نفسه ، وهو مخرج جيد ، انه لم يكن يقبل على اخراج مسرحية لايستطيع ان يعيد كتابتها جزئيا . وهذه حالة متطرفة الا انه اصبح من الصعب جداً العثور على مخرج يقنع بفهم مسرحية المؤلف ، لان المخرج في الاغلب اخذ ينظر الى المسرحية على انها فرصة لخلق جديد من إبداعه . ان الجمهور لابد ان يصاب بالدهشة اذا ادرك الى اي مدى يساء تمثيل افكار الكاتب بسبب العناد الغبي عند المخرجين ، وكم من مواقف عامية غثة يلام الكاتب بسببها بدلاً من ان يلام المخرج . ان المخرج رجل افكار ولكن ماأقل افكاره ، وهنا المصيبة ان تصور الافكار امر منعش ولكنه يظل سلبيا مادام المرء قادراً على تصور الكثير من الافكار وبذلك لايعزو أهمية كبرى لافكاره ويستطيع تقديرها حق قدرها . اما اذا كانت افكاره محدودة فيصعب

عليه ان ينظر اليها الا باحترام غير عادي . فالمخرج الذي ينحصر تفكيره في قطعة من الحوار او في بعض شؤون العمل او في بعض المؤثرات الجانبية لابد من ان يلحق بهذه الامور اهمية عظمى حتى يندفع مبتهجا الى شل العمل المسرحي او تشويه المعنى من اجل تحقيقها.

وغالباً مايكون المخرج مغروراً معتداً بنفسه قاصر الخيال، وهو في بعض الاحيان حاكم فرد يكره الممثلين على اداء نبراته وتصرفاته ، والممثلون لايستطيعون الا ان يذعنوا لارادته اما طمعاً بالحصول على الادوار الجيدة التي يمنيهم بها او رغبة في كسب رضاه ، وتكون النتيجة ان الممثل يفقد كل بداهة في الاداء .

ان احسن المخرجين هو أقلهم تدخلا

وقد اسعدني الحظ ، بين حين وآخر ، بمخرجين كانوا مهتمين باخلاص ان يبذلوا جهدهم ضمن حدود المسرحية ، حريصين على تنفيذ رغباتي ، على انه من الصعب ان يدخل انسان الى عقل آخر ، واكثر المخرجين تعاطفا لايستطيع ان يقدم اكثر من ظل لمقاصد الكاتب ، واعتقد انه يعطي النظارة دائماً اشياء يمكن ان تحظى بحبهم اكثر مما تحظى به مقاصد الكاتب الاصلية ، ولكن هذا ليس من هدف الكاتب في شيء .

وعلاج هذه المسألة طبعاً ان يقوم الكاتب باخراج مسرحيته . وما اقل من يستطيع ذلك من الكتاب ، اللهم الا من كان قبل ممثلا ، اذ لايكفي ان تكون قادراً على ابلاغ الممثل ان هذه النبرة او تلك الاشارة خطأ ، بل عليك ان تريه بالقول والفعل ماهو الصحيح ، وهذا الامر ضروري اليوم اكثر من اي وقت مضى ، لان ممثلي الادوار الصغرى ليست لديهم مهارة فنية كافية ، وقد اعتاد (جيرالد دى موربيه) ان يفعل ذلك بطريقة رادعة ناجعة وهي ان يقلد تقليداً ساخراً اداء الممثل لشيء ما، ثم يريه الطريقة الصحيحة ، واستطاع ان يفعل ذلك لانه كان مهرجاً ناجحاً وممثلا ناجحاً ، ولكن هذه المسألة بسيطة بالنسبة لمهمات الاخراج .

ان الاخراج عمل معقد .. انه عمل ، او اقل انه فن قائم بذاته لايكتسب الا بالدأب فعلى المخرج ان يعالج النواحي الآلية في المسرحية كالدخول والخروج والمواقف المعينة

للشخصيات المختلفة بحيث يكون تجمعهم لائقاً ويتوزعون بطريقة تجعل توجيه انظار الجمهور اليهم في الوقت المناسب ممكناً وسهلاً ، وهو يلقي بالاً الى الخصائص الفردية لكل ممثل ويسهل له سبيل التخلص وحسن التصرف اذا طلب اليه ان يؤدي عملاً ليس في مقدوره ، وعلى المخرج ان يدرك خصائص الممثلين عامة فلا يعطي مثلاً اي ممثل انكليزي كلاماً يتجاوز العشرين سطراً مخافة ان يعود اليه وعيه لنفسه اذ ذاك ، وعليه ان يتدبر الوسائل الكفيلة بتمكين الممثلين من التغلب على ضعف الثقة بالنفس ، وعليه ان يوجه اهتمام النظارة الى النقاط الرئيسية في المسرحية ، ويحتال لجعلهم يتحملون المقاطع البليدة التي تفرضها الضرورة عند العرض او الوصل ، وكذلك المقدمات التي تسبق الاحداث المسرحية ، وهي امور لا تستطيع اية مسرحية ان تتجنبها .

وعلى المخرج ايضاً ان يحسب حساباً لانتباه النظارة الذي لا يستقر ويحتفظ به عند النقاط الحساسة بتدبير من احكام العمل ، وان يحسب حساباً لرهافة الحس والحسد والغرور عند الممثلين ، ويحرص على ان لا تخل الانانية الطبيعية بتوازن المسرحية وان يعمل على اعطاء كل دور قيمته الصحيحة فلا يسمح لأي ممثل ان يجور على زميله ليزيد من اهمية دوره ، وهو الذي يقرر متى يسير العمل بسرعة ومتى يسير ببطء ، ومتى ينبغي التأكيد ومتى ينبغي الاقتضاب ، ومتى يكون الهزل ومتى يكون الجد ، وهو الذي ينظم الاوضاع بحيث تكون عملية ومناسبة للأداء المسرحي ، وهو الذي يختار الثياب الملائمة للأدوار ويرقب باحتراس الممثلات اللواتي يفضلن ان يكن جميلات اللباس على ان يظهرن بالمظهر اللائق . وهو يهتم كذلك بالاضاءة

ان الاخراج عمل او فن يحتاج الى معرفة فنية ونظام دقيق ، ويحتاج كذلك الى المهارة والصبر ولطف المزاج والثبات والمرونة .

اما انا فقد كنت واعياً تماماً انني لا املك شيئاً من المعرفة الفنية ، ولا اتمتع الا بقليل من الصفات التي تلزم لاخراج مسرحية . وقد اعاقني عن ممارسة الاخراج ايضاً لعثمة في لساني وحادث آخر عانيت منه ، اذ بعد ان كتبت احدى مسرحياتي وانهيت تصحيح مسوداتها ، فقدت كل اهتمام لي بها ، وقد كنت قبل اتطلع بشغف الى يوم تمثيلها

ولكن بعد ان سلمتها الى الآخرين لم أعد استطيع ان انظر اليها نظرة المرء الاليفة الى شيء يخصه ، تماماً ، كمثل الكاتبة تكف عن الاهتمام بمصير جرائها حين تسلمها الى الآخرين. وقد وجه الي اللوم مراراً بسبب خضوعي السهل للمخرجين وقبولي آراءهم حين تتعارض مع آرائي ، وتأويل ذلك انني دأبت دوماً على الاعتقاد بأن معـــارف الآخرين تفوق معارفي ، ولم اكن احب النزاع الا حين اخرج عن طوري ، ونادراً ما كان يحدث ذلك واخيراً لم اكن شديد الحرص على شيء ولم تكن ضآلة كفاية المخرجين احيانا هي السبب الذي اذكى اشمئزازي المستمر من المسرح ، بل ضرورة وجود المخرجين اطلاقاً .



ولنعد الى الجمهور.. ان اول مايخطر لي هنا أنه لايليق بي ابداً ان اشعر بغير الاعتراف بالجميل للجمهور الذي منحني الشهرة على الاقل – ان لم اقل السمعة الطيبة ـ وحباني ثروة امكنتني من ان اعيش في المستوى نفسه الذي عاشه ابي من قبلي. ولقد تجولت في البلدان واقتنيت منزلاً مطلاً على البحر هادئاً منعزلاً فيه غرف واسعة وحوله بستان لائق ،وقد أيقنت دائماً ان الحياة اقصر من ان يقضيها الانسان في عمل أمور يستطيع ان يكلف غيره القيام بها مقابل المال ، ويسرت لي ثروتي متعة التفرغ للقيام بالاعمال التي لا يستطيع غيري ان ينوب عني فيها . واستطعت ان ارعى اصدقائي وان اساعد من شئت مساعدته . انني مدين بكل ذلك الى معروف الجمهور . على انني مع الايام لم اعد اطيق صبراً على تلك الفئة من الجمهور التي تؤلف نظارة المسرح . وسبق ان ذكرت انني اشعر بضيق غريب عند مشاهدة احدى مسرحياتي ، وبدلاً من ان يتضاءل هذا الضيق مع كل مسرحية جديدة لي فقد اخذ يتفاقم خلافاً لما توقعته .. ان شعوري بوجود هذه الجمهرة من الناس التي تشاهد مسرحيتي اصبح مصدر رعب ونفور لي ، حتى وجدتني أتجنب المرور في الشارع الذي يتفق ان تمثل فيه احدى مسرحياتي .

وانتهيت منذ زمن بعيد الى ان المسرحية غير الناجحة ليس فيها مايلفت النظر ، واحسبني عرفت حق المعرفة كيف اكتب المسرحية الناجحة ، اي عرفت مايمكن ان يتوقعه الكاتب من الجمهور ،ولم اكن استطيع الاستمرار بدون مشاركة الجمهور ،وعرفت الى اي مدى يمكن ان تصل هذه المشاركة . لقد اخذت مع الايام اضيق ذرعاً بهذا الامر فعلى الكاتب المسرحي ان يكون شريك الجمهور في استعداداته العقلية كما كان شكسبير ولوب دوفيجا ، ولن يستطيع مهما بلغت به الجرأة ان يفعل اكثر من ان يصب في كلماته

تلك المعاني التي اكتفى الجمهور بالشعور بها ولم يقو على النطق بها بسبب الجبن او الكسل واتعبني ان اصرح بنصف الحقيقة فقط لان الجمهور لايتقبل اكثر من ذلك . وضقت ذرعا بالسخف الذي كان يجيز في الحديث ذكر مختلف انواع الحقائق ويتنصل منها في المسرح ، وانهكتني ضرورة تكييف الموضوع ضمن نطاق معين باطالته او بتقصيره الى ابعاد غير مقبولة لان المسرحية لاتجذب الجمهور الا اذا كانت ذات طول محدود . وضايقتني محاولتي الدائبة لتجنب مضايقة الآخرين ، والحق انني لم اعد ارغب في مراعاة الاعراف الضرورية للمسرح ، واخذت ارتاب في مدى تجاوب ذوقي مع أذواق الجمهور ، ولكي أتحقق من ذلك قصدت عدداً من المسرحيات التي كانت تمثل في المدينة فوجدتها مملة ولم استطع ان اضحك للنكات التي سرت الجمهور المبتهج ، اما المشاهد التي استدرت الدموع فقد تركتني كالصخر الاصم .. وهكذا انتهيت الى قرار حاسم .

ثم صبوت الى حرية القصص وامتدت ابصاري بارتياح الى القارىء المتوحد الذي يرغب في الاصغاء الى كل ما أقوله ، والذي استطيع ان اخلق من الالفة بيني وبينه مالم استطع ان احلم به في جو المسرح الصاخب .

لقد عرفت في حياتي كتاباً مسرحيين امتد بهم العمر بعد ان نالوا الشهرة، واشفقت عليهم اذ شهدتهم منكبين على كتابة مسرحياتهم دون ادنى شعور بتغير الزمن من حولهم ، ورأيت آخرين يحاولون يائسين أن يلحقوا بركب الزمن ولكنهم يصابون بالاسى والمرارة حين تقابل جهودهم بالهزء ، ورأيت مؤلفين مشهورين يعاملون باحتقار اذ يقدمون مسرحيات الى منتجين سبق لهم ان غمروهم بالعقود ، وسمعت تعليقات الممثلين المستهزئة بهم ، واتيح لي ان اشهد حيرتهم ودهشتهم ومرارتهم حين كانوا يدركون اخيراً ان الجمهور نفض يده منهم . وسمعت كلا من (آرثر بنرو) و(هنري آرثرجونز) وهما اللذان نالا شهرة عظيمة في زمانها يقولان بالحرف الواحد « انهم ماعادوا يريدونني بعد الآن » .

قالها الاول بتهكم مر جارح وقالها الثاني بخور حائر . وقررت اذ ذاك ان اغادر كريما قبل أن يفلت مني الزمام .

على أنه ظل في رأسي بضع مسرحيات .. اثنتان أو ثلاث منها لم تكن اكثر من مشروعات غامضة وددت لو أتخلى عنها .. واربع كانت تطن في مخيلتي جاهزة للكتابة ، وكنت واثقاً انها لن تكف عن اثارتي الى ان اكتبها ، وقد قضيت سنوات عديدة افكر في هذه المسرحيات ، ولم أحرك ساكناً بالنسبة لهـا لاني خشيت ان لا تلقى القبول . كنت دائماً اكره ان اسبب الخسارة للمنتجين . ربما بسبب غرائزي البرجوازية ، وبوجه عام لم يحدث شيء من ذلك ومن المعروف ان المسرحيات الصالحة للانتاج لا يصيب الربح منها الا واحدة من كل أربع ، أما النسبة لمسرحياتي فلست ابالغ اذا قلت إن الامر كان معكوساً . ثم توافرت على كتابة مسرحياتي الاربع على النحو الذي توقعت ان يزيد من حظها في النجاح . ولم أشأ ان افسد سمعتي عند الجمهـور قبل ان اتخلى عن المسرح نهائيا . وادهشتني المسرحيتان الاوليان بما اصابتاه من نجاح مرموق ، امـا الاخريان فقد كان نجاحها ضمن الحدود التي توقعتها . وسأتكلم على واحدة منهـا وهي (اللهب المقدس) لاني خضت فيها تجربة قد يعتقد البعض من قرائي أنهـا جديرة ببضع دقائق من البحث . لقد جربت في هذه المسرحية ان اكتب حواراً اكثر شكلية ممـا جرت عليه عادتي . وكنت أنجزت اول مسرحية كاملة لي سنة ١٨٩٨ ، وآخر مسرحية سنة ١٩٣٣ وفي أثناء هذه المدة شهدت الحوار يتغير من كلام متحذلق صلب عند (بنرو) ومن صناعة متأنقة عند (أوسكار وايلد) الى العامية المتطرفة في هذه الايام ، ثم ان نشدان الواقعية قاد المسرحيين الى طبيعية في الاسلوب اخذت تزداد يوماً فيوماً ، وبلغ بها (نويل كوارد) اقصى الحدود كما نعلم ولم يكتف كتاب المسرح بتجنب العبارة الادبية بل أسرفوا في السعي وراء تقليد الواقع حتى طرحوا القواعد اللغوية جانبـا واوردوا الجمل محطمة بحجة ان الناس في الحياة اليومية لا يراعون قواعد اللغة ويتكلمون جملا ناقصة مضطربة ، واستعمل الكتاب كذلك أبسط المفردات واكثرها شيوعا، وكان الحوار مصحوبا بهز الكتفين وتحريك اليدين والايماء . وفي رأيي ان المسرحيين جنوا على انفسهم باتباع هذه البدعة لان هذا الكلام العامي المضطرب الذي اعتمدوا عليه ليس

الا لغة طبقة معينة ، طبقة الموسرين الشباب الذين لم ينالوا حظاً من التعليم حسنا والذين تسميهم الصحف اهل المجتمع وتغص باخبارهم اعمدة القيل والقال في الجرائد وفي صفحات الاسبوعية المصورة . وقد يكون صحيحاً ان الانكليز قوم معقودو الالسنة ، ولكنني اعتقد ان هذه الصفة قائمة على المبالغة ، وفي انكلترا اعداد ضخمة من الناس من مختلف المهن ومن النساء المثقفات ، وهؤلاء يحرصون على تقديم افكارهم بلغة فصيحة منتقاة ويستطيعون ان يقولوا ما يشاؤون في كلمات صحيحة يحسنون سبكها في عبارات لائقة راقية . والبدعة الشائعة اليوم تسيء تمثيل الحقيقه وتشوهها اذ تكره القاضي و الطبيب المرموق ان يعبرا عن افكارهما تعبيراً مخلا على نحو ما يفعل متسكعو الحمارات ، ونتج عن ذلك ان ضاق نطاق الشخصيات التي يستطيع الكاتب المسرحي معالجتها لان الكلام هو وسيلته لتقديمها ، ومن المستحيل تصوير اناس ذوي عقل سليم وعاطفة مرهفة بحوار لايبدو ان يكون من الهيروغليفية الناطقة ثم ان الكاتب اخذ يميل دون وعي الى اختيار الشخصيات التي تتكلم بصورة طبيعية على النحو الذي اعتاد الجمهور ان يعتبره طبيعيا وهذه الشخصيات تكون حتما بسيطة وواضحة ، يضاف الى ذلك ان الموضوعات نفسها اصبحت محدودة مادام الكاتب لا يستطيع ان يعالج القضايا الاساسية للحياة الانسانية ويستحيل عليه ان يحلل عقد الطبيعة الانسانية ـ وهما موضوعان مسرحيان ـ حين يقيد نفسه بهذا الحوار المسرف في تقليد الطبيعة .

ان هذه الطريقة قضت على المسرحية التي تعتمد على النباهة الكلامية ، التي تعتمد بدورها على العبارة المسبوكة سبكا ذكياً ، وهكذا دق مسمار آخر في نعش المسرحية النثرية .

في (اللهب المقدس) حاولت ان لا ادع شخصياتي تتكلم على نحو ما تتكلم في الحياة اليومية بل جعلتها تتكلم بطريقة اكثر شكلية ، واستعملت العبارات التي يجدر بالشخصيات ان تستعملها لو أتيح لها ان تهيء كلامها مسبقاً وان تعرف كيف تصب ما تريد قوله في لغة دقيقة مختارة ، ولعلي لم احسن اتقان هذه الطريقة فقد وجدت أثناء

المراجعات ان الممثلين ممن لم يعتادوا على هذه الطريقة ، كان يخامرهم شعور غير مريح ، كأنما هم يؤدون قطع استظهار ، واضطررت اثر ذلك الى تحطيم جملي ، ولكنني تركت منها ما يكفي لاعطاء النقاد مبررات لمهاجمتي !! وقد وجه الي اللوم في عدة مجالات بحجة ان لغتي أدبية ، وقيل لي ان الناس لا يتكلمون على هذا النحو وهو أمـــر ما كنت لاجهله . ولكنني لم أصر على موقفي وكنت بمستأجر دار اوشكت مدته ان تنفذ ، وليس ثمة ما يعنيه كي يحدث تغييرات في البناء . وفي مسرحيتي الاخيرتين عدت الى الحوار المسرف في تقليد الطبيعة كما كنت أفعل سابقاً .

واذا قدر لك أن تقضي اربعة ايام مخترقا شعـــابا جبلية ، فستأتي عليك لحظة تكون فيها متأكداً من انك ستفضي الى السهل ما ان تتخطى الكتلة الصخرية الماثلة امامك ، ولكنك تواجه بدلا من ذلك شعباً جديدا يستنفد قواك كرة أخرى ، ثم تصبح على يقين من أنك سترى السهل توا . كلا ان الشعب يفضي بك الى جبل جديد يعترض طريقك ، وفجأة ينبسط السهل امامك فينتعش فؤادك ، انه سهل فسيح مشمس يزيح عن كاهلك عناء الجبل ، ويقدم لانفاسك الهواء سائغاً ويغمرك بشعور عجيب بالحرية . وهذا ما كان عليه شعوري بعد أن انجزت مسرحيتي الاخيرة ، ولم أستطع ان اطمئن الى انني تحررت من المسرح نهائيا لان المؤلف عبد لما يمكن أن اسميه بالالهام ، وهي كلمة اضطررت لاستعمالها ولا أجد كلمة متواضعة بدلا منها ، ولم أكن في مأمن من أن يخطر لي يوماً ما موضوع لا أستطيع الا أن اعالجه في قالب المسرحية ، وتمنيت أن لا يحدث ذلك لانني كنت واقعاً تحت تأثير فكرة لا أتوقع من القارىء الا ان يعتبرها غروراً أحمق ، فقد كنت حائزاً على أقصى ما يمكن ان يقدمه المسرح لي من الخبرة ، وجمعت من المال ما يكفي لتوفير حياة ترضيني ولسد كل مطلب يواجهني ، وأصبت شهرة واسعة وربما سمعة حسنة عابرة ، وكنت جديراً أن اقنع بذلك ، ولكنني صبوت الى احراز امر لم اكن آمل ان يتحقق عن طريق المسرحية ، ذلك هو الكمال ، ولم أقلب النظر في مسرحياتي فقط — وهي التي كنت أشعر بوطأة اغلاطها اكثر من

اي شخص آخر - بل نظرت في المسرحيات التي توارثناها من الماضي . ان العظماء لهم نقائصهم الخطيرة ، وعلينا أن نلتمس لهم المعذرة بحجة ظروف عصرهم وظروف المسرح الذي كتبوا له . والمآسي اليونانية القديمة ضعيفة الصلة بمدنيتنا وغريبة عنا مما يجعل اطلاق الاحكام العادلة بحقها عملا صعباً وربما بدا لي ان (انتيجون) أقربها الى الكمال . وفي المسرح الحديث لا أظن أحداً يشق غبار (راسين) على علاته الكثيرة ، فقد صاغ مسرحياته بمهارة لا حد لها . ان عبادة الاوثان وحدها هي التي تحول دون ان يدرك المرء النقائص الكبرى في مجرى مسرحيات شكسبير او في تشخيصها ، وهذا أمر يسهل فهمه اذ نتذكر أن شكسبير كان يضحي بكل شيء في سعيه وراء المشهد المؤثر ، على انه كتب مسرحياته بشعر لا تمتد اليه يد الفناء . أما المسرحية النثرية الحديثة فهي بعيدة جداً عن الكمال وأحسب أن ابسن يعد أحسن كاتب مسرحي خلال السنوات المئة الاخيرة ، وبالرغم من المزايا الكثيرة لمسرحياته ما كان أهزل ابداعه وما اكثر ما كانت شخصياته رتيبة ، وما أسخف ما تبدو اكثر موضوعاته امام النظر العميق الذي لا يحط على السطوح ، فكأنما النقص على اختلاف أنواعه خاصة موروثة في فن المسرحية فاذا أراد الكاتب أن يضمن ناحية اضطر الى ان يضحي باخرى ، وهكذا يكون من المستحيل انجاز المسرحية الكاملة بكل حذافيرها ، بأهمية موضوعها وجدارته ، وباصالة التشخيص ودقته ، وبجاذبية عقدتها وجمال حوارها . وخيل الي أن الكمال أمكن الوصول اليه احيانا في الرواية وفي الاقصوصة ، وما كنت لآمل بان ابلغ الكمال فيهما ولكن خطر لي انني أستطيع ان اقترب منه اكثر مما اسعفني الحظ به في المسرحية .

أول رواية كتبتها هي (ليزا من لامبث Liza of Lambeth) وقد قبلها أول ناشر أرسلتها اليـــه .. وكان (فشرانوين) في فترة ما ، يصدر مايدعى سلسلة (بسودونيم) ، وهي مجموعة من الروايات القصيرة حظيت باهتمام عظيم ، ومن بينها قصص لجون اوليفر هوبس اعتبرت بارعة جريئة ، وكان لها الفضل في ذيوع اسم المؤلف وتثبيت نجاح السلسلة . وقد كتبت قصتين قصيرتين أملت أن تؤلفا معاً مجلداً من الحجم المناسب لهذه السلسلة وارسلتها الى (فشرانوين) ، ولكنه ردهما الي بعد مدة ومعهما كتاب يسألني فيه عما إذا كنت استطيع ان اقدم اليه رواية ، وكان ذلك تشجيعاً عظيماً حتى انني شرعت على الفور بكتابة رواية ، وما كنت استطيع الكتابة الا في المساء ، لانني كنت اعمل في المستشفى طوال النهار . واعتدت ان اصل البيت بعد السادسة بقليل ، فأقرأ جريدة (ستار) التي كنت اشتريها من زاوية جسر (لامبث) ثم اشرع في العمل حالما تنظف مائدتي بعد وجبة مبكرة

وكان (فشرانوين) قاسياً مع مؤلفيه ، واستغل حداثة سني وقلة تجربتي ورغبتي في نشر كتاب، كي يوقع عقداً معي لا أنال بموجبه أي ايراد إلا بعدان يبيع عدداً كبيراً من النسخ ، ولكنه كان يعرف كيف يصرف بضاعته ، وارسل روايتي الى عدد من الاشخاص ذوي النفوذ . وقد كتب عنها الكثيرون على اختلاف فيما بينهم ، وتحدث عنها باسيل ولبرفورس في كنيسة (ابي) وهو الذي اصبح فيمابعد رئيس شمامسة وستمنستر، وتأثر بها رئيس اطباء التوليد في مستشفى سانت توماس تأثيراً شديداً حتى انه عرض علي وظيفة تحت اشرافه ، وصادف ان اجتزت الامتحانات النهائية في ذلك الوقت ، ولكنني رفضت العرض بحمق ، مبالغاً في تقدير نجاحي ، مصمماً على هجر مهنة الطب ، ثم طبعت

الرواية ثانية بعد شهر من الطبعة الاولى وايقنت انني استطيع ان اكسب رزقي عن طريق الكتابة . وقد هزني نوعاً ما أن استلمت بعد سنة ، واثر عودتي من اشبيلية شيكا من فيشر انوين يحتوى على نصيبي من ايراد القصة الذي بلغ عشرين جنيهاً .. ان حركة مبيع (ليزامن لامبث) اذا جاز لي ان اتخذ منها اساساً للحكم ، تدل على انها مازالت تلقي قبولا لدى القراء ، ولكن كل مالاقتـه من تقدير راجع الى الحظ الذي توفر لي - بتأثير مهنتي الطبية - لطرح جانب من الحياة بكر بالنسبة للرواية في تلك الايام ، وكان ارثر موريسون بكتابيه (حكايات من شوارع وضيعة Tales of Mean Streets و (طفل من الجاغو AChild of the tago) قـد لفت انظار الجمهور الى ما كان يسمى في ذلك الحين بالطبقات الدنيا ، فاستفدت من الاهتمام الذي اثاره ..

وما كنت اعرف شيئاً عن الكتابة آنذاك ، مع انني قرأت كمية كبيرة بالنسبة لسني .. قرأت دون تمييز منكباً على الكتب التي سمعت عنها واحداً بعد الآخر ، لاعرف ماتحتويه ، ومع انني احسب انني حصلت على بعض الفائدة منها ، اذكر ان روايات غي دوموباسان واقاصيصه هي التي كان لها التأثير الاول في نفسي عندماشرعت بالكتابة وقد بدأت بقراءتها وانا في السادسة عشر . وكنت كلما ذهبت الى باريس اقضي الاصائل في أروقة الاوديون اتفحص الكتب هناك . وقـد ابتعت عدداً من كتب موباسان التي اعيد طبعها في اجزاء صغيرة ، ثمن الواحد منها خمسة وسبعون سنتيما اما كتبه الاخرى الاخرى فكانت تكلف ثلاثة فرنكات ونصفاً ، وهو مبلغ اعجز عن تدبيره ، وهكذا اعتدت ان اختار كتاباً من احد الرفوف واقرأ منه اقصى ما استطيع ، ولم يكن المستخدمون ببزاتهم الرمادية الشاحبة يلتفتون الي ، وكان في وسعي حين اشعر بغفلتهم عني ان اقتطع صفحة واستمر في قراءة القصة ، وهكذا علمت على قراءة معظم ما كتبه موباسان قبل ان ابلغ العشرين . ورغم انه لايتمتع اليوم بالشهرة التي كانت له من قبل ، ينبغي ان نعترف بمزاياه العظيمة ، فقد كان واضحاً ومباشراً يحس بالشكل ويعرف كيف يبرز القيمة الدرامية القصوى للقصة التي يرويها . ولا استطيع إلا ان اقر بانه كان اجدر من الكتاب الانكليز الذين كانوا يؤثرون في الناشئة اذ ذاك ، واحق أن يقتدى به .

في (ليزا من لامبث) وصفت دون تزيّد ، او مبالغة ، الناس الذين قابلتهم في قسم المرضى الخارجيين في المستشفى ، أو في المنطقة خلال خدمتي ككاتب في قسم التوليد ، وقد سردت الحوادث التي جابهتني حين كنت اتنقل من دار الى دار كما يتطلب العمل ، او حين كنت اتسكع دون ان اجد ما اعمله . وقد اكرهت بسبب افتقاري الى الخيال (والخيال ينمو بالمران ، وهو — خلافاً للاعتقاد السائد — اقوى عندالناضجين منه عند الاحداث) اكرهت على أن اروى بأسلوب مباشر ما كنت اراه بأم عيني واسمعه بأذني ، والنجاح الذي لاقاه الكتاب انما يعود الى الحظ الحسن ، ولكنه ما كان ليمهد لي شيئاً من طريق المستقبل . على انني لم ادرك هذه الحقيقة آنذاك .

وضغط علي (فشرانوين) ، لكي اكتب رواية اخرى مطولة جداً عن الاحياء الفقيرة . واخبرني ان هذا هو مايريده الناس مني ، وتنبأ انها ستحوز نجاحاًيفوق بكثير نجاح (ليزا من لامبث) ولاسيما بعد ان كسرت هذه الرواية الطوق من حولي ولكن هذه الخطوة لم تكن جزءاً من خطتي ، اذ كنت طموحاً وفي نفسي شعور لا ادري من اين اتاني ، بأن المرء ينبغي ان لايركض وراء النجاح وانما ينبغي ان يهرب منه ، وكنت قد تعلمت من الفرنسيين ان الكاتب يجب أن لايعطي اهمية كبرى للرواية المحلية ، وتوقف اهتمامي بالاحياء الشعبية لدى كتابة اول كتاب عنها ، وبالفعل انجزت في تلك الاثناء رواية من نوع مختلف تماماً ، واخال ان (فشرانوين) اصيب بأسى شديد لدى استلامها . فقد كانت رواية تدور حوادثها في ايطاليا خلال عصر النهضة ، وبنيت على قصة قرأتها في (تاريخ فلورنسة) لميكيافيلي . وقد كتبتها متأثراً بمقالات قرأتها بقلم آندرو لانج حول فن القصة ، وفي احداها برهن بطريقة مقنعة جداً بالنسبة لي ، ان الرواية التاريخية هي النوع الوحيد من القصة الذي يمكن للكاتب الناشىء ان يأمل فيه نجاحاً ، لأن خبرته غير الكافية في الحياة لاتسمح له ان يكتب عن السلوك المعاصر له ، والتاريخ يمده بالقصة والشخصيات ، والحماسة الرومانتيكية في دمه تعطيه الدفقة اللازمة لانشاء هذا النوع من لقصص . وأعرف اليوم ان هذا الكلام،هراء ،ففي الدرجة الاولى ليس

صحيحاً ان الكاتب الناشىء تنقصه المعرفة الكافية ليكتب عن معاصريه ، ولا اظن ان اي انسان يستطيع مهما امتدت به الحياة ، ان يعرف الناس معرفة اوثق من معرفة المرء للناس الذين يقضي الطفل معهم اكثر اوقاته ، ومعلمه في المدرسة وتراثه من الاولاد والبنات .. انه يراهم رؤية مباشرة والراشدون يكشفون انفسهم عن وعي ، اودون وعي للشبان الصغار ولا يفعلون ذلك مع اترابهم ، والطفل او الصبي يشعر ببيئته وبالمنزل الذي يعيش فيه وبطرق الريف وشوارع المدينة شعوراً مفصلا لا يستطيع ان يستعيده فيما بعد ، اذ تخفف من حدة احساسه جمهرة الانطباعات التي تتراكم عليه عبر السنين ان القصة التاريخية تتطلب بالتأكيد خبرة عميقة بالناس تمكن الكاتب من ان يخلق اشخاصاً احياء من اولئك الاشخاص الذين يبدون للوهلة الاولى غرباء عنا بسلوكهم المختلف وآرائهم المختلفة ، واعادة خلق الماضي لا تتطلب معرفة واسعة فقط ، بل تتطلب اعمال الخيال ، وهو امر لا يكاد ينتظر من الشبان . ولقد كنت خليقاً ان اقول ان الحقيقة هي عكس ماقاله « لانج » تماماً . وللروائي ان يلتفت الى الرواية التاريخية في المرحلة النهائية من انتاجه اذ تكون افكاره وتقلبات حياته الخاصة قد أمدته بمعرفة كافية للعالم واذ يكون بعد قضاء سنين طويلة في تفحص شخصيات الناس من حوله قد اكتسب حدساً يؤهله لفهم الطبيعة البشرية وفهم شخصيات العصور السالفة واعادة خلقها . وقد كتبت روايتي الاولى حول ما أعرفه ، ولكنني بعد ان خضعت لهذه النصيحة السيئة شرعت اعمل في الرواية التاريخية ، وكتبتها في كابري خلال العطلة الطويلة وكانت حماستي لاهبة فعملت على ان استيقظ في الساعة السادسة من كل صباح ، وكنت أكب على الكتابة حتى يكرهني الجوع على الانقطاع لتناول الفطور ، وكانت تراودني الرغبة في قضاء باقي الصباح في البحر .

- ٤٤ -

لا ارى حاجة للكلام عن الروايات التي كتبتها خلال السنوات القليلة التالية ، على ان واحدة منها وهي (السيدة كرادوك) لم تمن بالاخفاق ، وقد اعدت طبعها في نسخة حوت مجموعة مؤلفاتي ، واثنتان منها أخذتا عن مسرحيتين لي لم استطع ان أظهرهما على المسرح ، وقد ظلتا تثقلان ضميري زمناً طويلا ، وكنت مستعداً لان ادفع الكثير لابطل انتشارهما ، ولكنني الان اعلم ان ندامتي لا محل لها ، فالكتاب العظام انفسهم كتبوا عدداً من المؤلفات الضعيفة جداً ، وبلزاك نفسه ترك كمية كبيرة من الكوميديات الانسانية (Comédie Humaine) ، وأكد ان من بينها ما لا يمكن ان يتجشم احد قراءته سوى التلاميذ ، وللكاتب ان يطمئن الى ان الكتب التي يود لها ان تنسى لا بد من ان تنسى . وقد كتبت احد هذه الكتب لانني كنت بحاجة الى نقود تقيم اودي خلال السنة التاليـة ، والكتاب الآخر كتبته حين كنت واقعـاً في غرام فتاة متطرفة الاذواق مبذرة واخفقت في تحقيق رغائبي معها بسبب التفاف معجبين اثرياء حولها استطاعوا ان يقدموا لها اسباب المتع المترفة التي تطفىء ظمأ روحها الطائشة . ولم يكن لدي ما اقدمه لها سوى تعلق جدي بها وروح مرحة . وصممت على ان اضع كتاباً يساعدني على كسب ثلاثمئة ، أو أربعمئة من الجنيهات ، تتيح لي ان اقف في وجه المنافسين ، لان الفتاة كانت محط اعجابهم . ولكن كتابة الرواية تستغرق وقتاً طويلا رغم كل ما يبذله المرء من جهد ، وبعـد كتابتها تأتي عمليـــة النشر ، ثم ان الناشرين لا يدفعون لك الا بعد انقضاء عدد من الاشهر وكانت النتيجة اذ في ما كدت استلم النقود ، بعد لاي ، حتى كانت عاطفتي تجاه الفتاة قد ذابت بعد ان حسبتها مخلدة ، ولم

تخالجني اية رغبـــة في صرف النقود على النحو الذي عزمت عليه سابقـاً بل سافرت بها الى سافرت

وفيما عدا الحالتين السابقتين ، كان كل ما ألفته من كتب خلال السنوات العشـر التي تلت احترافي الكتابة ، وسيلة لزيادة تمكني من العمل الفني ، وذلك ان من بين الصعوبات التي تواجه الكاتب المحترف اضطراره الى اكتساب الصنعة على حساب الجمهور ، اذ تدفعه غريزته الى الكتابة بينما يعج ذهنه بالموضوعات التي يفتقر الى المهارة في معالجتها ، فتجربته ضيقة وخبرته ناقصة لا تؤهله للاستفادة من مواهبه على الوجه الافضل ، وعليه ، بعد ان يضع الكتاب ، ان ينشره اذ استطاع ، لانه من جهة يحتاج الى النقود ليعيش ، ومن جهة ثانية لا يستطيع ان يقدر طبيعـة كتابه الا بعد ان يطبع ، ولا يستطيع بالتالي ان يدرك اخطاءه الا من خلال آراء اصدقائه ودراسات النقاد واطالما سمعت ان جي دو موباسان كان يعرض كل ما يكتبه على فلوبير ولم يسمح له فلوبير أن ينشر قصته الاولى الا بعد ان مارس الكتابة بضع سنين ، وكانت هـــذه القصة الصغيرة (بول دوسويف Boule de Suif) احدى الروائع في نظر العالم اجمـع ، ولكن هذه الحالة استثنائية ، فموباسان كان يحتل منصباً في الحكومة اتاح له موردا كافيا للعيش ، وفراغاً كافيا للكتابة . وما اقل الذين يستطيعون ان يصبروا هذا الصبر الطويل قبـل ان يجربوا حظهم مع الجمهور ، واقل منهم اولئك الذين يتيح لهم الحظ ان يكتبوا تحت اشراف كاتب عظيم نامي الوجدان مثل فلوبير . وفي معظم الحـالات يفسد الكتاب في مقتبل عمرهم موضوعات كانوا خليقين ان يحسنوا معالجتها لو أجلوا الكتابة عنها حتى تنمو معرفتهم للحياة وتزداد خبرتهم بأساليب فنهم . واحياناً اتمنى لو ان الحظ لم يحالفني حـال تقديم كتابي الاول للناشر ، اذن لكنت تابعت دراسة الطب ، وحصلت على الاعمال المعتادة في المستشفى ، وعينت مساعداً للاطباء العموميين في انحاء متفرقة من البـلاد ، ونبت عنهم اثناء غيابهم ، وبذلك كنت اكتسب مجموعة من الخبرات القيمة . ولو ان كتبي رفضت واحدا بعد الآخر لكنت واجهت الجمهور بعد لأي بكتب اقل عيوباً ، وما كان أشد اسفي لانني لم اجد من يرشدني ، اذن لكنت وفرت كثيراً من الجهود

الضائعة ، ولكنني لم اعرف الا قليلا من المشتغلين بالادب ، لانني كنت اشعر حتى في ذلك الوقت ان صحبتهم ، على مافيها من مسرة ، لاتجدي المؤلف نفعاً ، وكان لي من حيائي وانطوائي وكبريائي ما يمنعني من طلب مشورتهم وقد درست الروائيين الفرنسيين اكثر من الانكليز ، وبعد ان اخذت من موباسان كل ما استطعته التفت الى ستندال وبلزاك والاخوين غونكور وفلوبير واناتول فرانس .

وقد خضت تجارب عديدة ، امتازت احداها في تلك الايام بجدة معينة ، فقد اوحت إلى تجربة الحياة التي كنت الهث في اثرها ، ان اسلوب الروائي في اختيار شخصين او ثلاثة او حتى مجموعة من الناس ، ووصف مغامراتهم ونفسياتهم وكل مايتعلق بهم كما لو ان العالم خال الا منهم ومن الاحداث التي تنتابهم ، انما هو اسلوب يعطي جانباً جزئياً جداً من الواقع . وانا نفسي كنت اعيش ضمن مجموعات عديدة لم يكن لاحداها صلة مباشرة بالاخرى ، وخطر لي انني استطيع ان اقدم صورة اصدق للحياة اذا وفقت في سرد القصص المختلفة ، ذات الاهمية المتساوية التي كانت تحدث خلال فترة معينة من الزمن ، ضمن مجموعات مختلفة . وقد اخترت عدداً من الاشخاص اكثر مما اعتدت ان اختاره من قبل ، كما اخترعت أربعاً او خمساً من القصص المستقلة يربط بينها خيط رفيع جداً ، الا وهو امرأة عجوز تعرف شخصاً واحدا على الاقل من كل مجموعة . وسميت الكتاب (الجولة المرحة The Merry - Go - Ronad) وكان أقرب الى السخف ، لانني جعلت كل بطل من أبطاله جميلا الى درجة لاتصدق ، متأثراً في ذلك بالمدرسة الجمالية التي انتعشت في العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، كما ان الكتاب سبك سبكا محكما ، ولكن عيبه الرئيسي هو افتقاره الى خط مستمر يتجه اليه اهتمام القارىء ، وكذلك لم تكن القصص ذات اهمية متساوية ، وبدا من المتعب أن يتشعب الانتباه الى مجموعات مختلفة من الناس . وقد اخفقت لانني اهملت الحيلة البسيطة جداً ، اعني رؤية الحوادث المتفرقة والاشخاص الذين اشتركوا فيها من خلال عين شخص واحد فقط . وهذه الحيلة استخدمتها ، بالطبع ، رواية السيرة منذ قرون ، ولكن هنري

جيمس طورها تطويراً مفيداً جداً ، فقد اظهر كيف يمكن ان تمطى القصة الوحدة وقابلية الاحتمال ، وذلك من خلال العملية البسيطة القائمة على كتابة (هو) بدلا من (أنا) ، وبالتنازل من اطلاع القاص الفريد الذي يعرف كل شيء ، الى المعرفة الناقصة للمشارك في الحوادث .



- ٤٥ -

أعتقد أنني كنت ابطأ نموا من معظم الكتاب ، ففي السنوات الاخيرة من القرن الماضي والسنوات الاولى من هذا القرن كان الناس يعدونني كاتباً ناشئاً ذكياً لايخلو من نبوغ ، خشنا ومستكرها نوعا ما ، ولكن له بعض شأن ، ولم أجن ربحاً كبيراً من وراء كتبي ، ولكنها مع ذلك روجعت من قبل النقاد مراجعة مفصلة منصفة . على انني حين اقارن رواياتي الاولى مع الروايات التي يكتبها الشبان اليوم ، لا استطيع الا أن اعترف بأن رواياتهم اكمل بكثير من رواياتي وانه ليحسن بالكاتب المسن أن يظل على اتصال بما يكتبه الشباب ، فأنا اقرأ رواياتهم من وقت لآخر . وان الفتيات اللواتي مازلن في العقد الثاني من عمرهن ، والشباب الذين مازالوا في الجامعات لينتجون كتباً تبدو لي متقنة في اسلوبها وتأليفها ، ناضجة في تجربتها . ولست أدري هل الشباب اليوم أسرع نضجاً من الشباب قبل أربعين عاماً ، ام ان فن القصة تقدم منذ ذلك الحين حتى اصبحت الآن كتابة رواية جيدة عملا فيه من السهولة بقدر ما كانت تتكلف من الصعوبة كتابة رواية متواضعة في تلك الايام .

واذا كلف امرؤ نفسه مشقة القاء نظرة على (الكتاب الاصفر) الذي كان يعد في في تلك المرتبة النهائية لذكاء المثقف ، فسوف يذهله ان يكتشف مبلغ ماوصلت اليه معظم ابحاث الكتاب من تدهور . ورغم مظاهر الابهة عند هؤلاء الكتاب الا انهم لم يكونوا اكثر من دوامة في ماء ضحل ، وليس من المحتمل ان يمنحهم تاريخ الادب الانكليزي اكثر من نظرة عابرة . وتصيبني رعشة خفيفة حين اقلب هذه الصفحات القديمة وأسأل نفسي هل ستبدو ، بعد اربعين عاما ، الاشياء الطريفة الزاهية في عالم الادب اليوم كما تبدو الاشياء التي سلفت في (الكتاب الاصفر) .

لقد اغناني الحظ واكتسبت بسرعة شهرتي ككاتب مسرحي،ماوفر علي ضرورة كتابة رواية كل عام لاكسب اودي ، ووجدت كتابة التمثيليات عملية سهلة ، وكانت تكسبني شهرة لابأس بها ، وتدر علي اموالا تكفيني لان اعيش في مستوى اقل ضيقا من ذي قبل ولم اوهب ابداً تلك الخاصة البوهيمية التي تجعل المرء لايكترث للغد ، وماا كثر ما كرهت اقتراض النقود والوقوع في اسر الدين ، ولم تجتذبني ابدا حياة الصعلكة واللامبالاة ، ولم انشأ في ظروف من هذا النوع ، فقد ابتعت داراً في (مايفير) حالما امكنني ذلك .

من الناس من يحتقر الممتلكات ، ويزعمون ان الفنان ينبغي ان لايشغل باله بها ، وقد يكون رأيهم صائبا ، ولكن الفنانين انفسهم لاينظرون هذه النظرة ، ولم يقبل اي منهم مختاراً ان يعيش في الملاحق التي يلذ لمعجبيه ان يروه فيها . وكثيرا ماانتاب الفنانين الافلاس بسبب اسرافهم في التبذير ، وهم الى ذلك مخلوقات تقتات من الخيال ولابد ان تستهويهم الدور الانيقة والخدم الذين يسهرون على راحتهم والسجادالثمين والرسوم البديعة والرياش الفخمة . لقد عاش تيتيان وروبنز كأميرين وكان لبوب قصران ، هما «غرونو» «وكونيكنكس» ، والسير ولترقصر «ابو تسفورد» القوطي الطراز ، ومات آل غريكو مقلسا بعد ان كان ينعم بالغرف المنوعة والمكتبة والملابس الفاخرة وحوله الموسيقيون يعزفون لهحين يتناول طعامه . وليس طبيعيا ان يعيش الفنان في دارة مقسومة الى قسمين ويأكل فطائر تصنعها الخادمة كيفما اتفق ، انها معيشة النفس الوضيعة الجافة لامعيشة اللامبالاة ، وما الترف عند الفنان الا نوع من اللهو ،وداره وأراضيه وسياراته ولوحاته عبارة عن آلاعيب تداعب خياله ، انها تذكارات مرئية لسلطانه لاتدخل في صميم سموه الجوهري . واما بالنسبة لي فيمكن ان أقول انني استطيع التخلي بدون لوعة عن

كل ماامتلكه بعد ان اقتنيت كل الطيبات التي يمكن ان تشترى بالمال، وهي تجربة كغيرها من التجارب . اننا نعيش في زمن غير مستقر وقد يؤخذ منا كل ماعندنا ، وما كنت لاندم على شيء اذ يتاح لي الطعام الذي يسد شهيتي المحدودة ، وغرفة اقيم بها ، وكتب استتيرها من المكتبة العامة وأقلام وورق . وقد سررت لانني استطعت ان اكسب مالا وفيراً من مسرحياتي ، وقد حرصت على هذا المال لانه حررني ووقاني شر الوقوع في وضع لايتيح لي ، بسبب الحاجة ، حرية فعل مااريد

- ٤٦ -

اتخذت الكتابة مهنة لي، كما كان ممكنا ان امتهن الطب او المحاماة ، وهي مهنة ممتعة جداً ، فلا غرو اذن ان يقبل عليها عدد كبير جداً من الناس ، وفيهم من هو غير مؤهل لها . انها مهنة مثيرة ومنوعة ، فللكاتب ان يعمل في اي مكان يشاء وفي اي وقت يختار ، وله ان يسترخي مع كسله اذا احس بالسقم او الضجر . ولكن للمهنة مساوئها ايضا ، ومن بين هذه المساوىء كونك مكرها على ان تحصر معالجتك بما يتمشى مع ما في طبيعة نفسك من نزعات خفية ، رغم ان العالم كله بناسه ومناظره واحداثه هو مادة مهنتك . ان ثروة المنجم اغنى من ان تحصى ، ولكن كلا منا لا يستطيع ان يستخرج منه الا كمية محدودة من المعدن ، وهكذا قد يتصور الكاتب ويموت جوعا والموضوعات وافرة من حوله ولكن لا تواتيه مادته ، ويقال عنه حينذاك انه استنفد ما عنده ، وما اقل الكتاب الذين لا يعيشون في رعب من هذه النهاية . اما السيئة الثانية ، فهي ان الكاتب المحترف ينبغي ان يرضي القراء ، واذا لم يقبل على قراءته عدد كاف منهم فنهايته الموت جوعاً . . واحياناً يكون ضغط الظروف من حوله عنيفاً في نفسه ولكنه يذعن الى رغائب الجمهور والهياج يملأ صدره ، والطبيعة البشرية لا يؤمل منها الكثير ، ولربما تسامح الجمهور مع الفنان اذا اضطر ان يكتب من اجل النقود بين حين وآخر . ان على الكتاب الذين يعيشون في ظروف مستقلة ان يتعاطفوا ، لا ان يشمخوا على اخوانهم

الذين تجبرهم الظروف على اداء انتاج غير متقن وقد بين مرة احد ضعاف العقول من (شلسي)[1] انه لا يعترف على الكاتب الذي يكتب من اجل النقود ، وقال اشياء كثيرة حكيمة (على نحو ما يفعل العقلاء) ، ولكن هذا الرأي بليد جداً ، لان القارىء لا شأن له بالدوافع التي تدفع المؤلف للكتابة ، وان ما يعنيه اولا وآخرا هو النتيجة .

ان بعض الكتاب لا يكتبون الا بتأثير حافز ضروري (وكان بينهم صموئيل جونسن) ولكنهم لا يكتبون من اجل النقود ، ومـا كان أحمقهم لو فعلوا ذلك ، لان هناك مهناً قليلة جداً لا تعطيك من الربح اكثر مما تعطيه الكتابة اذا وفرت لها مثل الموهبة والجهد اللذين تبذلها في الكتابة . على ان اعظم اللوحات في العالم رسمت بعد ان دفع لراسميها الثمن ، وفي الرسم كما في الكتابة مـا ان تشتغل الشرارة الاولى من اثارة العمل حتى ينغمس فيه الفنان بأقصى ما يستطيع ، وكذلك لا يتلقى الفنان عروضا ما لم يرض الذين يرعون فنه ، ولا تقرأ كتب الكاتب ما لم تلذ للقراء عامة . ولكن الكتاب غالباً ما يشعرون ان كتبهم ينبغي ان تقرأ واذا لم يبع منهـا الكثير ، فالذنب يقع على عاتق الجمهور لا عليهم ، ولم ألق في حياتي كاتباً يعترف ان الجمهور لم يقبل على كتبه لانها بليدة . ولكن هناك شواهد كثيرة عن كتاب لم تحظ كتبهم بالتقدير المنـاسب مدة طويلة ولكنهم بعد ذلك نالوا الشهرة ، اما الذين بقي انتاجهم في عتمة الاهمال فمن الطبيعي ان لا تسمع عنهم شيئاً ، وعددهم كبير جداً . اين ما قدمه ، وفـاء الموهبة ، اولئك الكثيرون الذين قضوا دون ان نسمع عنهم ؟ واذا كان صحيحاً ان الموهبة تتـألف من قابلية معينة تمتزج مع نظرة خاصة الى العالم ، فمن المفهوم جدا أن الاصالة لن تلقى من الناس احتفالا لائقا بادىء ذي بدء ، ففي هذا العالم المتغير دائما تتعرض الجدة لشكوك الناس الذين يستغرقون وقتا طويلا حتى يتقبلوها ، والكاتب ذو المزاج العقلي الخاص يجب ان يهتدي شيئاً فشيئاً الى القراء الذين يستجيبون لعقليته ، وهو يستغرق وقتـا

(١) شلسي : حي في لندن (المعرب)

طويلا حتى يبني معالم نفسه ، لان حدود النفس في الشباب تكون مائعة ، وكذلك يستغرق وقتا لاقناع تلك المجموعة من القراء الذين يسميهم جمهوره بالفعل ، لا بالتباهي بانه قادر على اعطائهم ما يريد ، وكلما ازدادت فرديته ازدادت الصعوبات في وجه بلوغه هذا الهدف واستغرق وقتا اطول في كسب معيشته ، والانكى من ذلك انه لا يستطيع ان يطمئن الى استمرار النتيجة ، لانه بكل مافيه من فردية قد لا يعطي سوى عمل فني او عملين ، وبعد ذلك يغوص في اعماق الظلمة التي نجم منها بصعوبة .

من السهل ان تقول ان الكاتب يجب ان يكون له عمل يمده بالخبز والأدام ، ثم يكتب في حدود الفراغ الذي تسمح به وظيفته . وقد كان الكتاب في الماضي مضطرين الى سلوك هذا السبيل ، يوم كان الكاتب ، مهما بلغت شهرته وشعبيته لا يستطيع ان يكسب بكتابته من النقود ما يكفل بقاء روحه وجسمه معاً وما زال الكتـــاب في الاقطار التي يقل عدد قرائها يضطرون الى كسب عيشهم بالعمل في الوظائف المكتبية ، ولاسيما الحكومية ، او بالعمل في الصحـــافة . ولكن الكاتب بالانكليزية لديه جمهور هائل يمنحه امكانات معقولة جدا لاحتراف الكتابة ، ولولا وجود شيء من الشعور باحتقار تتبع الفنون في الاقطار الناطقة بالانكليزية ، لكان لدى الكاتب جمهور أشد ازدحاما . وفي هذه الاقطار شعور واضح بأن فن الكتابة او الرسم ليس من عمل الرجال ان القوة الاجتماعية لهذا الشعور تسببت في بقاء الكثيرين خارج هذا النطاق ، ولن يدخل المرء في مهنة تعرضه لادنى ريبة اخلاقية الا اذا كانت حوافزه حـــاسمة جدا ، اما في فرنسا وفي المانيا فالكتابة مهنة شريفة ويتبناهـــا الابناء بموافقة الآباء حتى لو كانت مواردها المالية غير كافية ، وفي المانيا تستطيع دوما ان تعثر على أم تصرح لك برضى ان ابنها سيصبح شاعرا ، وفي فرنسا تعتبر الاسرة زواج ابنتها ذات المهر (دون) العظيم من روائي شاب موهوب ، تحالفاً موفقاً .

ولكن الكاتب لا يكتب حين يكون وراء مكتبه فحسب ، بل يكتب سحابة يومه ، وهو يفكر ، وهو يقرأ ، وهو يخوض التجارب ، وكل مايراه ويحس به ضروري

لغرضه ، وهو يختزن ابدا بوعي ، وبغير وعي ، مشاعره وانطباعاته ، ولا يستطيع ان يمنح اي داع اخر كامل انتباهه ، او يسخره لارضاء نفسه او رؤسائه . ان الداعي الوحيد الذي يمكن ان ينسجم معه هو الصحافة ، لان لها فيما يبدو صلة كبرى بعمله الاصلي ، ولكنها خطرة جدا ، مادامت تعتمد على عزل الذات يؤثر في الكاتب دون ان يشعر ويظهر ان الذين يكتبون للصحافة يضيعون موهبة رؤية الاشيــاء من اجل انفسهم ، وينظرون اليها من زاوية معممة جذابة غالباً وشاحبة البريق في بعض الاحيان ، ولكنها على اي حال خالية من تلك الخاصية العقلية التي تعطي جانبا جزئيا من الصورة مشبعا بشخصية المراقب . والحق ان الصحافة تقتل فردية العاملين بها ، وحتى الكتابة عن النتاج الجديد ليست اقل ضررا ، لان الكاتب لا يجد من الوقت مـا يكفي لقراءة الكتب التي تتصل بحقله ، وهذه القراءة المرضية لمئات الكتب ، لا لاجل الفائدة الروحية ، بل لاعطاء تقرير امين عنها ، تميت احساس الكاتب ، وتعيق الانسياب الحر لخياله ..
ان الكتابة وظيفة تستغرق كل الوقت ، وينبغي ان تكون الهدف الرئيسي لحيــاة المؤلف ، اي انه ينبغي ان يكون كاتباً محترفاً . وما اسعده حين تتوفر له موارد كافية تغنيه عن ارباح الكتابة ، ولكن هذا لا يمنعه عن احتراف الكتابة .. لقد كان سويفت بعمادته ، وورد زوورث بمنصبه الفخري ، محترفين تماما بدرجة احتراف بلزاك وديكنز

من المعروف ان صناعتي الرسم، والتلحين الموسيقي، لاتكتسبان الا بالجهد المتواصل، وانتاج الهواة فيها يعامل باحتقار مصحوب بالهزء او بالتذمر ونحن جميعا نهنيء أنفسنا لان المذياع والحاكي ازاحا عن كاهلنا الهواة من عازفي البيان او المغنين . وكذلك فن الكتابة لايقل صعوبة عن الفنون الاخرى ، ومع ذلك يخيل لكل من يستطيع ان يقرأ الحرف ، او يكتبه ، ان اي انســـان يمكن ان يقوى على تأليف كتاب ، ويبدو ان الكتابة اصبحت هواية للجنس البشري اليوم ، وهناك امم كاملة تقبل عليها كما كانت في الايام القديمة الهائمة تقبل على دور العبــادة ، والروايات اليوم تكتبها النساء ليخففن عن انفسهم اعباء الحمل ، ويلجأ الى القلم اليوم - كما يلجأ المرء الى الزجاجة ـ انماط من الاشراف المتضايقين والضباط المسرحين ، والموظفين المتقاعدين . وهناك انطباع سائد في الخارج بان لدى كل انسان مايدفعه الى تأليف كتاب ، ولكن اذا قصد بذلك الكتاب الجيد فهذا الانطباع خاطيء . وقد يتفق ان يؤلف الهاوي انتاجاً ذا مزية ، اذا اسعفه الحظ بقابلية طبيعية للكتابة الحسنة ، او بتجارب ممتعة في ذاتها ، او بشخصية فاتنة اوغريبة ، فيكون له من قلة خبرته نفسها معين على صب افكاره في الحرف المطبوع، ولكن يحسن به ان يتذكر ان هذا القول : لدى كل انسان مايدفعه الى تأليف كتاب : لايشير الى كتاب ثان ، وحري بالهاوي ان يستجيب لهذه الحكمة فلا يجرب حظه ثانية ، لان كتابه الثاني سيكون على وجه التأكيد غير ذي قيمة .

ومن الفروق الكبرى بين الهاوي وبين المحترف ان الاخير يملك القدرة على التقدم، واحب ان اعيد هنا ان ادب الامة لايبنى ببعض الكتب الممتازة ، بل بمجموعة كاملة من الانتاج ، وهذا مالا يقوى عليه سوى الكتاب المحترفين . ان أدب الامم التي تعتمد في

الانتاج على الهواة ، يعد هزيلا اذا قيس بأدب الامم التي انتجها كتاب اتخـذوا الادب حرفة لهم ، رغم الصعوبات التي عانوا منها في سعيهم الى كسب الرزق . وان العمل الادبي ينتج عن الجهد الدائب المصمم ، والمؤلف كغيره من الناس يتعلم بطريقة المحاولة والخطأ ، وتتسم مؤلفاته الاولى بالبداهة ، ويجرب في بادىء الامر قلمـــه في مختلف الموضوعات والاساليب وينمي شخصيته في الوقت نفسه حتى يتاح له ان يكتشف نفسه ، باعتبار ان نفسه هي الشيء الذي سيعطي منه للآخرين ، وعليه ان يتعلم كيف يتوصل بهذا الاكتشاف الى افضل النتائج ، فيعطي ، وقد امسك تماما بزمام ملكاته ، وافضل ماعنده . ومادامت الكتابة مهنة سليمة فالاغلب ان يمتد العمر بالكاتب من خلالها ، ومادامت الكتابـة في ايامنا هذه عادة ملحة فلاشك انه سيستمر في انتاج اعمال ليس لها عظيم شأن ، وقد يهملها الجمهور بحق .. وقليل جداً مما ينتجه الكاتب خلال حياته الطويلة يمكن ان يعد عنـــد القارىء اساسيا (واعني بكلمة اساسي ذلك الجانب الصغير الذي يعبر عن فردية الكاتب ، ولا ارمي الى اعطاء هذه الكلمة اية قيمة مطلقة) .

على انني اعتقد ان المؤلف لايستطيـع ان ينتج افضل مـافي وسعه الا بالتحصيل الطويل ، وبالصبر على الاخفاق المتواصل ، وذلك بأن يجعل الادب عمله الاول في الحياة ، فيكون كاتبا محترفا .

- ٤٨ -

بعد ان تحدثت عن مساوىء حرفة الكتابة احب ان اعرض الان اخطارها .

من الواضح ان الكاتب المحترف لايمكنه ان يكتب حين يحلو له ذلك فقط ، واذا انتظر حتى تواتيه نفسه ، ويهبط عليه الالهام كما يقول ، فسوف يطول به الانتظار وينتهي الى انتاج ضئيل او لاينتهي الى شيء . ان الكاتب المحترف هو الذي يخلق الجو المواتي ، وان له الهامه ايضا ، ولكنه يخضع هذا الالهام لارادته اذا عود نفسه العمل في ساعات منظمة .. ومع مرور الزمن تصبح الكتابة عادة ، فكما يهتز الممثل المتقاعد حين تأتي الساعة التي اعتاد فيها ان يهبط الى المسرح ، ويتهيأ لاستعراض المساء ، كــــذلك يتوق الكاتب الى قلمه وورقه كلما حانت الساعةالتي اعتادان يكتب فيها . وهكذا تصبح الكتابة عملا آليا وتنثال الكلمات على القلم بسهولة ، وتوحي له بالافكار ، وقد تكون الافكار قديمة سطحية ، ولكن يده المدربة تستطيع ان تخلق منها قطعة مقبولة . ومن ثم يتناول الكاتب عشاءه او يأوي الا فراشه مطمئنا الى انه قد ادى واجبه اليومي ان كل انتاج للفنان ينبغي ان يكون تعبيرا عن مغامرات روحه ، وهذه علامة الكمال ، ولكن ، في عالم غير كامل كعالمنا يمكن ان يعامل الكاتب المحترف بشيء من التسامح ، وان كان هذا لايعفيه من ان يضع الهدف نصب عينيه دائما . انه هو يحسن صنعا عندما يكتب لكي يحرر نفسه من موضوع طالما شغله واثقل كاهله ، واذا كان حكيما أكتفى بان يكتب من اجل ان يريح نفسه . ولعل ابسط طريقة تعين الكاتب على كسر طوق العادة ، هي تغيير البيئة الى بيئة اخرى لاتتيح فرصة لاداء القسط اليومي المعتاد، ولن تستطيع ان تكتب كتابة جيدة او غزيرة (واجازف بالقول ان المرء لايكتب جيداً الا اذا كتب كثيراً)

مالم تكون لنفسك عادة ، ولكن العادة ، في الكتابة كما في الحياة ، لاتفيد الا اذا كسر طوقها حالما تصبح غير مثمرة .

ولكن اعظم خطر يواجه الكاتب المحترف هو النجاح ، ولسوء الحظ لايستطيع ان يحترز منه الا القلة القليلة من الكتاب .. انه اصعب معضلة يتعرض الكاتب لمعالجتها ، وحين يحرز الكاتب النجاح بعد كفاح مرير طويل ، يجد انه يمد شباكه ليصطاده ويقضي عليه ، وما اقل الذين يعقدون العزم على وقاية انفسهم من مخاطره ، وهي عملية تتطلب حذراً شديداً .. ان الفكرة الشائعة التي تقول بأن النجاح يفسد الناس ويجعلهم مغرورين وانانيين وراضين عن انفسهم ، هي فكرة خاطئة ، بل على عكس ذلك يؤدي النجاح بالمرء الى ان يصبح في معظم الحالات متواضعا معتدلا عطوفا ، والاخفاق هو الذي يجعل الناس قساة حاقدين .. ان النجاح يحسن شخصية الانسان وان كان لايحسن ، دوما ، شخصية المؤلف ، بل لعله يجرمه من تلك القوة التي اوصلته الى النجاح . لقد تشكلت فرديته من تجاربه ، ونضاله ، وآماله الخائبة ، ومن جهوده لتكييف نفسه مع عالم معاد ، ولكن هذه الفردية ستكون طاغية ان لم تعتدل بتأثير النجاح الملطف .

والنجاح الى ذلك ، يحمل في ذاته بذور الدمار ، لانه قد يبعد المؤلف عن المادة التي اتاحت له النجاح ، ويدخل به في عالم جديد له فيه شأن مرموق ، ولابد ان يكون انسانا خارقا اذا لم يؤخذ بالتفاف العظماء حوله ، والتفاف الملاح واحتفالهن به . ثم انه يألف اسلوبا جديدا في العيش اكثر ترفا من اسلوب حياته السابق ، ويختلط بأناس لهم مكانة اجتماعية ارفع من مكانة زملائه السابقين ،يمتازون بالذكاءوبالبريق السطحي الأخاذ وكم يشق عليه ان يتحرك بحرية بعد ذلك في الاوساط التي كان يألفها والتي امدته بموضوعاته . انه يتغير في عيون زملائه السابقين بسبب نجاحه فلا يستطيعون ان يعودوا الى التفهم السابقة معه ، وقد يرمقونه بنظرة حسد او نظرة اعجاب ، ولكنهم في الحالتين يكفون

عن اعتباره واحدا منهم . ان العالم الجديد الذي جره النجاح اليه يثير خياله وعلي عليه ان يكتب ، ولكنه يرى هذا العالم من الخارج ، ولا يستطيع ابداً ان يتغلغل فيه كجزء اصيل منه . ولا اجد مثالا لهذه الحالة افضل من (ارنولد بنيت) الذي لم يتعمق معرفة اي شيء الا حياة (المدن الخمس) التي ولد ونشأ فيها ، وكانت كتابته عنها ذات شخصية واضحة ، ولما قاده النجاح الى صحبة اهل الادب والاغنياء والنسوة الانيقات ، حاول ان يعالج هذه الامور فكان ما كتبه غير ذي قيمة . لقد قضى عليه النجاح .

وهكذا ترى ان الكاتب الحكيم يحترز من النجاح ، وينظر بفزع الى مطالب الآخرين الناتجة عنه ، والمسؤوليات التي يفرضها عليه ، وانواع النشاط المعرقل التي يأتي بها . ولن يعطيه النجاح سوى شيئين جيدين : الاول والمهم الى اقصى حد ، هو حرية الكاتب في أن يخط طريقه بنفسه والثاني ثقته بنفسه . وبصرف النظر عن الادعاء والغرور الشديدين ، لن يستطيع المؤلف ان ينجو من سوء التقدير حين يقارن بين انتاجه الراهن وبين ما كان ينوي انتاجه اصلا ، وهناك فرق كبير جدا بين ماوضعه نصب عينيه سابقاً وبين اقصى ما استطاع أن ينتجه ، حتى ليبدو الامر عنده مجرد تعويض لا اكثر ، وقد يرضى عن صفحة هنا واخرى هناك ، وقد يستحسن حادثة أو شخصية ، ولكن من النادر ، في رأيي ، ان ينظر الفنان الى عمله بمجموعه نظرة الرضى الكامل . وقد تدور في مؤخرة ذهنه ريبة تحدثه بأن انتاجه غير صالح البته ، وان ثناء الجمهور - حتى لو كان ميالا لأن يشك في قيمته - نعمة هبطت عليه من السماء .

ومن هنا كان الثناء ضرورياً للفنان ، والتوق اليه وجه من وجوه ضعفه قد يمكن اغتفاره ، على أن الفنان ينبغي ألا يتأثر بالثناء أو اللوم مادام يعنيه من انتاجه علاقته بنفسه فقط ، واما طريقة تأثير الانتاج في الجماهير فذلك امر قد يعنيه من الناحية المادية لا من الناحية الروحية ، اذ ان الفنان ينتج بغية تحرير نفسه ، ومن طبيعته أن يخلق ، كما أن من طبيعة الماء ان ينحدر من الاعالي ، والفنانون لم يقدموا عبثاً على تسمية اعمالهم الفنية ببنات أفكارهم ، وعلى تشبيه آلام الانتاج بآلام المخاض ، كأنما العمل الفني شيء عضوي لا ينمو في ادمغتهم فحسب بل في قلوبهم وفي اعصابهم وفي أحشائهم ، انه شيء

تنميه غريزة الخلق عندهم من تجارب أرواحهم واجسامهم ، ثم يشتد ضغطه حتى يضطروا الى تخليص نفوسهم منه ، وعند ذلك يستمتعون باحساسهم بالتحرر ، وتخلد نفوسهم الى السكينة في لحظة لذيذة ولكنهم ، خلافاً للأمهات ، سرعان مايفقدون شغفهم بالمولود الذي لا يظل جزءاً منهم ، بعد ان ادى دوره ومنحهم رضى النفس ، لتتهيأ ارواحهم بعد ذلك لحمل جديد .

ان الكاتب يحقق ذاته في انتاجه الفني ، وهذا لا يعني ان انتاجه ذو قيمة عند غيره وقارىء الكتاب ومتفحص الصورة لا شأن لهما بمشاعر الفنان الذي نشد الراحة عند خلقهما ، انهما ينشدان الاتصال مع الاثر الفني ولهما الحق في تقدير قيمته عندهما ، ولكن الاتصال عند الفنان ليس الا عملا جانبياً ، ولست اقصد في حديثي الذين يمارسون الفن لغرض التعليم ، فهؤلاء دعاة والفن عندهم قضية جانبية .. ان الخلق الفني فعالية نوعية تبلغ غايتها في ممارستها الخاصة ، والعمل المنتج يكون جيداً أو رديئاً وهذا أمر يقرره الرجل العادي . انه يقرر القيمة الجمالية بتأثير الاتصال الذي يقدمه له العمل الفني ، فاذا كان يسوقه للهرب من عالم الواقع فانه يرحب به ، وان كان اميل الى ان يعده فناً أدنى ، واما اذا أغنى روحه ونفخ في شخصيته ، فهو أجدر ان يعتبره فناً عظيماً ، ولكنني اصر ثانية على ان هذا الامر لا شأن له بالفنان الذي يسره من حيث هو انسان ، ان يمنح الآخرين المتعة والقوة ولكنه يجب ان لا يمتعض اذا لم يجدوا في انتاجه مايتناسب مع ما يهدفون اليه ، فقد سبق له ان نال نصيبه عندما فاضت غريزته الخلاقة . وهذا الذي اقوله ليس مقياساً للكمال ، بل هو الشرط الوحيد الذي يمكن ان يتوصل الفنان بمراعاته الى الكمال الذي لا يجارى وهو هدف الفنان . فاذا كان روائياً استفاد من خبرته بالناس وبالبلاد ، ومن مخاوفه النفسية ، ومن كرهه وحبه ، ومن اعمق افكاره ، ومن تهويماته العابرة ليرسم في مؤلف إثر آخر صورة للحياة ، وهذه الصورة لن تكون اكثر من صورة جزئية ، ولكنه اذا كان محظوظاً نجح في النهاية في ابداع شيء آخر في ابداع صورة كاملة لنفسه .

ومثل هذا التفكير ، وعلى اي حـال ، هو عزاء للنفس ازاء ماتقع عليه أعينـنا من اعلانات الناشرين . وحين تقرأ تلك القوائم الطويلة من الكتب ، وحين تكتشف ان النقاد قد اشادوا برجاحة هذه الكتب وعمقها واصالتها وجمالها ، يهبط قلبك وتتساءل عن حظك في منافسة مثل هذه العبقريات . والناشرون سيخبرونك ان معــدل حياة الرواية تسعون يومـاً ، ومن الصعب ان تطمئن نفسك الى ان الكتاب الذي صببت فيه – بالاضافة الى نفسك كلها – اشهراً عديدة من الجد المضني ، يقرأ في ثلاث ساعات أو أربـع ، وينسى بعد هذه المدة القصيرة جداً ولن نجد فناناً تقصر به آماله عن أن لا يوانس في نفسه بصبصاً من امل ، في ان يخلد من بعده جزء من مؤلفاته عبر جيل أو جيلين ، رغم ان ذلك لا يجديه نفعاً ، ان التفكير في الشهرة بعد الوفاة نوع من الغرور ، لا يؤذي ، بل يلطف من خيبة الفنان واخفاقه في الحياة . اما انه هدف يصعب التوصل اليه ، فذلك ظاهر من مصير الكتاب الذين بدأوا منذ عشرين سنة فقط متأكدين من خلودهم . اين قراؤهم الآن ؟ وما أصعب ان يعود الناس قبلا – في غمرة من الكتب التي تؤلف باستمرار ، وفي غمرة هـذه المنافسة من قبل الكتب المعمرة – الى تذكر كتب سبق ان طغى عليها النسيان .

هناك امر شاذ تقدم عليه الاجيال ، وربما عده بعض الناس غير سليم ، ذلك هو اقبالها على الاعتناء بانتاج المؤلفين الذين اشتهروا في عصرهم ، واما الكتاب الذين يمتعون الخاصة ولا يتوصلون الى الجمهور الكبير فلا ينالون شغف الاجيال لان الاجيال لا تسمع عنهم ابداً . وفي هذا عزاء المؤلفين المشهورين الذين القي في روعهم ان شعبيتهم نفسها برهان كاف على ضآلة قيمة انتاجهم ، ولعـل شكسبير وسكوت وبلزاك لم يكتبوا لبسطاء العقول في (شلسي) بل يبدوا انهم كتبوا للعصور الـتي تلتهم . وهكذا فان الضمانة الوحيدة للفنان تأتي من قناعته النفسية بما يؤديه ، وهو يستطيع ان يقف موقف اللامبالاة لهذه النتيجة ، اذا ادرك انه سيكافأ على جهده لتحرير روحه ، بواسطة اداء العمل الفني ، وبواسطة تشكيل هذا العمل بطريقة خليقة ان ترضي حاسته الجمالية على الاقل .

- ٥٠ -

على ان كل المساوىء والاخطار التي تعترض مهمة الكاتب ليست بشيء امام تلك الميزة التي تتضاءل امامها اهمية جميع الصعوبات والخيبات وربما المشقات ، لانها تمنحه الحرية.

ان الحياة عند الفنان مأساة يلذ له أن يتطهر بها ، عن طريق موهبة الخلق فيه .. انها المطهر الذي وصفه أرسطو بأنه هدف الفن ، والذي يستطيع الفنان بواسطته ان يتخلص من الحسرة والرعب . ان خطايا الفنان وحماقاته والتعاسة التي تحل به ، وحبه الذي لا يلقى تجاوباً ، وعيوبه الجسدية ، ومرضه وحرمانه ، كل اولئك يتحول بقوة الكاتب الى شيء مادي ، حين يكتبه الكاتب يستطيع ان يتغلب عليه .. وكل مافي الوجود غذاء لطاحونته من لمحة وجه في الشارع ، الى حرب تدمر العالم المتمدن ، ومن عبير وردة الى موت صديق ، وكل شيء يحل به يمكن ان يتحول الى مقطوعة أو أغنية أو قصة وذلك يخلصه من وطأته . ان الفنان هو الانسان الوحيد الحر .

وربما كان هذا هو السبب فيما نعرفه من ارتياب العالم عامة بالفنان ، وليس من المؤكد ان يكون موضع ثقه حين يستجيب للدوافع المشتركة عند الناس بمثل هذه اللامبالاة . والفنان بالفعل لايحس ابداً بأنه مقيد بالمقاييس المعتادة وبذلك يثير حفيظة الناس .. وفيم يفعل ذلك ؟ اما الرجال عامة فالنهاية الاساسية لتفكيرهم وسعيهم هي ارضاء الحاجة وحفظ البقاء ،واما الفنان فانه يسد حاجاته ويحفظ بقاءه باقتفاء فنه . ومايعتبرونه تسلية عابرة يكون موضع جد عابس عنده ، وبذلك لاينطبق موقفه من الحياة مع مواقفهم . انه يخلق قيمه الخاصه . والناس يعتقدون انه جاحد لانه لايوقر فضائلهم المالوفة

ولا يثور على الرذائل التي تثيرهم .. والحق انه ليس بجاحد .. ولكن مايسمونه الفضيلة وما يسمونه الرذيلة من نوع لا يعنيه ابدا من نوع لا يمت بصلة الى مجموعة العناصر التي يبني الفنان منها حريته ، ومن الطبيعي اذاً ان يسخط عليه الناس العاديون ولكن هذا لا يصلح من شأنه ... إنه غير قابل للاصلاح .



لم اقدر الامر حق قدره حين صممت على ان اكرس بقية حياتي لكتابة المسرحيات بعد ان اصبت نجاحا في هذا المضمار .

لقد كنت سعيداً ، ناجحا ، منهمكا في العمل ، ورأسي يعج بالمسرحيات التي اردت ان اكتبها . . ولست ادري اهو نجاحي الذي لم يمنحني ماتوقعته ، ام ان ذا لك رد فعل طبيعي للنجاح . فما كدت اثبت قدمي وأنال الشهرة في ميدان كتابة المسرحية حتى بدأت تساورني ذكريات متدفقة من حياتي الماضية ، من وفاة والدتي وماأعقبه من انهيار اسرتي ، الى بؤس سنواتي الاولى في المدرسة التي اساءت تهيئتي لها طفولتي الفرنسية وزادتها لعثمتي صعوبة ، الى بهجة تلك الايام السهلة الرتيبة المثيرة في هيدلبرج ، الى اول مراحل اقتحامي للحياة الثقافية ، الى ضيق السنوات القليلة التي قضيتها في المستشفى الى ضجيج لندن ، وهذه الذكريات كلها كانت تخطر لي ملحة جداً ، سواء في نومي او اثناء نزهاتي ، او حين احضر تجارب المسرحيات ، او حين اكون في حفلة ، واصبحت حملا علي حتى قررت انني لن استعيد السلام النفسي الا اذا دونتها جميعا في رواية ، وعرفت انها ستكون طويلة واردت ان لايزعجني شيء ، فرفضت العقود التي كان المنتجون يلحون علي لقبولها واعتزلت المسرح مؤقتا .

وكنت قد كتبت رواية في الموضوعات نفسها حين قصدت اشبيلية بعد ان انهيت دراستي للطب . ومن حسن حظي أن « فشر انوين » رفض ان يعطيني الجنيهات المئة التي طلبتها ثمنا ، ورفض الناشرون الاخرون قبولها بأي ثمن ، ولولا ذاك لفقدت موضوعا كنت في ذلك الحين غير جدير بأن احسن معالجته بسبب حداثة سني . ومازالت المخطوطة موجودة ولكنني لم انظر اليها منذ ذلك الحين ، وقد صححت النسخة المطبوعة ولاشك في انها

تفتقر الى النضج افتقارا شديدا . وتبين لي انني لم استطع ان اصف الحوادث بطريقة معقولة لانني كنت حديث العهد بها ، و كانت تنقصني الوان من التجارب التي عملت على اغنــاء الكتاب الذي ألفته فيا بعد . ويبدو لي انه اذا كانت كتابة هذه الرواية الاولى لم تستطع في النهاية ان ترمي في لاشعوري ، تلك الذكريات التعيسـة التي عالجتها فما ذلك الا لأن المؤلف لايستريح نهائيا من وطأة موضوعاته ، الا اذا نشر الكتاب الذي يعالجها ، فحين يطرح الكتاب على الجمهور يكف عن كونه ملكا للمؤلف ، مهما كان الجمهور غير مكترث به ، ويتحرر الكاتب من العبء الذي اثقل كاهله . . كان اسم كتابي (جمال من الرماد) وهي جملة مقتبسة من (حزقيال) ولكنني وجدت ان هذا العنوان مسبوق اليه ، فأخترت بدلا منه عنوان احد كتب سبينوزا في علم الاخلاق فسميته (في - الرباط الانساني) .

وليس الكتاب سيرة ذاتية ولكنه رواية تعتمد على السيرة ، وتختلط فيهـا الحقيقة والخيال ، والانفعالات هي انفعالاتي ، ولكن الحوادث لاتروى كما حدثت تماما ، وبعضها نسبته الى بطل القصة اقتباسا من حياة اناس عاشرتهم ، لا من حياتي . وقد ادى الكتاب مهمته ، فعندما صدر الى العالم (عالم في غمرة حرب رهيبة مشغول بمآسيها الى درجة لا تتيح له ان يتكلف الالتفات الى مغامرات مخلوق روائي) شعرت انني تحررت الى الابد من تلك الالآم والذكريات التعيسة . وقد ضمنته كل ما عرفته حينذاك ، وبعد ان فرغت منه هيأت نفسي لانطلاقة جديدة .

- ٥٢

لقد وقعت فريسة للتعب . ولم يكن تعبي من الناس والافكار التي شغلتني طويلا، بل تعبت أيضاً من الناس الذين عشت معهم ، والحياة التي كنت اخوضها . وشعرت انني حصلت على اقصى مافي وسعي ان احصل عليه من العالم الذي كنت اتحرك فيه .. اعني نجاحي في كتابة المسرحية والوجود المشرف الذي تبع ذلك كالوسط الاجتماعي والولائم الضخمة في بيوت العظام والحفلات الراقصة الاخاذة ، وحفلات نهاية الاسبوع في البيوت الريفية ، وكذلك صحبة اللامعين الاذكياء من الناس ، كتابا ورسامين وممثلين ، والمغامرات الغرامية التي خضتها والصداقات المريحة التي انشأتها ، ورغد الحياة وطمأنينتها، وشعرت بالاختناق من جراء ذلك وصبوت الى طراز مختلف من العيش وتجارب جديدة، ولكنني لم ادر اين التمس ذلك ، ففكرت في السفر . وكنت قد تعبت من شخصي ، وخيل الي ان رحلة طويلة الى بلد ناء جدا قد تجددني . وكانت روسيا ملء اذهان الناس وقتئذ فخطر لي ان اقصدها مدة سنة واحدة ، واتعلم لغتها التي كنت اعرف مبادئها ، واغمر نفسي بجو تلك البلاد الشاسعة واسرارها ، واعتقدت انني ربما وجدت هناك شيئا يمد روحي بالقوة والغنى .. لقد كنت في الاربعين من عمري ، ولو انني اردت الزواج وانجاب الاطفال لاحسست ان القطار فاتني ، على انني اخذت أسلي نفسي بعض الوقت بتخيل الصور من حياتي الزوجية ، ولم اكن اهدف الى الزواج من امرأة معينة ، وما شغلني هو حالة الزواج نفسها ، فقد بدا الزواج دافعاً ضرورياً لنمط الحياة الذي صممته لنفسي ، وخيل اليّ انه يمنحني الأمان (لانني كنت ساذجا في بعض الامور لدرجة لاتصدق ، رغم انني جاوزت سن الحداثة ، واعتقدت انني فهمت العالم جيدا) ، الامان الذي يحميني من اضطرابات المغامرات الغرامية التي ربما تبدأ عرضيه ،ثم تجلب في مجراها

تلك التعقيدات المزعجة (لانها تحتاج عادة الى شخصين ، وما يمتع الرجل قد يكون سماً للمرأة) الامان الذي يمكنني من كتابة كل مااردت كتابته دون ان ابعثر وقتي الغالي او اتعرض للاضطراب الفكري ، لقد نشدت الامان والعيش الكريم واعتقدت انني انال الحرية التي ابغي ، وقد داعبتني هذه الخواطر بزواجي حين كنت مازال اعمل في رواية (في الرباط الانساني) ، وعلى نحو مايفعل الكتاب حولت رغائبي الى قصة رسمت في آخرها صورة للزواج الذي صبوت اليه ، وقد وجده القراء عامة اقل اقسام كتابي كفاية .

ولكن ترددي حسم اخيرا بحادث لم يكن في قدرتي ان اتحكم به ، فقد اعلنت الحرب ، وانتهى فصل من فصول حياتي وابتدأ فصل جديد .

كان لي صديق من الوزراء كتبت له اسأله ان يفعل شيئا ليساعدني اذا دعيت الى تقديم نفسي الى مكتب الخدمة العسكرية ، وخوفا من ان اكلف بعمل كتابي في انكلترا ، ورغبة في ان اخدم في فرنسا فقد التحقت رأسا بوحدة من سيارات الاسعاف ، ومع اعتقادي بانني لا اقل وطنية عن غيري الا ان وطنيتي كانت ممزوجه بتوقي الى التجربة الجديدة التي تقدمها لي الحرب ، فاقتنيت مفكرة منذ أن وطئت قدماي ارض فرنسا ، وكنت اسجل فيها مايحدث لي حتى اشتدت وطأة العمل الذي كان يكرهني على الارتماء في الفراش عند نهاية كل يوم . وقد استمتعت بالحياة الجديدة التي دفعت اليها ، وبخلوها من المسؤولية ، واسعدني ان اتلقى الاوامر لاداء هذا العمل او ذاك ، وانا الذي لم اعتد على الاوامر منذ ان كنت في المدرسة ، حتى اذا مانفذت الامر شعرت أن وقتي ملك مشيئتي ، وهو شعور لم اعرفه خلال عملي في الكتابة ، وعلى عكس ذلك ، كنت اشعر انه ينبغي عليّ ألا اضيع دقيقة واحدة ، اما في هذه الحالة فقد كنت ابذر ساعات طويلة في محادثات فارغة وضميري مرتاح . وقد احببت ان التقي بجماعات كبيرة من الناس ، واختزنت غرائبهم في ذاكرتي ، رغم انني لم امارس الكتابة حينذاك . ولم اتعرض لاي خطر معين وكنت تواقا لان اختبر شعوري عند تعرضي له ، وما كنت اعتقد انني شجاع ، وما كنت اظن ان بي حاجة لان اكون كذلك ، والفرصة الوحيدة التي اتاحت لي ان اختبر نفسي هي انفجار قنبلة في جدار (الجراند بلاس) في (ايبر) ، فقد انهار الجدار الذي كنت استند اليه لكي القي نظرة على (قاعة صانعي الأقمشة) التي دمرتها القنابل ، وكانت المفاجأة اقوى من ان تتيح لي مراقبة حالتي العقلية .

وبعد ذلك انتسبت الى دائرة المخابرات ، حيث بدا انني قد اكون اكثر فائدة مما

لو بقيت اقود سيارة اسعاف دون كفاية، وقد استهوى هذا العمل حاسني الخيالية وحاستي الساخرة. فالاساليب التي تعلمت ان استخدمها لمراوغة الاشخاص الذين يلاحقونـــني ، والمقابلات السرية مع العملاء في اماكن كريهة ، ونقل الرسائل بطرق ملفعة بالغموض، والتقارير التي تهرب عبر الحدود ، كل ذلك كان ضروريا بدون شك ، ولكنه كان يذكرني بما سمي حينذاك طريقة (مدخر الشلن) لان هذه الامور انتزعت واقعها من خارج نطاق الحرب ، ولم استطع ان اعدها اكثر من مادة يمكن ان استفيد منها يوما ما، وقد انتهى عملي بعد ان قضيت سنة في سويسرا ، وكنت قد تعرضت لاخطار كثيرة حيث كان علي ان اعبر بحيرة جنيف مهما كانت حدة الجو في ذلك الشتاء المرير. وتدهورت صحتي ولم يكن امامي ما اعمله ، فيممت شطر امريكا حيث كانت اثنتان من مسرحياتي على وشك ان تنتجا . واحببت ان استعيـد سكينة ذهني الذي اضطرب بسبب حمقي وغروري بأحداث لم يكن من الضروري ان اخوضها ،وهكذا قررت ان اقصد البحار الجنوبية . وكنت منذ ان قرأت في شبابي (المد والجزر) و (الحطام) اوغب في هذه الزيارة واردت كذلك ان افتش عن مادة لرواية تستند على حياة بول جوجان طالما شغلت نفسي بها .

وسافرت باحثا عن الجمال والخيال ، سعيدا لان المحيط العظيم يفصلني عن المشكلات التي ضايقتني . ووجدت الجمال والخيال وشيئاً آخر لم اتوقعه ابدا . لقد وجـدت نفساً جديدة ، فمنذ ان غادرت مستشفى سانت توماس عشت مع اناس جعلوا للثقـافة قيمة ، وانتهيت معهم الى ان الفن لا يضاهيه امر آخر في هذا العالم ، وبحثت عن المعنى في هذا الكون فلم اجد سوى الجمال الذي خلقه الانسان هنا وهناك . وعلى السطح كانت حياتي منوعة ومثيرة ، ولكنها كانت ضيقة في الاعماق ، والآن دخلت عالما جديدا وانتعش كل مافي من غريزة روائية ليتشرب الجديد الذي رأيت . ولم يكن جمال الجزر وحده هو الذي أسرني فقد هيأني لذلك (هيرمان ملفيل) و (بيير لوتي) ، وهو ، على كونه جمالا صعبا لا يفوق في رأيي جمال اليونان او ايطالية الجنوبية ، ولم تأسرني كذلك حياة الناس السهلة البدائية التي لا تخلو من المغامرة ، وانما اثارني ان اصادف اناســا غرباء بالنسبة لي

واحدا اثر الاخر . وكنت كعالم طبيعي يأتي الى بلاد تكثر فيهـــا الحيوانات وتتنوع بشكل لا يحصره خيال . وقد عرفت بعض هؤلاء الناس ، اذ كانوا نماذج قديمـة قرأت عنها ، وقد اعطوني شعورا بالمفاجأة المبهجة هو الشعور نفسه الذي خالجني في ارخبيل الملايو حين رأيت على غصن شجرة طائراً لم اره من قبل الا في حديقة الحيوان ، وتوهمت للوهلة الاولى انه ربما كان هاربا من قفص . ولم آلف بعض السكان وانتـــابتني هزة منهم كما انتابت (والاس) حين اكتشفت نوعا من المخلوقات جديدا ، ولكنني وجدت مخالطة الناس على العموم سهلة ، وكانوا من جميـع الانواع ، والحق أن تنوعهم كان خليقاً بان يحيرني ، ولكن قوى الملاحظة عندي كانت مدربة تدريبا جيدا ووجدت من الممكن ، ودون جهد ان اختزن كلا منهم في شعوري ، وقليلون منهم عرفوا الثقافة ، وجلهم تعلموا الحياة من مدرسة تختلف عن مدرستي ، ووصلوا الى نتائج مختلفة وسلكوا نهجا اخر في الحياة ، ولم استطع ، بفضل روح الدعابة عندي ، ان أظل معتقدا ان حياتي اعلى مستوى منهم ، لقد كانت تختلف عنهم .. ان حيواتهم ايضا كونت نفسها ضمن نمط قائم على نظام خاص وتناسق نهائي لا تخطئه العين النافذة .

لقـــد هبطت من عليائي وبدا لي ان هؤلاء الناس يتمتعون بحيوية اكثر من الرجال الذين عرفتهم من قبل ، انهم لا يسطعون كلهيب جوهري صلب ، وانمـا كنار حارة آكلة ذات دخان ، وفي عقولهم ضيق واضـــح وفي نفوسهم تحزب ، وهم اميل الى الغباء والبلادة . ولم اكترث لذلك كله . لقد كانوا من طبيعـة مختلفة وكفى . وفي البـــلدان المتحضرة تلطف الحاجة الى التكيف مع قواعـــد سلوكية معينة ، المنحى العقلي للفرد ، وتقوم الثقافة بوظيفة القناع الذي يخفي وجوههم . اما هنا فالنـــاس يظهرون على حقيقتهم ، وهذه المخلوقات المتباينة ، في حياتهـا التي تحتفظ بقدر وافر من البدائية ، لا تشعر بالحاجة الى التكيف مع المقاييس العرفية وقد اتيـح لخصائصهـا ان تنمو دون اية رقابة . واما في المدن الكبرى فيشبه الناس مجموعة من الحجارة رصت في حقيبة واخذت اطرافها تتآكل بسبب الاحتكاك ، حتى اصبحت في النهاية ناعمة كالرخام .

اما هؤلاء الناس فلم يتح لاطرافهم ان تتآكل ، واحسست انهم اقرب الى عناصر الطبيعة البشرية من أي قوم آخرين ، وخفق قلبي لهم كما فعل منذ سنوات امام زوار العيادة الخارجية في مستشفى سانت توماس . وقد ملأت مذكرتي بأوصاف مختصرة لمظهرهم وشخصيتهم ، وان خيالي ليلتهب بهذه الانطباعات الغفيرة بسبب اشـارة او حادثة او مصادفة سعيدة ، فتبدأ القصص بنسج خيوطها حول فئات منهم كانت اكثر حيوية من غيرها .



٥٤ -

عدت الى امريكا وارسلت بعد مدة في مهمة الى بتروغراد ، وقد ترددت في قبول هذا العمل الذي بدأ لي انه يتطلب مؤهلات اعتقد انني لا املكها ، ولكن تبين انه لا يوجد في ذلك الحين من هو اجدر مني ، واعتبرت مهنة الكتابة تغطية ناجحة للعمل الذي أنيط بي ، ولم اكن في حالة صحية جيدة ، وخمنت بما تبقى لي من معرفة طبية ، معنى النزيف الدموي الذي عانيت منه ، واثبتت صورة الاشعة بوضوح انني مصاب بسل في الرئتين ، ولكنني لم أطق تفويت هذه الفرصة مـدة طويلة بالتأكيد في بلد تولستوي ودوستويفسكي وتشيخوف ، وخطر لي انني استطيع ان اجد لنفسي اشياء ذات قيمة خلال فترات الراحة التي يتيحها لي عملي ، وهكذا اثبت قدمي بعناد في ميدان الوطنية ، واقنعت الطبيب الذي استشرته ان مخاطرتي لم تكن في غير محلها في مثل الظروف المأساوية التي كانت تحيط بالبلاد ، وبدأت رحلتي بروح معنوية عالية ، وكمية غير محدودة من النقود تحت تصرفي ، واربعة من التشيك يمثلون دور ضباط اتصال بيني وبين الاستاذ مازاريك الذي كان يسيطر في انحاء مختلفة من روسيا على ما يقرب من ستين الفا من المواطنين . وقد انتعشت لشعوري بمسؤولية المنصب . وقمت بمهمة مخبر خاص ، يمكن انكاره عند الضرورة ، وزودت بتعليمات للاتصال بالفئات المعادية للحكومة وأن اجد طريقة لابقاء روسيا في الحرب ومنع البولشفيك وانصارهم من (القوى المركزية) من استلام السلطة . وليس من الضروري ان اخبر القارىء انني اخفقت في هذه المهمة اخفاقاً مؤسفاً ، ولا ادعوه لتصديقي اذ قلت انه كان من الممكن ان تنجح مهمتي لو ارسلت قبل ستة شهور على الاقل ، وقد انفجرت الثورة بعد ثلاثة شهور من وصولي وقضت على كل خططي .

ورجعت الى انكلترا مزودا بتجارب ممتعة. وقد سنحت لي الفرصة لاعرف معرفة جيدة رجلاً من اغرب الرجال الذين قابلتهم في حياتي ، ذلك هو « بوريس سافينكوف » الارهابي الذي اغتال «تربوف» والدوق الكبير «سرجيوس» ، ولكنني عدت من روسيا وقد كشفت بصيرتي وأسقمتني روسيا والروسيون لما رأيته في كل مكان من اغراق في اللغو حيث ينبغي العمل ، وتخاذل ، وخمول حيث لا ينتهي الخمول الا الى الدمار ، وادعاءات لا تعرف حدوداً وبعد عن الصدق ونضوب في الاخلاص . واشتدت علي وطأة المرض ايضاً لانني كنت في منصب لا يساعدني على الاستفادة من المؤن الوافرة التي كانت تتدفق على السفارات لتؤهل رجالها لخدمة الاوطان ببطون ممتلئة ، واكتفيت (كالروس تماماً) براتب غذائي هزيل . و1 حين وصلت الى ستوكهولم حيث كان علي ان انتظر يوما كاملا وصول المدمرة التي ستنقلني في بحر الشمال ، قصدت بائع حلوى واشتريت رطـلا[1] من الشوكولاته واكلته في الشارع) ثم جاءت خطة لارسالي الى رومانيا لامر يتعلق بمؤامرة بولونية نسيت تفصيلاتها ، ولكن الامر لم يتم ، ولم آسف لانني كنت اسعل من اعماقي ، وجعلتني الحمى المستمرة قلقا طيلة تلك الليالي ، وقصدت ابرز اختصاصي في لندن فأرسلني الى مصحة في شمال سكتلندا حيث كانت مصحتا دافوس وسانت مورتز غير ملائمتين في ذلك الحين ، ودام مرضي سنتين .

كان الوقت متراخياً ، جداً وشعرت للمرة الاولى في حياتي بمتعة الاستلقاء في السرير. وما ادهش ماتبدو الحياة غنية عند من يضطجع في السرير سحابة نهاره ويجد امامه أموراً كثيرة تشغله ، وقد ابهجتني غرفتي الخاصة بنافذتها الرحبة المفتوحة في ليالي الشتاء ذات النجوم . واحسست احساساً ممتعاً بالامان والانعزال والحرية ، وكان الصمت ساحراً كأنما يشمل فراغاً لاحد له ، وبدت روحي في وحدتها مع النجوم قادرة على خوض اية مغامرة ، وكان خيالي ناشطاً بشكل لم اعهد مثله في حياتي كأنه زورق يندفع مع الريح تحت ضغط الشراع . ومرت الايام الرتيبة بسرعة يصعب تصورها وليس فيها

---

(1) المقصود هنا هو الرطل الانكليزي .

من اثارة سوى خواطري والكتب التي اقرؤها ، وتركت فراشي بحرقة .

ودخلت عالماً غريباً بعد ان تحسنت صحتي ، وكنت اقضي جزءاً من نهاري مع زملائي المرضى الذين احسست انهم يشبهون اهالي البحار الجنوبية في تفردهم وطرقهم المختلفة في الحياة ، وفيهم من امضى عدة سنوات في المصح ، وقد حرفهم مرضهم وحياتهم الغريبة الشجية ، مما أحدث التواءً وتقوية وانها كا في شخصياتهم كما كانت شخصيات الاهالي في ساموا وتاهيتي تضعف وتقوى وتتلوى بفعل الطقس الرخو والبيئة الغريبة . واعتقد انني تعلمت الكثير عن الطبيعة البشرية في ذلك المصح ، وما كان لي ان اتعلم ذلك لولاه.



٥٥

شفيت من مرضي بعد ان انتهت الحرب ، ويممت شطر الصين وشعوري هو شعور أي مسافر مهتم بالفن ، تواق لرؤية مايستطيع رؤيته من سلوك شعب غريب ، له حضارة قيمة مترامية في القدم ، ولكنني ذهبت وفي نفسي الرغبة في أن اقابل اناساً من مختلف الانواع لاوسع تجربتي بالتعرف اليهم ، وقد فعلت ذلك وملأت مذكرتي بأوصاف امكنة واشخاص ، وبالقصص التي اوحوا الي بها ، واخذت أشعر بالفائدة النوعية التي أجنيها من السفر بعد ان كانت قبل شعوراً غريزيا . وهذه الفائدة تحرير للروح من جهة وجمع للانماط المختلفة من الشخصيات ، خدمة لاهدافي ، من جهة اخرى وبعد ذلك سافرت الى عدة بلدان ، وقطعت دزينة من البحار في مختلف انواع السفن ، وسافرت بالقطار ، وبالسيارة ، وبالعربة ، وعلى الاقدام ، أو على متون الخيل ، وتركت عيني مفتوحتين على الشخصيات ، والنفوس ، والشذوذ ، واخذت اعرف بسرعة الاماكن التي يمكن ان تفيدني ، واستقر فيها حتى انجز ما اريد ، وأما الاماكن الاخرى فكنت امر بها مرور الكرام ، وقد خضت كل تجربة اعترضتني .. وفي حدود مقدرتي ، كنت اوفر لنفسي اسباب الرخاء في اسفاري ، وبدا لي ان تعمد الخشونة من اجل الخشونة سخافة ليس لها مبرر ، ولكنني لا اذكر انني ترددت في عمل أي شيء لانه خطير او غير مربح . ولم أكن متفرجا بارعا ، فقد خلع الآخرون حماسة هائلة على مناظر عالمية عظيمة لم اكترث بها الا قليلا عند رؤيتها ، ولذلك فضلت الاشياء العادية كبيت من الخشب يعشش بين أشجار الفاكهة ، او التواء خليج صغير تحف به اشجار جوز الهند ، او مجموعة من الخيزران على حافة الطريق . وكان اهتمامي الاول بالناس واساليب حياتهم ، واني لاخجل من التعرف على الغرباء ولكن الحظ اسعفني برفيق ذي لباقة اجتماعية لاتقدر ، في نفسه ميل

بحب مكنه من ان يكسب الاصدقاء بسرعة في السفن والنوادي والمقاصف والفنادق، وبفضله استطعت ان اظل على اتصال مع عدد هائل من الاشخاص ما كنت لاعرفهم، لولاه الا عن بعد .

وكنت اوسع تعارفي معهم ضمن الحدود التي رغبت فيها ، وكان تآلفهم معي ناجماً عن وحدتهم وضجرهم ، ولا ينطوي الا على اسرار قليلة ، وتقطعه الفرقة الى غير رجعة ، كان وثيقاً لان حدوده مقررة سلفاً . والآن اعود بالذكرى الى ذلك الموكب الحافل فأجد انه مامن احد الا كان لديه شيء يفضي به الي وانا مسرور ، وخيل الي ان نفسي تنبض بمثل حساسية عدسة المصور ، وما كان يعنيني كثيراً ان تكون الصور التي آخذها حقيقية ، وإنما حصرت اهتمامي في اكون بمساعدة خيالي ، من كل شخص صادفته ، انسجاماً متقناً ، وكانت تلك لعبة سارة جداً لا تضاهيها اية لعبة اخرى شغلت بها في حياتي .

وكثيراً ما نقرأ انه مامن انسان يشبه تماماً انساناً آخر ، وان كل انسان فريد من نوعه ، وهذا صحيح في بعض النواحي ، ولكنه من نوع الحقائق التي يسهل ان تدخلها المبالغة ، وفي التجربة العملية نجد الناس جميعاً متشابهين . وهم يقسمون الى انماط قليلة متباينة ، والظروف المتشابهة تصبهم في قالب واحد ، ان هناك صفات معينة تستتبع دوماً صفات اخرى ، وتستطيع ، كعالم الاثريات الحيوانية ان تعيد بناء هيكل الحيوان من عظمة واحدة .. ان الشخصيات التي كانت نمطاً شائعاً في الادب منذ ثيوفراستس والشخصيات المسلية في ادب القرن السابع عشر تبرهن على ان الناس موزعون على بضعة اصناف متمايزة ، وهذا هو في الحق اساس الواقعية التي تعتمد في جاذبيتها على العرفان . ان الاسلوب الابداعي يصرف اهتمامه الى الشاذ في حين يعني الواقعي بالعادي . والظروف المنحرفة انحرافاً خفيفاً ، والتي تحيط بالذين يعيشون في اقطار تميل فيها الحياة نحو البدائية او تكون بيئتها غريبة ، هذه الظروف تؤكد انهم عاديون ذوو شخصية خاصة ، وحين يوجد فيهم شيء من الشذوذ ، وهو امر يحدث دائماً ، فانه يتيح لهم انعدام الضوابط

المعتادة لتنمية انحرافهم تجربة لا سبيل اليها في الاقطار الاكثر تمدنا الا بمشقة عظيمة ، فاذا هناك مخلوقات يصعب ان تعالج باسلوب الواقعية ، وقد اعتدت ان أواصل سفري الى ان استهلك طاقتي على التلقي ، وعند ذاك اجد انني اقابل الناس مفتقراً الى القدرة على إعمال خيالي لاكسابهم شكلاً وانسجاماً ، فاعود الى انكلترا لاصنف انطباعاتي واستريح ، حتى اشعر انني استعدت قدرتي على الهضم والتمثل .

واخيراً ، بعد سبع من الرحلات فيما اظن وجدت الناس سواء في معنى من المعاني ، فقد قابلت انماطاً من الناس بعد انماط ، وتقلصت قدرتهم اخيراً على اثارة شغفي . واستنتجت انني وصلت الى نهاية قدرتي على ان انظر بحماسة وفردية الى الناس الذين قطعت المسافات لاراهم ، لانني ما شككت قط انني كنت اضفي عليهم من عندي الأمزجة العقلية التي اكتشفتها فيهم ، وهكذا قررت ان السفر لم يعد مجدياً لي . فقد كدت اموت مرتين من الحمى ، وكدت اغرق ، واطلقت عليّ النيران من قاطعي الطرق ، واخيراً سرني ان استأنف اسلوباً في الحياة اكثر تنظيماً . وكنت أعود من كل رحلة وانا مختلف بعض الشيء .. وقد قرأت كثيراً في شبابي ، لا لأنني حسبت ان ذلك مفيد لي ، ولكن بتأثير حب الاستطلاع والرغبة في التعلم . وسافرت لان السفر يسليني ، ولأنه بدني عادة قد تنفعني ، ولم يخطر لي ان تجاربي الجديدة تترك آثاراً في نفسي ، ومضى زمن طويل قبل ان اكتشف كيف عملت هذه التجارب على تشكيل شخصيتي . واثناء اتصالي بهؤلاء الناس الغريبين فقدت الليونة التي اكتسبتها حين كنت أعيش حياة الاديب الرتيبة ، كحجر من الحجارة داخل حقيبة ، واتيح لي ان استعيد اطرافي المتآكلة ، وثبت الى نفسي اخيراً .

لقد كففت عن السفر لانني اقتنعت ان السفر لم يعد قادراً على إطرافي بأي جديد ، وانا نفسي ، اصبحت عاجزاً عن أي تطور ، فقد خلعت ثوب الغرور الثقافي واصبحت في حالة تقبل كامل ، ولم اطلب من أي انسان اكثر مما يستطيع ان يعطي ، وتعلمت الاعتدال ، وارتحت الى طيبة زملائي ولم تضايقني رداءتهم . لقد اكتسبت استقلال الروح ،

وتعلمت ان اسلك طريقي الخاص دون ان اهتم بما يقوله الآخرون ، ونشدت الحرية لنفسي . كنت على استعداد لان امنح الآخرين حرياتهم . ومن السهل ان تضحك وتهز كتفيك حين يسيء الناس التصرف مع غيرهم ، وأصعب من ذلك بكثير ان تفعل الشيء نفسه حين يسيئون اليك ، غير انني لم اجد هـــذا الموقف مستحيلاً . وقد وضعت ما انتهيت اليه بشأن الناس على فم رجل قابلته على ظهر سفينة في بحار الصـــين : (يا أخي سأعطيك رأيي في الناس بجملة واحدة) وجعلته يقول : (ان قلوبهم في مكانهـا الصحيح ولكن عقولهم اعضاء عديمة الكفاية) .



-٥٦-

احببت دوماً ان اترك الاشياء تتخمر في ذهني مدة طويلة قبل ان ادونها على الورق، ولم اكتب مجموعتي القصصية الاولى عن البحار الجنوبية الا بعد أربع سنوات من تسطير ملاحظاتي عنها ، وقد بدأت عملي الادبي بكتابة هذه القصص وكان كتابي الثالث مجموعة اخرى من ست قصص لم تبلغ مستوى جيداً . وبعد ذلك جربت ان اكتب القصص المجلات بين حين وآخر وضغط علي وكلائي كي اكتب باسلوب مرح ولكنني لم اوهب هذه القابلية ، وكنت عابساً ، ساخطاً ، هجاء ، وهكذا لم تنجح جهودي في ارضاء المحررين وكسب شيء من النقود الا نادراً .

وأول قصة كتبتها في هذه المرحلة سميتها (المطر R ain) وبدا انني لن انال حظاً منها اكثر مما نلته في القصص التي كتبتها في المرحلة الاولى من شبابي ، لان المحررين رفضوها واحداً بعد الآخر ، ولكنني لم أبال بذلك واصررت على الاستمرار ،فكتبت ستا من القصص نشرت جميعها في المجلات ، ثم جمعتها معا في كتاب فلاقت نجاحاً مرضياً لم اكن اتوقعه ، وقد اعجبني شكلها الفني ، ونعمت مدة اسبوعين أو ثلاثة بصحبة الاشخاص الذين خلقهم خيالي في هذه القصص ثم انتهى امرهم .. ان الوقت لا يتسع أمام المؤلف كي يعيش طويلاً مع اشخاصه الذين انتهى منهم ، بعكس الاشهر الطويلة التي يقضيها معهم في مرحلة التأليف . وهذا النوع من القصص ، حيث تتألف القصة الواحدة من حوالي اثني عشر الف كلمة ، اتاح لي مجالاً كافياً لطرح موضوعي ، ولكنه اضطرني الى اقتضاب ارتحت له بفضل تمرسي بكتابة المسرحية .

ومن سوء حظي انني بدأت بكتابة القصص القصيرة جدا حين اخذت الطبقة

الاولى من كتاب انكلترا وامريكا تذعن لتأثير تشيخوف ، ذلك ان عالم الادب يفتقر الى التوازن ، فاذا استهوته طريقة ما ، مال الى اعتبارها قانونا منزلا من السماء ، لا زياً عابرا ، وفي ذلك الحين كان الرأي السائد هو ان كل من وهب ميولا فنية واراد أن يكتب القصة القصيرة ، ينبغي أن يحذو حذو تشيخوف ، وكثيرون من الكتاب بنوا شهرة لانفسهم بتطعيم (سورى) أو (منشيفان) و (بروكاين) أو (كـلافام) بالسوداوية الروسية ، والتصوف الروسي والضياع الروسي ، واليأس الروسي ، والعقم الروسي ، وتشتت الغرض الروسي . وينبغي أن نقر ان تقليد تشيخوف ليس شاقا ،فعلى حد معرفتي هناك عشرات من الروس اللاجئين يقومون بهذا العمل على حسابي ،لانهم يرسلون الي قصصهم لكي اصحح لغتها الانكليزية ، ثم ينقمون علي لانني لا استطيع ان احصل لهم من المجلات الامريكية كميات وافرة من النقود . لقد كان تشيخوف كاتباً ممتازاً للقصة القصيرة وقد عرف نقائصه فحاول أن يحسب حسابها في فنه ، ومنها انه كان عاجزاً عن تأليف قصة درامية مترابطة كتلك القصص التي تستطيع أن تسردها على مائدة العشاء مثل (التراث L'Héritage) او (القلادة La Parure) ، وكان تشيخوف الرجل ، ذا ميول متفائلة عملية ، ولكن تشيخوف ، الكاتب ، كان من طبقة سوداوية مرهقة ، جعلته يشيح باشمئزاز عن اعمال العنف والترف الاسلوبي . وما مرحه اللاذع غالباً الا رد فعل منهك لانسان استثيرت احاسيسه المستوفزة بطريقة خاطئة ، ونظر الى الحياة نظرة رتيبة ، ولم تتضح الحدود الفردية لجمهوره ، وكأنه لم يكن شديد الاهتمام بهم كأشخاص ، ولعل هذا يفسر قدرته على ان يشعرك بأن كلا منهم جزء من الآخر ، كالخلايا الغريبة، تتلمس طريقها لتتحد بعضها مع بعض ، وهذا الاحساس بغموض الحياة وعمقها اعطى تشيخوف ميزته الفريدة التي لم يدركها مقلدوه .

لست ادري ان كان في وسعي ان اكتب القصص على طريقة تشيخوف .. على انني لم ارد ذلك ، واحببت ان اكتب قصصا محكمة العقدة تسير في خط لاينكسر من مستهلها حتى نهايتها . وقد رأيت في القصة القصيرة سردا لحادثة واحدة روحية أو مادية ،

تكتسب وحدة درامية ، بحذف كل ماهو غير ضروري لايضاحها . ولم اخش مايسمونه اليوم فنيا (بالنقطة the Point) وبدا لي أنها تستدعي الحشية في حالة واحدة فقط ، عندما تكون غير منطقية ، واعتقدت ان سوء التقدير الذي لحقها ناتج فقط عن كونها في الاغلب مصطنعة لمجرد التأثير دون اسباب مشروعة ، وباختصار احببت ان انهي قصصي القصيرة بنقطة واحدة لابنقاط مبعثرة .

ولهذا السبب ، فيما اعتقد ، لاقت قصصي في فرنسا تقديرا يفوق مـــا لاقته في انكلترا . ان رواياتنا الكبرى فضفاضة لا شكل لها ، وقد سر الانكليز ان يضيعوا انفسهم في هذه المؤلفات الضخمة المتطاولة الأليفة ، ولكن رخاوة النسج ، والسلوك غير المرسوم في القصة غير المنظمة ، وتجوال الشخصيات العجيبة ودخولها في القصة وخروجها دون ان يكون لها صلة قوية بالموضوع الاساسي ، كل اولئك اعطى القصة الانكليزية معنى واقعيا خاصا ، وعلى نقيض ذلك تعطي القصة الفرنسية احساسا جادا بعدم الارتياح ان المواعظ التي وجهها هنري جيمس الى الانكليز على شكل قصص اثارت اهتمامهم ، ولكنها اثارت تأثيرا ضئيلا في سلوكهم العملي ، وما ذاك الا لان شكلها الفني مدعاة للريبة ، ويجدونها مفتقرة الى الهواء الطلق ، ويتضايقون من شدة ضبطها ويشعرون ان الحياة تنسل من يد المؤلف حين يفرض على مادته قالبا متعمدا . والناقد الفرنسي يطلب من القطعة الروائية ان تقسم الى بداية ، فعرض ، فخاتمة ، وان تفضي اليك مباشرة بما يتعلق بالموضوع الاساسي ، ولعلي اكتسبت احساسا بالشكل يرضي ذوق الفرنسيين من الفتي المبكرة جدا مع موباسان ، ومن تمرسي بالفن المسرحي ، وربما بتأثير من بنيتي العقلية ، وقد وجدوا ، على اي حال انني لست مسرفا في الرقة ولا شديد الاعتناء باللفظ .

- ٥٧ -

نادرا ما تمد الحياة الكاتب بقصة جاهزة تماما ، وفي اغلب الاحيان تكون الحقائق متعبة جدا ، وهي تعطي ايحاءات تثير الخيال ولكنها ميالة عندئذ الى ممارسة سلطة لا تكون الا هدامة ، والمثال التقليدي لهذه الحالة واضح في (الاحمر والاسود Le Rouge et le Noir) وهي رواية عظيمة ، ولكن هناك اجماعا على ان نهايتها غير كافية ، وليس صعباً العثور على السبب ، فان ستاندال استقى فكرتها من حادث كان له دوي عظيم في ذلك الحين ، اذ قتل كاهن شاب خليلته وحوكم واعدم ولكن ستاندال لم يضع في بطله جوليان سوريل جزءا كبيرا من نفسه فقط ، بل كثيرا مما ود لو يكونه وهو يشعر بـــأنه لم يكنه ، وبذلك خلق واحدا من أمتع الاشخاص في القصة ، وسارت قصة متماسكة معقولة حتى ربعها الاخير ، ولكنه وجد نفسه في النهاية مضطرا للعودة الى الحقائق التي استوحى منها قصته . ولم يتحقق له ذلك با كراه ، بطله على ان يسلك سلوكا لا يتفق مـع شخصيته وذكائه . والصدمة هنــــا قوية لدرجة تجعلك تكف عن التصديق ، وحين تكف عن التصديق في الرواية ينتهي أمرها لك . والمبدأ الصحيح هو ان تطرح الحقائق جانبـا لذا كانت لا تتفق مـــع منطق شخصيتك ، ولست ادري كيف كان يجب ان ينتهي ستندال من روايته ، ولكنني اعتقد انه يصعب تصور نهاية اردأ من الخاتمة التي اختارها .

وقد وجه الي اللوم لانني اخترت شخصياتي الروائية من اشخاص احياء ، وخيل الي بعد ما قرأت النقد الكثير الذي كتب عني ان هذا العمل لم يقم به احد قبلي ، وهذا هراء . لقد جرت العادة منذ بدأ الناس يؤلفون ان تكون هناك اصول واقعية لما يخلقه المؤلفون ، واعتقد ان الباحثين يعطون اسما للغني النهم الذي استخدمه « بيترونيوس »

نموذجاً في « تريما الكيو » ، كما أن تلامذة شكسبير يجدون اصلا للسيد جستيس شالو .
وكذلك (سكوت) الذي كان مستقيماً وفاضلا جداً فقد رسم صورة مريرة لابيه في أحد كتبه ثم جملها في كتاب آخر أكثر ارضاء بعد أن لطف كر السنين من حدته . وقد كتب ستندال في احدي مخطوطاته اسماء الاشخاص الذين استوحى منهم شخصياته ، وصور ديكنز - كما نعلم - أباه في السيد ميكوبر ، وكذلك (لي هنت) في (هارولد سكمبول)
وصرح تورجنيف انه لم يستطع ان يخلق شخصية مالم ينطلق خياله في البدء من شخص حي . واني لارتاب في الكتاب الذين ينكرون اعتمادهم على اشخاص واقعيين ، واظنهم يخدعون انفسهم (وهذا ليس مستحيلا مادمت تستطيع أن تكون قاصاً ناجحاً دون أن تكون شديد الذكاء) أو انهم يخدعوننا . . وحين يَصْدُقون القول ولايكون في ذهنهم فعلا أي شخص واقعي معين ، احسب انهم إذ ذاك يكونون قد استقوا شخصياتهم من ذاكرتهم لا من غريزة الخلق عندهم . وما أكثر ماقابلنـــا (دارتانان) و (السيدة برودى) و (القس غرانتلي) و (جين أير) و (جيروم كوانيارد) تحت اسماء وأثواب مختلفة ، ولكن اقول ان اختيار الشخصيات من نماذج انسانية موجودة فعلا ليس امراً مشتركا بين جميع الكتاب ، بل هو شيء ضروري . ولست أدري لم يخجل اي كاتب من الاعتراف به ، وكما قال تورجنيف : لن تستطيع أن تعطي لما تخلقه حيوية ومزاجاً عقلياً ، مالم يكن في ذهنك انسان معين .

واصر على أنه خلق . . فنحن نعرف القليل جداً حتى عن الاشخاص الذين تربطنا بهم معرفة وثيقة ، ولسنا نعرفهم معرفة تؤهلنا لأن نحولهم الى صفحات في كتاب يبدون فيها مخلوقات انسانية كاملة . ان معالجة الناس في حياتهم العادية صعبة جداً ، لانهم مضللون ، غامضون ، متناقضون غير منسجمين ايضاً والكاتب لاينسج اشخاصه من الحياة بل يأخذ منهم مايشاء ، كبعض الخصائص التي لفتت انتباهه ، أو لفتة ذهنية الهبت خياله ، ومن ثم يبني شخصيته الفنية ، ولا يعنيه وجود تشابه حقيقي بين الاصل والصورة ، وإنما يهمه أن يخلق انسجاماً متقناً ملائماً لاهدافه . وربما كان الفريق بين العمل المنجز والاصل عظيماً ، حتى ان الكاتب ليتهم بتقليد شخص ما في حين يكون في ذهنه شخص آخر ، واحسب أن الكتّاب

ينبغي ان يكونوا معتادين على مثل هذه التهم . يضاف الى ذلك ان المصادفة هي التي تجعل الكاتب يختار شخصياته من بين اناس يعرفهم معرفة وثيقة او سطحية ، وقد يكفيه احياناً أن يكون قد لمح احدهم في مقهى ، او ثرثر معه ربع ساعة في غرفة التدخين في الباخرة . ان كل ما يحتاجه هو تلك القاعدة الخصبة المرنة التي يستطيع أن يبنيها معتمداً على تجربته في الحياة ، ومعرفته بالطبيعة البشرية ، وحدسه الخاص .

ومثل هـذا العمل خليق بأن ينساب بسهولة ، لولا حساسية الاشخاص الذين يتخذهم المؤلف نماذج لفنه .. ان أنانية الانسان ضخمة جداً ، بحيث ان كل من قابل مؤلفاً يأخذ في البحث عن صورته في كتابات ذلك المؤلف ، واذا اقنعوا انفسهم ان هذه الصورة او تلك مأخوذة عنهم فلا بد ان يشعروا بمرارة الخيبة حين يجدون فيها بعض النقائص . ومع انهم يكشفون اخطاء اصدقائهم بجرية ، ويضحكون من سخافاتهم ، إلا ان غرورهم لهائل يحول دون اعترافهم بأن لهم بدورهم ، اخطاء وسخافات . ويزداد الامر سوءاً بسبب اصدقائهم الذين يؤذونهم ، اذ يظهرون ويظهرون التعاطف معهم عند نقمتهم . ولا يخلو الامر كذلك من الدجل ، واحسبني لست الكاتب الوحيد الذي ناله الاذى من النسوة اللواتي ادعى بعضهن انني اقمت معهن ، ثم جحدت ضيافتهن فيما كتبته عنهن ، مع انني لم اعرفهن ابداً ، بل لم اسمع بهن فضلا عن ان اكون اقمت معهن ! انهن مسكينات يقتلهن الغرور ، وحياتهن فارغة ، وقد تعمدن أن يشبهن انفسهن ببعض الشخصيات المؤذية في قصصي كي يعطين لانفسهن بعض الشهرة في الحلقات المحدودة التي يغشينها .

واحياناً يختار الكاتب انساناً عادياً ويخترع منه شخصية شريفة مقترنة بشجاعة ، وذلك لانه يرى فيه بعض المزايا التي لا يراها أقرانه ، وفي هذه الحالة الشاذة لا يمكن التعرف على الشخصية الاصل ، ولكن حين يعرض الكاتب شخصاً ذا نقائص ومثالب مضحكة يسارع الناس الى تعيين اسم له ، مما اضطرني ان استنتج اننا نعرف اصدقاءنا بعيوبهم لا بمزاياهم . والكاتب نادراً ما يرغب في الحاق الاذى ، فهو يستخدم كل الوسائل لحماية الشخصيات الاصلية ، كأن يضع الشخصيات الفنية في أماكن مختلفة عن الاصل ، ويعطيها وسائل اخرى للعيش ، وربما يغير من طبقتها الاصلية ، وما لا يسهل عليه هـو

تغيير مظهرها . ان الخصائص الجسدية للانسان تؤثر في شخصيته ، وبالمقابل يعبر مظهره عن شخصيته ضمن الخطوط العامة على الاقل ، وليس في وسعك ان تجعل الطويل قصيراً وتبقي له خصائصه النفسية السابقة ، اذ ان طول الرجل يسبب له نظرة خاصة الى بيئته وبالتالي يؤثر في شخصيته . وليس في وسعك ان تجعل السمراء شقراء لتمسح الآثار ، وما عليك الا ان تبقي الاشخاص كما هم والا اضعت الخصائص النفسية التي دفعتك لاختيارهم دون غيرهم ، وليس لاحد حق في ان ينتقي شخصية في كتاب ويزعم انه المقصود بها وجل ما يستطيع قوله انه كان المادة التي اوحت بالشخصية ، واذا كان فيه فضلة من عقل فلابد ان يسر بذلك لا أن يتضايق منه ، وقد يوحي اليه ابداع الكاتب وحدسه بأمور يحسن به أن يعرفها عن نفسه .

- ٥٨ -

لا يخامرني اي وهم حول مكانتي الادبية ، وفي بلد لم يتجشم مشقة الحديث الجدي عني سوى ناقدين مهمين ، اما الشبان الاذكياء فلا يلقون بالا اليّ حين يكتبون مقالات عن القصص المعاصر ، ولست احقد عليهم ، فذلك امر طبيعي جداً . انني لم امارس الدعاوة في حياتي الادبية ، وقد ازداد جمهور القراء زيادة هائلة خلال السنوات الثلاثين الاخيرة ، ونشأت كتلة ضخمة من القراء الجاهلين الذين يبحثون عن معرفة تكتسب بأقل جهد ، ويحسبون انهم يتعلمون شيئاً حين يقرؤون روايات تقدم فيها الشخصيات آراء حول موضوعات الساعة ، فاذا ماطعمت هذه الروايات ببعض المغامرات الغرامية هنا وهناك ،اصبح القراء اقدر على هضم ماهيأ لهم من معلومات وآراء .لقد كانت الرواية تعد ميداناً صالحاً لعرض الافكار ، فرغب عدد كبير من الروائيين ان ينظر اليهم كقادة للفكر وجاء انتاجهم اقرب الى الصحافة منه الى فن القصص بما انطوى عليه من قيمة اخبارية ، وعيبه انه اصبح بعد برهة قصيرة غير مقروء ، كصحيفة الاسبوع الماضي تماماً ، على ان حاجة هذا الجمهور الكبير الجديد الى المعرفة ادت الى ظهور عدد من الكتب تعالج بلغة مبسطة الموضوعات ذات الفائدة العامة ، كالعلم ، والتربية ، والشؤون الاجتماعية ، وغير ذلك . ولاقت هذه الكتب نجاحاً كبيراً قضى على رواية الدعاوة . على ان هذا الطراز من الرواية حين يوجد فانه يقدم مادة للمناقشة اوفر مما تقدم رواية الشخصية او المغامرة

وقد اخذ النقاد المثقفون وقراء الرواية الجديون يعطون اكثر انتباههم الى الكتاب الذين يظهرون قدرة على تقديم جديد في الطرق الفنية ، وحق لهم ذلك ما دامت

التجديدات التي يقدمونها تعطي نوعا من النضارة للمادة المستهلكة وتتيح مجالا خصبا للنقاش .

وقد بدا غريبا ان تلاقي هذه الامور كل هذا الانتباه .. ان الطريقة التي ابتكرها هنري جيمس وبلغ بها درجة عالية من الاتقان ، والتي يروي فيها الكاتب قصته باحاسيس مراقب له دور ما في الاحداث ، كانت حيلة ذكية وفرت اللمسة المسرحية التي ينشدها القاص ، وكانت أيضاً نوعاً من الاحتيال يعود الفضل فيه الى مؤلف تأثر كثيراً بالطبيعيين الفرنسيين ، ووسيلة للتغلب على بعض صعوبات الروائي الذي يتخذ موقف المحدث المطلع الحكيم ، وما لا يعرفه هذا المراقب يمكن ان يتركه غامضا بشكل مناسب ..والطريقة على اي حال ، لا تختلف الا قليلا عن قالب السيرة الذاتية التي تتمتع بمزايا كثيرة مشابهة، ومن السخف ان نعدها اكتشافا جماليا عظيماً . ان من بين التجارب الاخرى التي ظهرت في فن الرواية استخدام تيار الفكر ، وقد اغرم الكتاب غالبا بالفلاسفة الذين ابدوا قيما انفعالية ، واتوا بفلسفة لا يصعب فهمها ، ولا سيما بشوبنهور فنيتشه فبرغسون ، وكان محتما ان يأسر التحليل النفسي خيالهم لانه يقدم امكانيات وفيرة للروائي الذي يعرف كم هو مدين الى لاشعوره في خير ما يكتب ، وقد زين له ان يكتشف اعماقا نفسية جديدة في الشخصيات التي اخترعها ، وذلك بتصور خيالي لما يجري في لاشعورها ، ولقد كانت حيلة ماهرة مسلية لا اكثر ، وثبت انها تصبح مملة حين يتخذها الكتاب قاعدة لانتاجهم بدلا من استخدامها بين حين واخر وسيلة لاغراض معينة تهكمية او درامية او ايضاحية . واظن ان ما هو مفيد من هذه الطريقة وغيرها من الطرق سيدخل في التقنية العامة للقصة ، ولكن الاثار الادبية التي قدمت هذه الطرق ستفقد اهميتها سريعا . ويبدو ان اولئك الذين اخذوا بهذه التجارب العجيبة فاتهم ان المادة التي عولجت في مؤلفات من هذا النوع تافهة الى اقصى حد ، وكذلك يظهر ان المؤلفين عمدوا الى هذه الطرق بسبب شعورهم المتعب بفراغ نفوسهم .. ان الاشخاص الذين وصفوا بكل هذه الحرارة ليس لهم قيمة ذاتية ، والموضوعات التي طرحت لم تكن ذات اهمية،

وهو امر قد يكون متوقعا ، لان الفنان يوجه كل ملكاته الى الصنعة الفنية حين يكون الموضوع ضئيل الاهمية عنده ، اما حين يشغف بالموضوع فانه لا يجد وقتا للتفكير في المهارة الفنية لما يقدمه ، فكتاب القرن السابع عشر مثلا التفتوا الى الاساليب المتكلفة، والتوريات بعد ان استنفدوا جهودهم العقلية في النهضة ، ومنعهم طغيان الملوك ،وسلطان الكنيسة ، من معالجة القضايا الكبرى في الحياة ، وقد يكون هنا الشغف الذي اظهره الكتاب اثناء السنوات الاخيرة بكل شكل من اشكال التجربة التقنية في الفن ،يشير الى حقيقة واقعة هي ان حضارتنا في دور التبدد ، والموضوعات التي بدت ذات اهمية في القرن التاسع عشر تضاءل الاقبال عليها اليوم ، والفنانون لا يدركون حتى الان ماهي القضايا الكبرى التي ستحمل الاجيال المقبلة على خلق الحضارة التي توشك ان تخلف حضارتنا ..

●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

هكذا ، أرى من الطبيعي جدا ان لا يمنح عالم الادب اعمالي اهمية كبرى ، ففي المسرحية لجأت الى القالب التقليدي ، وفي القصة اعود القهقرى عبر أجيال لاتحصى الى مهمة راوي الحكايات حول النار ، في الاكواخ التي آوت انسان العصر الحجري . وقد كان عندي نوع من القصص وجدت لذة في روايته ، وهذا بالنسبة لي هدف كاف بذاته ، ولسوء حظي قوبل بعض قصصي احيانا باحتقار المثقفين ، وقد قرأت عدداً كبيرا من الكتب ، التي تبحث في فن القصص ، وكلها تعزو قيمة ضئيلة الى العقدة (وبالمناسبة اود ان اقول انني لا استطيع ان افهم هذا التمييز الدقيق الذي يقيمه بعض النظريين الاذكياء بين القصة والعقدة ، فالعقـــدة ليست الا النمط الذي تبنى عليه القصة) ، ومن تلك الكتب تنتهي الى ان تلبية الكاتب لمطالب الجمهور الغبية ليست الا عائقا في وجه الكاتب الذكي ، ونوعا من الاستسلام ، وبالفعل قد تعتقد احيانا ان افضل الروائيين هو كاتب المقالة ، وان القصص القصيرة الوحيدة الكاملة كتبت بيد شارلز لامب وهازلت .

ولكن بهجة الاصغاء الى القصص شيء أساسي في الطبيعة البشرية ، كبهجة النظر الى الرقص والتقليد اللذين نتجت عنهما المسرحية . وهذه البهجة تبدو خالصة في الرواية الجنائية واعظم المثقفين يقرؤونها ، مع التواضع طبعاً ، ولكنهم يقرؤونها ! ، ولماذا ــ يقرؤونها أليس ذلك لان الروايات النفسية والتحليلية والتعليمية التي تحظى وحدهـا برضى عقولهم عاجزة عن سد هذه الحاجة الخاصة في النفس ؟ ان هناك عدداً من الكتاب الاذكياء تعج رؤوسهم بأحسن مايقال ، ولهم موهبة في خلق الاشخاص ، ولكنهم لايعرفون مـاذا يفعلون بالاشخاص بعد ان يخلقوهم ، اذ لا يستطيعون ان يبدعوا قصة بارعة ، فيقلبون هذا النقص الى مزية كما يفعل كل الكتاب (وعند الكتاب دوما كمية معينة من الدجل)

فاما ان يتركوا للقارىءان يتخيل ماسوف يحدث ، واما ان يؤنبوه لانه يجب أن يعرف ذلك ، وهم يزعمون ان القصص في الحياة لاتتم ، والاوضاع ليست محكمة ، والنهاية تظل معلقة فضفاضة ، وهذا غير صحيح دائماً ، لان الموت على الاقل ينهي كل قصة في الحياة ، وحتى لو كان صحيحاً فانه ليس حجة قوية .

فالروائي يدعي أنه فنان ، والفنان لاينسخ الحياة ، ولكنه يكون منها كلامنظما يلائم اغراضه .. وكما يفكر الرسام بريشته ويرسم ، كذلك يفكر الروائي بقصته وتتمثل فيها كسلسلة من الاعمال الانسانية ، شخصيته ونظرته الى الحياة مع انه قد لايكون واعياً لها. وحين تنظر الى الفن في الماضي فلن يفوتك ان تلاحظ ان الفنانين نادراً ماعزوا للواقعية قيمة كبيرة . واستعملوا الطبيعة بوجه عام زينة شكلية ، ولم يقدموا على نسخها مباشرة بين وقت وآخر الا اذا شط بهم خيالهم عنها فشعروا ان العودة اليها ضرورية . وفي الرسم وفي النحت يمكن أن نحتج بأن الاقتراب الدقيق جدا من الواقع كان دائماً علامة انحطاط المدرسة الفنية ، ففي نحت (فيدياس) نرى مثلا بلادة ابولو بلفيدير وفي (معجزة رافائيل) في بلزانو نشهد سخف بوغورو ،وهذا يعني أن الفن لا يستطيع أن يكسب قوة جديدة الا بفرض انسجام جديد على الطبيعة .

ولكن هذا الذي قلته كان يوحي من المناسبة .

ان هناك رغبة طبيعية عند القارىء في معرفة مايحدث للناس الذين تعلق بهم ، والعقدة هي الوسيلة التي تحقق مثل هذه الرغبة ، ومن الواضح ان اختراع - القصة الجيدة عمل صعب ، ولكن صعوبتها سبب غير معقول لاحتقارها ان القصة ينبغي أن توفر التماسك والاحتمال الملائم لمتطلبات الموضوع ، وينبغي ان تكون من طبيعة تكشف عن تطور الشخصيات ، وهذا هو الهدف الاساسي للقصة المعاصرة ، وكذلك يجب ان تكون كاملة ، حتى اذا طويت عند الانتهاء منها ، لم تكن هناك حاجة لاسئلة حول الاشخاص الذين اشتركوا فيها ، ويجب ان تقسم الى مقدمة وعرض وخاتمة على نحو مأساة ارسطو . ومعظم الناس لايدركون الفائدة الاساسية من العقدةالتي هى خط لتوجيه اهتمام القارىء

ولعلها أهم ما في القصص ، لان المؤلف بفضل توجيه الاهتمام يستطيع ان يقود القارىء من صفحة الى صفحة ، وان يبث فيه الحالة النفسية المنشودة . والمؤلف يعبىء قواه دائماً ولكنه ينبغي ان لا يدع القارىء يشعر بذلك ، وان يشغله ويصرف انظاره الى العقدة التي يحوكها باحكام .. ولست اكتب الآن بحثا فنيا عن الرواية ، ولذلك لاحاجة بي الى تعداد الحيل المختلفة التي تعين الكاتب على تحقيق هذا الهدف .. وأظهر ماترى جدوى توجيه الاهتمام ، وخطر اهماله ،القصتين التاليتين:(عقل وعاطفة sense and sensibility) و (التربية العاطفية L'Education Sentimentale) ، ففي الاولى تقود جين اوستن القارىء مع خط القصة البسيطة ، فلا يقف ليفكر في ان ايلينور لصة ، وماريان حمقاء ، والرجال الثلاثة دمى لاحياة فيهم . اما فلوبير ، في سعيه الى موضوعية حاسمة ، فانه يخفق في توجيه اهتمام القارىء ، حتى يجعله غير مبال بمصير الشخصيات المختلفة ، وهذا يجعل قراءة الرواية صعبة جداً ، ولست أظن ان هناك رواية توازيها في كثرة المزايا وفي ضآلة تأثيرها في النفس .

في العقد الثالث من عمري قال النقاد انني فظ ، وفي الرابع قالوا انني طائش ، وفي الخامس قالوا انني جاحد ، وفي السادس قالوا انني كفء ، والآن في العقد السابع يقولون اني سطحي .. لقد شققت طريقي الخاص واتبعت الخط الذي رسمته لنفسي وحاولت في مؤلفاتي ان احقق النمط الذي صبوت له ، واعتقد ان المؤلفين الذين لايقرؤون النقد تنقصهم الحكمة ، ويحسن بالمرء ان يدرب نفسه على عدم التأثر بالذم اكثر مما يتأثر بالمدح لانه يسهل بالطبع ان يهز المرء كتفيه استخفافاً اذا وصف بأنه عبقري ولكن ليس من السهل عليه ان يغضي عن ذلك حين يعامل معاملة الضعيف الفاشل . وتاريخ النقد يظهر ان النقد المعاصر قابل الوقوع في الخطأ ، وجميل ان يقرر الكاتب الى أي حد يأخذ بوجهة نظر النقد والى أي حد يهمله ، وهي نقطة اشتد الخلاف حولها حتى اصبح يصعب على المؤلف نفسه ان ينتهي الى أي قرار حول مزاياه وفي انكلترا ميل طبيعي لاحتقار الرواية ، وبينما تنال سيرة سياسي بارز او حياة احد رجال البلاط مواقف نقدية جدية فان نصف دزينة من الروايات تراجع بالجملة من قبل ناقد لا يهمه في أغلب الاحوال الا تسلية القراء على حسابها ، وتأويل ذلك ببساطة هو ان الانكليز شغوفون بالاعمال التي تعطي المعلومات ، اكثر من شغفهم بالاعمال الفنية ، وفي هذه الحالة يصعب على الروائي ان يستخلص من نقد انتاجه مايفيده في تطوير فنه .

ومن سوء حظ الآداب الانكليزية اننا لم نحظ في هذا القرن بناقد من مرتبة سانت بوف او ماثيو ارنولد مثلا او حتى برونتيير ، وصحيح ان مثل هذا الناقد ما كان ليشغل نفسه كثيراً بالادب الحديث ، واذا حق لي ان احكم في ضوء مافعله هؤلاء النقاد

الثلاثة اقول انه لو عني بالادب الحديث فلن يقدم خدمة مباشرة للكتاب المعاصرين ..
ان سانت بوف - كما نعلم لم يستطع ان ينصف معاصريه لانه كان يحسد اشكالا من النجاح طالما صبا اليها واخفق في احرازها .. وكان ذوق ماثيوارنولد شديد الانحراف في معالجة معاصريه من الكتاب الفرنسيين ، وليس من سبب يجعلنا نفترض ان معالجته للكتاب الانكليز - لو حدثت - يمكن أن تكون أفضل .. اما برونتيير فكان ينقصه الاعتدال ، وقد حكم على النقاد بمقاييس قاسية متسرعة وعجز عن تقدير الكتاب الذين رموا الى اهداف لاتنال عطفه ، وأعطته قوة شخصيته من التأثير اكثر مما تسمح به موهبته . ولكن الكتاب ، بصرف النظر عن كل شيء ، يستفيدون من الناقدالذي يقبل على الادب بجد ، حتى لو نقموا عليه ،فقد يقودهم عداؤهم الى تحديد اوضح لاهدافهم لانه يثير فيهم احساسابضرورة بذل مزيدمنالجهد الواعي ويتخذون منه عبرة ،فينظرون الى الفن نظرة جدية عميقة .

وقد حاول افلاطون فياحدى محاوراته ان يظهر استحالة النقد، ولكنه فيالحقيقة لم يكشف الا عن الافراط الذي يمكن ان تؤدى اليه احيانا طريقةسقراط . وهناك نوع واحد من النقد ، واضح عقمه ، وذلك هو النقد الذي يكتبه الناقد تعويضا عن اهانات لحقته في مطلع شبابه ، وبذلك يعطيه النقد فرصة لاستعادة تقديره لنفسه ، لانه كان في المدرسةعاجزاعن التكيف مع ذلكالعالم الضيق ، وتعرضللضرب والرفس ، فاذا به يعمد الى الضرب والرفس بدوره حتى يهدىء مشاعره الجريحة ، ومايعنيه هو موقفه النفسيمن العمل الذي ينقده ، لاقيمة العمل الحقيقية بالنسبة له .

اننا الان نحتاج الى ناقد ذي سلطان اكثر من اي وقت مضى ، لان الفنوناليوم اختلط حابلها بنابلها ، فمن ملحنين يؤلفون القصص ، الىرسامين يتفلسفون ،الى روائيين يتشدقون بالمواعظ ، الىناثرين يحاولون انيفرضوا على النثر جرس الشعر .. اننا فيأمس الحاجة الى شخص يحدد من جديد الصفات المميزة للفنون المختلفة ، ويفهم الضالين ان محاولاتهم لن تقودهم الا الى الفوضى النفسية ، ومن الاسراف ان نتوقع ظهور شخص

يستطيع ان يتكلم في جميع الفنون بجدارة متساوية ، ولكن ، مادام العرض على قدر الطلب ، يظل الامل يخامرنا بأن يعتلي ناقد عظيم في يوم ما ، السدة التي استوى فوقها يوماً سانت بوف وماثيو ارنولد ، ولعله يقدر ان يفعل الكثير . وقد قرأت مؤخراً كتابين او ثلاثة تدعوا الى انشاء علم للنقد دقيق ، ولم اقتنع بامكان تحقيق هذا الطلب ، لان النقد في رأيي قصة شخصية ، ولكنني لا أعترض اذا كان الناقد ذا شخصية قوية . انه من الخطر ان يعد الناقد عمله خلاقاً ، لان وظيفته الارشاد والتشجيع والتوجيه نحو آفاق للخلق جديدة ، ولكنه اذا عد نفسه خلاقاً فسوف يشغل بالخلق ، وهو أبعد غوراً من كل الفعاليات الانسانية ، وبذلك يغفل عن وظيفته الاساسية . وربما كان خيراً له لو كتب قصيدة أو رواية أو تمثيلية ، لانه بهذه الطريقة دون سواها يمكن ان يتقن التقنية الادبية ، وليس له ان يعد نفسه ناقداً كبيراً مالم يقتنع بان الخلق لا يدخل في مهمته ، ومن بين الاسباب التي تجعل النقد الحديث غير مجد ، كونه يأتي كقضية جانبية عند الكتاب الخلاقين الذين يعتقدون ان العمل الذي يقومون به هو افضل مايجدر بهم ان يفعلوه وهذا امر طبيعي . والناقد العظيم يجب ان تكون عاطفته شاملة بقدر معرفته ، مبنية على اساس من الشعور الحي بالتمييز بين الحسن والسيء ، لا على اساس من الحياد الذي يجعل الناس متسامحين في القضايا التي لا تعنيهم ، وعليه ان يكون عالما نفسيا وعالما عضويا (فيزيولوجيا) لانه يجب ان يدرك الصلة بين العناصر الرئيسية في الادب ، وبين عقول الناس واجسادهم ، وعليه ان يكون فيلسوفا لانه يتعلم من الفلسفة (الوداعة والانصاف وشدة تغير الاشياء الانسانية ، ويجب ان لا تقتصر معرفته على ادب بلاده ومقاييسه المبنية على ادب الماضي . . انه بواسطة اطلاعه على الادب المعاصر في الاقطار الاخرى يستطيع ان يرى بوضوح المنحى الذي يتجه اليه الادب ، وبذلك يصبح في وسعه ان يوجه ادب مواطنيه توجيها مثمرا . وعليه ايضا ان ينهل من التراث لان التراث هو تعبير عن الامزجة العقلية الحتمية في ادب الامة ، ولكنه يجب ان يبذل جهده ليطور هذا التراث في الاتجاه الطبيعي لان التراث مرشد لاسجان . وينبغي ان يتحلى الناقد بالصبر والثبات والحماسة . وكل كتاب يقرؤه انما هو مغامرة عنيفة يجب ان يحكم عليها بعمق معرفته وقوة شخصيته ، وهكذا يكون الناقد العظيم رجلا عظيما الى حد انه يعترف ، بثبات متفائل ، بأن عمله ، على اهميته

لايمكن ان ينال سوى قيمة وقتية، لان مزيته تكمن في استجابته لحاجات جيله وارشاده الى الطريق ، وبعد ذلك ينشأ جيل جديد بحاجات جديدة وتمتد امامه طريق جديدة ، فلا يبقى للناقد مايقوله ، ويلقى مع مؤلفاته تحت ستار من الغبار .

ولن يقدم امرؤ على تكريس حياته لينتهي على هذا النحو ، الا اذا ايقن ان الادب مرفق من اهم مرافق الحياة الانسانية .



ذلك مطلب طالما دعا اليه المؤلف ، واضاف اليه مطلبا آخر حين أكد : «انه ليس كالآخرين ، وبالتالي لايخضع لقوانينهم » . وقد قابل الآخرون هـذا المطلب بالاشمئزاز والهزء والاحتقار ، وقابلهم هو بأساليب مختلفة وفقا لمزاجه العقلي ، واحيانا كان ينزه رأيه عما ود ان يسميه القطيع العامي بشذوذ مقصود ، او لكي يصدع البرجوازية تجلى في وشاح تيوفيل غوتييه الاحمر ، او قاد ، كما فعل جيرارد دونيرفال عبر الشارع سرطانا مربوطا بشريط احمر ، واحيانا وجد متعة تهكمية في التظاهر بأنه كأي انسان آخر ، أو كما فعل براوننغ ، ألبس الشاعر الكامن في نفسه ثوب ثري صاحب مصرف وربما نكون جميعا حزمة من النفوس تتبادل التناقضات ، ولكن الكاتب ، الفنان ، هو الذي يدرك ذلك ادراكا عميقا . والحياة التي يعيشها الآخرون تبرز فيهم جانبا معينا يطغى ، ويطغى حتى يصبح الرجل كله ، وربما باستثناء اعماق اللاشعور ، ولكن الرسام والكاتب والقديس ماينفكون يتعمقون ذواتهم بحثا عن وجوه جديدة ، ويملون تكرار انفسهم ، ويجهدون ــ دون ان يعلموا ذلك احيانا ــ لئلا يصبحوا ذوى جانب واحد ، ولذلك لايتاح للفنان ان ينمو مخلوقا متماسكا مستقر النفس .

ويثور الآخرون عادة حين يكتشفون الهوة بين حياة الفنان وعمله ، ولا يقدرون مثلا ان يوفقوا بين مثالية بيتهوفن ودناءة نفسه ، وبين اشراق فاغنر العلوي وانانيته وغدره ، وبين انحراف سيرفانتس الاخلاقي ورقته وسماحته ، وهم يميلون احيانا الى اقناع نفوسهم ، في فورة سخطهم ، بأن انتاج امثال هؤلاء الرجال لايمكن ان يكون في المستوى الذي كانوا يظنونه ، وحين يقال لهم ان الشعراء العظام الخلص خلفوا وراءهم مجموعة كبرى من الاشعار البذيئة ، يدب فيهم الرعب وينقمون على مايظنون انه خداع :

ويقولون : ما أشد نفاق هؤلاء الناس .

ولكن مشكلة الكاتب انه ليس رجلا واحدا بل عدة رجال ، ولانه عدة رجال، فهو يستطيع ان يخلق العديد من الناس ، ومقياس عظمته هو عدد النفوس التي يصممها. وحينما يبدع شخصية لاتحمل عبء الحياة فانك تستنتج ان نفسه خالية من تلك الشخصية مما دفعه لان يعتمد على الملاحظة ، فوصف فقط ، ولم يخلق .. ان شعور الكاتب داخلي لاخارجي ، وهو ليس تعاطفا من ذلك النوع الذي يؤدي غالبا الى الرقة ،بل هو كما يقول علماء النفس « اسقاط عاطفي » . وقد تمثل ذلك في شكسبير بدرجة عظيمة جدا ، فاذا هو اكثر الكتاب خلوداً وأقلهم عاطفية .. واعتقد ان غوته اول كاتب وعى هذا العدد في الشخصية الواحدة ، فاضطربت حياته كلها اثر ذلك ، وكان دوما يقارن بين غوته الكاتب ، وغوته الرجل ، ولم ينته الى حل لهذا التباين . وغاية الفنان تختلف عن غاية غيره من الناس ، لان غايته هي الانتاج الفني ، وغاية غيره هي العمل المباشر ، وبذلك يكون موقف الفنان تجاه الحياة خاصاً جداً ، ويقول علماء النفس ان الصورة عند الرجل العادي اقل حيوية من الاحساس ، وهي تجربة مصغرة عن الواقع وظيفتها ان تعطي معلومات عن الموضوعات التي تسهد فيها الحواس ، وان ترشد الى العمل في عالم الحس ، اما عند الفنان فأحلام اليقظة تسد حاجاته العاطفية وتحقق الرغبات التي خابت في دنيا العمل ، ولكنها ظلال شاحبة للحياة الواقعية تجعل الفنان يحس دائما في قرارة ذهنه بأن متطلبات عالم الحس تحتاج الى كفايات من نوع آخر ،على ان لاحلام اليقظة عنده حيوية مثل حيوية الاحساس ، وهذه الاحلام تمثل في نفسه عالما حسيا ممزوجا بالظلال ، وهو لاينفذ الى هذا العالم الا بالعزم الصادق ، وليست القصور التي يبنيها الفنان في اسبانيا بغير اساس ، بل هي قلاع واقعية يقيم فيها .

ان انانية الفنان هائجة ، وكذلك ينبغي ان تكون ، فهو بالطبيعة متركز حول ذاته وما العالم بالنسبة له الا ميدان ليتيح له ممارسة قواه الخلاقة . وهو يشرك الحياة في جزء من نفسه فقط ولايشعر ابدا بالانفعالات المشتركة بين الناس بكل وجوده ، ومهما

تكن الضرورة ملحة لذلك ، فانه يغشى الحياة مراقبا بمقدار يغشاها فاعلاً فيها، حتى ليبدو أغلب الاحيان ، بلا قلب ومن اجل هذا تظل النساء، باحساسهن الخفي ، على حذر منه ، يتعلقن به ويشعرن بغريزتهن ان لاسبيل الى تحقيق رغبتهن في السيطرة الكاملة عليه لانهن يعرفن انه لابد من ان يتملص بطريقة ما من هذه السيطرة . ألم يخبرنا غوته ، ذلك المحب العظيم ، كيف كان ينظم الاشعار بين ذراعي حبيبته ويوقع بأصابعه نغمات العروض على رد فيها البارزين ؟ ان الحياة مع الفنان مدعاة للمرض ، لانه يستطيع ان يخلص اخلاصا كاملا بانفعاله الخلاق ، ومع ذلك يظل في داخله انسان آخر في مقدوره ان يقابل هذا العمل بايماءة ساخرة . انه شخص لايعتمد عليه .

ولكن الالهة لاتمنح موهبة الا وتشفعها بنقيصة ، وتركيب الفنان المتضارب الذي يمكنه من ان يخلق الانام كالآلهة ، يمنعه من بلوغ الحقيقة الكاملة في خلقهم . ان الواقعية نسبية ، واشد الكتاب واقعية يزيف مخلوقاته حسب اتجاه اهتمامه ، انه يراهم بعينيه فقط، ويجعلهم اشد وعيا لذواتهم مما هم عليه في الواقع ، واكثر تفكيرا واشد تعقيدا . وهو يطرح ذاته فيهم محاولا ان يجعلهم اناسا عاديين ولكنه لاينال ابدا النجاح التام ، لان الخاصية التي تمنحه الموهبة ، وتصنع منه كاتبا ، تمنعه من ان يعرف ماهو الرجل العادي بالضبط ؟ ان ماينجزه ليس الحقيقة ، بل هو تركيب جديد من خلال شخصيته ، وكلما كانت موهبته اعظم كانت فرديته اقوى وكانت الصورة التي يرسمها للحياة اروع فتنة ، وقد خطر لي احيانا ان الاجيال المقبلة ، اذا احبت ان تعرف كيف كان عالمنا ، فلايصح ان تعود الى اولئك الكتاب الذين سيطروا على المعاصرين بمزاجهم العقلي الخاص ، وانما يحسن ان تعود الى الكتاب المتواضعين الذين اتاح لهم التصاقهم بالعادي ان يصفوا ماحولهم باخلاص اشد . ولااذكرهم لان الناس لايحبون ان يوصموا بانهم متوسطون حتى لو تأكدوا من تقدير الاجيال المقبلة لهم ، على انني يمكن ان اقر بأن المرء يحس في روايات انتوني ترولوب بصورة للحياة اصدق مما يحس به في روايات تشارلز ديكنز .

على الكاتب ان يسأل نفسه احيانا : هل لانتاجه اية قيمة عند سواه ، وربما يكون السؤال ملحا في هذه الايام اذ يبدو العالم ، على الاقل عندنا نحن الذين نعيش فيه ، في حالة من عدم الاستقرار والبؤس لم يشهد لها مثيلا من قبل ولهذا السؤال وقع خاص عندي لانني لم ارغب قط في ان اكون كاتبا وكفى ، بل احببت ان اعيش حياتي كاملة ، ومابرحت اشعر شعورا مقلقا بأن من واجبي المشاركة في الاعمال المتعلقة بالصالح العام ، مهما كانت المشاركة ضئيلة ، وقد آنست في نفسي ميلا طبيعيا الى الابتعاد عن كل نوع من انواع النشاط العام ، وما اشتركت في بعض اللجان التي شكلت من اجل تحقيق اهداف اجتماعية عابرة الا مكرها مضطرا ، لانني كنت اعتقد ان الحياة - على طولها - لاتعطي المدى الكافي لتعلم الكتابة الجيدة ، فلم ارغب في اعطاء الفعاليات الاخرى جزءا من وقتي الذي احتاج اليه لكي احقق الهدف الذي رسمته لنفسي ، ولم اتوصل الى اقناع نفسي بأن نهتم لاي شيء سواه . ولكن حين يعيش ملايين الناس على شفا المجاعة ، وحين تنتهك الحرية وتموت في اجزاء كثيرة من الكرة المسكونة ، وحين تتلو الحرب الرهيبة سنوات تظل السعادة خلالها بعيدة المنال عن الكتل البشرية الهائلة ، وحين يدب اليأس في الناس لانهم لا يستطيعون ان يروا اية قيمة في الحياة بعد ان تبين ان الامال التي ساعدتهم على احتمال بؤسها طوال القرون المتعاقبة تكشفت عن وهم خادع . في مثل هذه الظروف لايستطيع المرء الان يسائل نفسه : اليس ما اكتبه من تمثيليات وقصص وروايات سوى عقم لاطائل تحته ؟ والجواب الوحيد الذي يحضرني الان هو ان بعضنا خلقوا هكذا ، وليس في وسعنا ان نفعل شيئا آخر ، ونحن لانكتب مانكتبه مختارين بل مجبرين ، وفي الحياة اشياء ينبغي ان تؤدى قبل غيرها : علينا ان نحرر نفوسنا من عبء الخلق . وعلينا ان نتابع المسير ولا

نبالي بروما التي تحترق ، وقد يحتقرنا الآخرون لاننا لانعينهم على حمل سطل الماء ، وليس الامر في يدنا ، اننا لانعرف كيف نحمل السطل ، ثم ان لهيب الالهام يعصف بنا ويثقل رؤوسنا بالعبارات .

ومن وقت لآخر ، انخرط بعض الكتاب في السياسة فكان تأثيرها فيهم مؤذيا ولم ألاحظ انهم كانوا ذوي شأن في تسيير الامور ، ولا استثني من ذلك سوى « دزرائيلي » ، ولكن في حالته يمكن ان نقول ان الكتابة لم تكن غاية في ذاتها ، بل وسيلة للخطوات السياسية . وفي الوقت الحاضر الذي تبنى فيه الحياة على الاختصاص ارى انه من الافضل لكل امرىء ان يلتزم حدود اختصاصه .

وبعد ان سمعت ان « درايدن » تعلم كتابة الانكليزية من دراسته لـ (تلوتسون) قرأت صفحات معينة لهذا المؤلف وعثرت على مقطع اعتبره عزاء لي في هذا الصدد ، يقول المؤلف : (علينا ان نسر لان اولئك الذين يصلحون للحكم يقبلون احتمال هذا العبء حين يدعون اليه .. نعم ، وعلينا ان نشكرهم كثيرا لانهم سيتعرضون للالام وسيتذرعون بالصبر اذ يحكمون ويعيشون امام عيون الناس . ان العالم سعيد لان فيه من يولد ويربى ليقبل الحكم الذي اصبح عند هؤلاء ، بسبب العادة ، سهلا او على الاقل محتملا .

والفائدة التي يجنيها الناس من حياة تتيح مجالا اكبر للتكريس والانعزال والتأمل ، هي ان نفوسهم لاتتشتت حول امور متعددة ، وعقولهم وقلوبهم تتركز حول شيء واحد ، ورغائبهم بكل مافيها من قوة ودفق تجري في تيار واحـــد ، وتتحد افكارهم وجهودهم في تصميم واحد ، وغاية واحدة ، مما يجعل حياتهم كلا واحدا منسجما مع ذاته) .

حذرت القارىء في مستهل الكتاب قائلاً : ان الشيء الوحيد الذي ربما كنت متأكدا منه هو انني لست متأكدا من اي شيء آخر .. وقد حاولت ان ابسط افكاري بالترتيب حول موضوعات مختلفة ، ولم اطلب من اي انسان ان يقبلها ، واذا راجعت ما كتبته وجدت انني بترت الكلام في مواضع عديدة على ما اظن ، لانني وجدته مملا مع انه كان ينساب على قلمي انسيابا طبيعيا ، وعلى اي حال ينبغي ان يفهم انه ممثل لكل اوضاعي . والان ، وقد وصلت الى هذا الجزء الاخير من كتابي، اجد لزاماً عليّ اكثر من اي وقت مضى ان اكرر القول بان ما افضي به ليس الا ارائي الخاصة تماما ، وقد تكون هذه الاراء سطحية ، وقد يكون في بعضها شيء من التناقض، وليس من المحتمل ان تكون هذه الآراء ـ التي هي حصيلة افكار ومشاعر ورغبات بنيت على انواع شتى من التجارب العرضية ولونت بلون شخصي معين - متمشية مع الدقة المنطقية في نظرية اقليدس . وعندما كتبت عن المسرحية والقصة فقد كنت اكتب عن شيء خبرته بعض خبرة عملية ، ولكنني اذ اتعرض الان لقضايا يعالجها الفلاسفة ، فان معرفتي لا تتعدى مايستطيع تحصيله انسان عاش عددا من السنين حياة دائبة منوعة . ان الحياة ايضا مدرسة فلسفية ، ولكنها اشبه باحدى رياض الاطفال الحديثة التي يترك فيها الاطفال احرارا في ابتكار وسائلهم الخاصة ، وفي العمل بالموضوعات التي تثير اهتمامهم دون غيرها ، فينصرف انتباههم الى كل مايكون ذا معنى عندهم ، ولايلتفتون الى مالا يعنيهم . وفي مختبرات علم النفس تدرب الفئران على شق طريقها خلال متاهة ، وهكذا تتعلم بطريقة التجربة والخطأ ان تسلك الممر الذي يؤدي بها الى الطعام الذي تبحث عنه ، وانا اشبه ـ حين ابحث في هذه القضايا التي تشغلني الان ـ احد هذه الفئران في بحثها عن الممر السليم

في المتاهة المعقدة ، ولكنني لا اعرف لمتاهتي مركزا اجد فيه ضالتي وكأنما كل الممرات مسدودة امامي

لقد عرفني بالفلسفة « كونوفيشر » الذي تابعت محاضراته في هيدلبرغ ، وكانت له شهرة عظيمة ، وكان يلقي سلسلة دراسات عن شوبنهور في ذلك الشتاء ، واشتد الزحام عليها مما اضطر الناس الى التبكير في الانتظام في الصف امام القاعة ، علهم يحصلون على مقعد جيد . وكان فيشر قصيرا ، مهيبا ، انيقا ، نظيف الملابس ، مستدير الرأس ، احمر الوجه ، له عينان براقتان وانف ظريف افطس متجه الى الاعلى ، كأنما اصابته لطمة فتحسبه ملاكما قديما من المتصارعين في سبيل الجوائز اكثر مما تظنه فيلسوفا ، وكان يملك روح الدعابة ، وقد كتب بالفعل كتابا عن سرعة البديهة قرأته في ذلك الوقت ونسيته الان تماما . وكنت تسمع بين حين وآخر دوي ضحكه ينفجر في القاعة على اثر نكتة يلقيها ، وكان صوته قويا وفي كلامه حيوية وسيطرة واثارة . وكنت اصغر واجهل من ان افهم كثيرا مما يقوله ، ولكنني خرجت بانطباع واضح جدا عن شخصية شوبنهور الاصيلة الشاذة ، وشعور مضطرب بالقيمة الدرامية والطبيعة الابداعية لانتاجه ، واني لا اتردد في الادلاء بأي رأي بعد كل تلك السنوات العديدة وان كنت اشعر ان (كونوفيشر) عامله كأنتاج فني اكثر مما عامله كاسهام جدي في ماوراء الطبيعة (الميتافيزياء) .

ومنذ ذلك الحين اقبلت على قراءة الفلسفة ووجدتها قراءة مجدية . وبالفعل وجدت الفلسفة ، من بين جميع الموضوعات ، التي تؤمن مادة مقروءة للذين يعدون المطالعة حاجة وبهجة ، اكثرها تنوعا واوفرها غنى ، واشهدها كفاية . ان اليونان القديمة لتهز المرء ، ولكنها من هذه الزاوية لا تزخر بالكثير ، فبعد وقت ما ، تكون قد قرأت القليل الذي تبقى من انتاجها ، واهم ما كتب عن هذا الانتاج . والنهضة الايطالية مدهشة ايضاً ولكن الموضوع فيها محدود نسبياً ، والافكار التي تحويها قليلة ، وفنها سرعان ما يسبب لك الاملال ، لانه خلال مدة طويلة قد أفرغ من قيمته الخلاقة ، فلا تجد فيه سوى الرشاقة والفتنة والتناسق ، ورجال هذه النهضة يسببون لك الضجر لان نشاطهم المنوع ينحصر في نمط مفرق

في الشكلية ، ولك ان تستمر في القراءة حول النهضة الايطالية الى الابد ، ولكن شغفك بها يتوقف قبل ان تفرغ من مادتها . والثورة الفرنسية موضوع آخر قد يشغل الانتباه، وله بميزة خاصة من حيث انه ذو دلالة واقعية .. تلك الثورة قريبة منا زمنا ، وبشيء من اعمال الخيال نستطيع ان نضع انفسنا موضع الرجال الذين اسهموا فيها ، وهم تقريبا معاصرون لنا ، وما فعلوه وما فكروا فيه يؤثران في حياتنا الحاضرة ، ولا غرو فنحن جميعا من نسل الثورة الفرنسية ، ان مادتها غزيرة والوثائق المتعلقة بها لاتحصى ، وللآن لم يقل فيها القول الفصل ، فأنت واجد دوما كل جديد وطريف عنها ، ولكنها لاتسد حاجة النفس لان الفن والادب اللذين انتجتهما مباشرة لايستحقان الذكر ، فتجد نفسك مدفوعا الى دراسة حياة رجالها.. وكلما اتسع ماتقرؤه ازدادت خيبتك لما فيهم من صغار وسوقية.. ان الممثلين في هذه المسرحية العظمى في تاريخ العالم كانوا للاسف غير جديرين ابدا بأدوارهم حتى انك لتشيح بوجهك اخيرا عن الموضوع وفي نفسك شيء من الاشمئزاز الخفي .

ولكن دراسات ماوراء الطبيعة (الميتافيزياء) لاتتخلى عنك ، لانك لاتستطيع ان تنتهي منها ، وهي متنوعة بقدر تنوع نفس الانسان ، مفعمة بالعظمة لانها لاتعالج ماهو اقل من المعرفة الكلية . انها تبحث في الكون ، وفي الاله،والخلود .. في خواص العقل الانساني ، ونهاية الحياة ، وغرضها .. في قوة الانسان ، ونواحي الضعف فيه .. واذا كانت تعجز عن الاجابة على الاسئلة التي تواجه المرء في رحلته عبر هذا العالم المظلم الغامض ، فانها تقنعه بأن يشفع جهله بالمزاج المرح . انها تعلم الاتزان وتلح على الشجاعة ، وتستهوي الخيال كما تستهوي العقل ، واعتقد انها تمد الهاوي،اكثر بكثير مما تمد المحترف، بمادة لذلك الشرود المبهج اللذيذ ، الذي يستطيع المرء بواسطته ان يغطي على خموله .

ومنذ ان بدأت ، بوحي من محاضرات (كونو فيشر) ، اقرأ لشوبنهاور ،انجزت قراءة كمية جيدة من مؤلفات الفلاسفة الاتباعيين .. ومع انني لم افهم كثيرا مما اوردوه الا انني كنت اقرؤهم بشغف وحماسة والوحيد الذي ضايقني باستمرار هو (هيغل)، والغلطة غلطتي بلا ريب ، لأن تأثيره في الفكر الفلسفي اثناء القرن التاسع عشر دليل

اهميته ، وقد وجدته طويل النفس ، ولم ارتح الى الاحتيال الذى كان يستعين به ليبرهن على ما يدور في خلده . ولعلي تحزبت ضده بتأثير شوبنهاور الذي كان يتحدث باحتقار دوما ، اما الفلاسفة الاخرون ، افلاطون ومن تلاه ، فقد نعمت بصحبتهم في مثل متعة مسافر يقتحم بلادا مجهولة ، ولم اقرأهم قراءة مدقق ، وانما قرأتهم كما اقرأ الرواية مستهدفا الاثارة والبهجة (وسبق ان اعترفت انني اقرأ الرواية المتعة لا للتوجيه واستميح القارىء عفوا) . ولما كنت تلميذا ذا شخصية ، وجدت لذة لا حد لها فيما كانت تتيحه لي هذه المؤلفات المتنوعة من توسيع لآفاق نفسي ، واكتشفت كل رجل من خلال فلسفته ، وكنت اسمو مع النبل الذي طغى على بعضهم واتسلى بالغرابة التي تبينتها عند بعض آخر ، وشعرت بانتعاش رائع اذ كنت اتتبع افلوطين حائرا في هدبة من الوحيد الى الوحيد ، واما (ديكارت) فقد ارتاحت نفسي الى اشراق عبارته مع انني عرفت منذ ذلك الحين انه خرج من مقدماته القوية بنتائج لا يقرها العقل ، ووجدت قراءته اشبه بالسباحة في بحيرة صافية الى درجة تمكنك من رؤية قعرها ، وكان ذلك الماء البلوري منعشا على نحو عجيب . وانت قراءتي الاولى لسبينوزا تجربة فريدة في حياتي ، اذ ملأتني بنفس ذلك الاحساس ، بالجلال وقوة النشوة اللذين يخامران الناظر الى سلسلة جبلية شاهقة .

وحين جئت للفلاسفة الانكليز ، وجدت انهم كتاب مبدعون الى جانب كونهم فلاسفة ، وربما اقبلت عليهم وفي نفسي اثر من تحامل ، فقد القي في روعي حين كنت في المانيا انهم لا يستحقون الذكر باستثناء « هيوم » وان يكن « كانت » قد انكر عليه اهميته .. وقد لا يكون الفلاسفة الانكليز مفكرين مبدعين -- وهذا امر ليس لي ان احكم عليه - ولكنهم ، بلا ريب ، رجال عجيبون جدا ، وقل من يقرأ (ليفياثان Leviathan[1] لـ « هوبس » دون ان يؤخذ بشخصيته « الجونبولية »[2] الخشنة

(١) كلمة اليفياثان . وتعني الوحش الاسطوري الذي يشبه التنين ، هي عنوان الكتاب الذي وضعه المفكر الانكليزي « هوبس » حول علاقة الفرد بالدولة ، وكيف ان السلطة ينبغي ان تهيمن على مجموع الامة ، مثلما يبتلع « اليفياثان » كافة اسماك البحر . (المعرب)

(٢) نسبة الى (جون بول) وهي كلمة ترمز الى الرجل الانكليزي (المعرب)

المستقيمة ، وما من احد يقرأ (المحاورات) (لبركلي Dialogues)دون ان يـــأسره ذلك الاسقف المريح . ومع انه قد يكون صحيحا ان (كانت) سفه نظريات هيوم الا انه من المستحيل ـ في رأيي ـ كتابة الفلسفة بأسلوب يفضل اسلوب هيوم في الوضوح والحضرية والاناقة. ان الفلاسفة الانكليزجميعا، بما فيهم (لوك Locke) أيضا ، قد كتبوا مؤلفاتهم بلغة انكليزية، لا أردأ منها ولا أقل نفعاً ،بالنسبة لطالب يريد ان يدرس الاسلوب .

وقد درجت قبل ان ابدأ بكتابة رواية ما ان اعيد قراءة (كانديد Candide) كيما ازود نفسي بالحجر السحري الذي ضمن لها الوضوح والاناقة والبداهـــة الذكية ، ويخطر لي انه لن يضر الفلاسفة الانكليز المحدثين ، قبل ان يشرعوا في التأليف ، ان يخضعوا انفسهم الى عادة قراءة كتاب هيوم (تساؤل في الفهم الانساني) ، لان كتابتهم ليست ذات وضوح مطرد ، وربما كانت افكارهم اليوم ادق من افكار سابقيهم بكثير ، مما يضطرهم الى استعمال مفردات فنيةمن اختراعهم ، ولكنهاعملية خطرة ، وحين يعالجون قضايا تهم اي قارىء مفكر فاننا لا نجد بدا من ابداء الاسف لانهم لا يستطيعون ان يضعوا معانيهم في العبارة الواضحة التي يفهمها كل قارىء .. وقد قيل لي ان الاستاذ (وايتهد) اذكى واوسع عقلا من اي مشتغل بالفكر الفلسفي في هذه الايام ، ولكنني اقول أسفاً : ياليته يكلف نفسه دوما مشقة وضع معناه في العبارة الواضحة ، وما احسن القاعدة التي سار عليها « سبينوزا » في الدلالة على طبيعة الاشياء بالفاظ لا يتناقض معناها المعتاد عامة مع المعاني التي رغب ان يضفيها على هذه الالفاظ .

لا أرى سبباً ما يمنع الفلاسفة من ان يكونوا ادباء ، ولكن الكتابة الجيدة لا تتأتى بالغريزة وانما هي فن يتطلب دراسة مجدة ، والفيلسوف لا يخاطب زملاءه من الفلاسفة وطلابه المشتغلين في الدراسات العليا بل يخاطب كذلك الادباء والسياسيين والمفكرين ، وهم الذين يشكلون مباشرة افكار الجيل القادم ، وتستهويهم عادة الفلسفة الجذابة التي لا يصعب تمثلها ، وهذا طبيعي . ولكننا نعلم كيف سادت فلسفة نيتشه بعض اجزاء العالم ، وقليلون منا يصرون على ان تأثيرها لم يكن هداما ، ولم تسيطر بسبب ما قد يكون فيها من عمق فكري ، ولكن بأسلوبها الحي وقالبها المؤثر ، والفيلسوف الذي لا يكلف نفسه مشقة ايضاح افكاره للناس يدل على انه يعتقد ان افكاره ليس لها من قيمة سوى القيمة الأكاديمية .

وكان عزاء لي ، على أي حال ان اكتشف ان الفلاسفة المحترفين احيانا لا يفهم بعضهم بعضا ، ويعترف برادلي مرارا انه لا يفهم ما يعنيه مناقشه ، وصرح الاستاذ (وايتهيد) في احد المواضيع انه لا يستطيع ان يستوعب ما يقوله برادلي . وحين لا يستطيع ابرز الفلاسفة ان يفهموا ما يقوله زملاؤهم ، فالرجل العادي معذور اذا لم يفهمهم غالبا .. ان فلسفة ما وراء الطبيعة (الميتافيزياء) صعبة بالطبع وعلينا ان نتوقع ذلك ، والرجل العادي يقرؤها وكانه يمشي على حبل مشدود دون عمود يساعده على ضبط توازنه ، وبعده لو استطاع ان يزحف زحفا حتى يبلغ مأمنه ، فالغنيمة مثيرة حقا وتستحق المجازفة بسقطة .

ولم اقتنع بما يدعيه بعضهم هنا وهناك من ان الفلسفة ميدان الرياضيين الكبار .

ومع انني وجدت من الصعب ان اصدق ان المعرفة ، مادامت ، كما تقول نظرية التطور ، قد نشأت لاسباب عملية خلال النضال من اجل البقاء ، الا انه لا يمكن ان يسهم في جوهرها الضروري للوجود الانساني عامة الا نخبة من الرجال حبتهم الطبيعة بمواهب نادرة ، مع ذلك كنت خليقا ان اتوقف عن متابعة دراساتي الممتعة في هـذا الصدد ، لان رأسي لا يتحمل الرياضيات ، لولا انني لحسن الحظ وقعت على اعتراف لبرادلي بانه لا يعرف الا قليلا من هذا العلم المعقـد . وبرادلي ليس فيلسوفا بسيطا .. ونحن نعلم ان حاسة الذوق تختلف من شخص لآخر ،ولولاها لفني الانسان ، ويبدو من غير المقبول ان لا تستطيع التفكير بنظريات معقولة عن الكون ومكان الانسان فيه ، وعن سر الشر ومعنى الحقيقة ، ما لم تكن عالما رياضيا فيزيائياً ، تماما كما لو كنت لا تستطيع الاستمتاع بزجاجة النبيذ ما لم يكن لديك الذوق العريق الذي تستطيع معه ، دون ارتكاب خطأ ، أن تعين أعمار عشرين زجاجة مختلفة من النبيذ . فالفلسفة ليست موضوعاً محصوراً بالفلاسفة والرياضيين ، بل هي موضوع يخصنا جميعاً ؛ وصحيح ان معظم الناس يتبنون اراءهم في القضايا التي تعالجها الفلسفة بالتقليد لا بالاصالة ، ولا يعرفون أن لهم فلسفة اصلا ، وان كانت الفلسفة كامنة حتى عند الذين لا يفكرون .. ان المرأة العجوز التي كانت أول من قال : لا فائدة من البكاء على اللبن المكبوب ، انما هي فيلسوفة على طريقتها الخاصة ، لانها لم تعن بذلك سوى أن الندم لا يفيد وهي فكرة فلسفية . ان الفيلسوف « الجبري » يعتقد انك لا تستطيع أن تخطو خطوة في الحياة الا أن تكون مدفوعا بما أنت عليه في اللحظة الحـاضرة ، وبأنك لست عضلات وأعصاباً وامعاء ودماغاً فقط ولكنك أيضاً عادات واراء وأفكار ، مهما يكن شعورك بها ضئيلا ، ومهما تبد متناقضة وغير معقولة ولا محايدة ، فهي موجودة دوماً وقائمة على تسيير افعالك وردود افعالك ، وهي تكون فلسفتك في الحياة حتى لو لم تضعها ابدا في كلمات . وربما كان من الخير أن تظل فلسفات الناس كامنة مائعة على هـذا النحو . لان معظمهم لا يكادون يملكون افكاراً ، او افكارا واعية على الاقل ، وكل ما عندهم نوع من الشعور الغامض ، نوع من التجربة يشبه الحس العضلي الذي اكتشفه علم وظائف الاعضاء (الفيزيولوجيا)

منذ أمد قريب ، وهذا الشعور يستقيه الناس عادة من الآراء الدارجة في المجتمع الذي يعيشون فيه ، وقد يدخلون عليها تعديلا طفيفاً بتأثير تجاربهم الخاصة ، وهكذا تمضي حياتهم مكتفية بهذه المجموعة المختلطة من الافكار والمشاعر التي تفي بحاجات الحياة العادية لانها تحتوي شيئاً من حكمة العصور الغابرة ولكنني حاولت ان اضع لنفسي نظاماً فكريا خاصاً وعملت منذ اوائل ايامي على البحث على العناصر التي تودي الى هذه الغاية ،واحببت ان احصل على اقصى ما استطيع من المعرفة المتعلقة بالبنيان العام للكون ، واحببت ان اعلم هل علي ان احسب حساب الحياة الدنيا فقط ام الحياة الآخرة؟ وهل انا حر التصرف أم ان شعوري بالقدرة على تسيير حياتي وفق ارادتي ليس الا وهماً ، واحببت ان اعلم هل للحياة اي معنى ام انني يجب ان اكافح لاعطيها معنى . وهكذا بدأت المطالعة ،والطريق ملتو امامي .

- ٦٥ -

كان الدين أول موضوع استرعى انتباهي ، لانه بدا لي من الاهمية بمكان ان اقرر : هل العالم الذي أعيش فيه هو العالم الوحيد الذي احسب حسابه ام علي ان اعتبره مجرد مكان للتجربة والتهيؤ لحياة اخرى مقبلة . وقد خصصت في روايتي (في الرباط الانساني) فصلا لما آل اليه بطلي من فقد ايمانه ، وقرأت مسودة الطبع امرأة ذكية كانت تحبوني بعطفها وشغفها ، واخبرتني ان الفصل لم يكن وافياً ، فأعدت كتابته ، وما اظنني ادخلت عليه تحسينا ذا شأن لانه كان يصف تجربتي الخاصة ، وما أشك في ان الاسباب التي أوصلتني الى النتيجة التي انتهيت اليها لم تكن كافية .. انها اسباب ولد جاهل .. اسباب تمت الى القلب اكثر مما تمت الى العقل ، فبعد ان مات ابواي اقمت مع عمي القس ، وقد بلغ الخمسين ولم ينجب اطفالاً ، واني لعلى يقين ان رعاية ولد صغير ، تناط به فجأة ، لا بد من ان تكون مصدر ازعاج له . كان يقرأ الصلوات صباح مساء ، وكنا نذهب الى الكنيسة مرتين يوم الاحد الذي هو يوم عمل متواصل ، وكان عمي يقول انه القس الوحيد الذي يعمل في ابرشيته سبعة أيام متوالية في الاسبوع ، وفي الحق كان عمي كسولاً بشكل لا يصدق ، يعتمـــد في عمله على الخوري والوكلاء ، وكنت سريع التأثر ، وتشربت الروح الدينية بقوة وتقبلت كل مالقنته دون سؤال ، سواء في كنيسة عمي أو في المدرسة بعد ذلك .

على ان هناك امراً أثر فيّ مباشرة ، اذ لم تطل اقامتي في المدرسة حتى اكتشفت نتيجة الضحك الذي كنت اتعرض له ، والاهانات التي كانت تلحق بي ، ان نعمة اللسان شر عظيم جداً ، وكنت قرأت في التوراة انك تستطيع ان تحرك الجبال بالايمان ، واكد لي عمي انها حقيقة حرفية ، وفي الليـــالي دعوت الله بكل قوتي ان يزيل عاهتي

وكان ايماني عظيما حتى انني ذهبت الى النوم متأكداً تماماً انني سأتمكن من ان أتكلم كأي انسان آخر حين استفيق في الصباح . وتخيلت دهشة التلاميذ (وكان علي ان اذهب في الصباح الى المدرسة التحضيرية التي كنت طالباً فيها) حين يفاجأون بأنني تخلصت من لعثمة لساني . وافقت في الصباح منتشياً ، وكانت صدمة حقيقية مرعبة ان اكتشفت ان لعثمتي لا تقل سوءاً عما كانت عليه من قبل .

وكبرت وذهبت الى (مدرسة الملك) وكان اساتذتها من رجال الدين ، أغبياء ، وسريعي الغضب ؛ فلم يصبروا على لعثمة لساني ، فاما ان يهملوني كلية وذلك ما كنت افضله ، واما ان يحل عليّ غضبهم وكأنهم اعتقـــدوا ان اللعثمة ذنب ارتكبته .. ثم اكتشفت ان عمي كان انانياً لا يعني بشيء سوى راحة نفسه ، وكان القساوسة المجاورون يقومون بزيارات الى النيابة الاسقفية ، وقد حكمت احدهم محكمة المقاطعة بغرامة لانه ترك بقراته تتضور جوعاً ، والثاني حرم من مرتبه لانه أدين بتهمة ادمان الخمر . وعلمني رجال الدين اننا نعيش في حضرة الله وان واجب الانسان الاول هو تخليص نفسه ، ولم اتمالك نفسي اذ وجدت انه ما من احد منهم كان يمارس ما يعظ به ، وتضايقت بشدة — رغم حرارة ايماني وقتذاك — من الذهاب الى الكنيسة الذي كان يفرض عليّ في البيت وفي المدرسة ، ولما وصلت المانيا فرحت بالحرية التي خلصتني من هـذا الجو ، ولكنني ذهبت مرة أو مرتين بدافع الفضول لحضور القداس الاحتفالي في الكنيسة اليسوعية في هيدلبرغ . اما عمي فلم يكن يشك في ان الكاثوليك سيستقرون في جهنم مع انه كان يعطف عليهم بشكل طبيعي (فقد كان ذا مكانة دينية مرموقة واعتادوا ان يخطوا على جدار حديقته اثناء الانتخابات : هذه هي الطريق الى روما) . وكان يؤمن ضمناً بالعذاب الابدي ، ويكره المرتدين عن كنيسته ويستاء جداً لان الدولة تتسامح معهم ، وكان يعزي نفسه بأنهم سيحكمون بالعـــذاب الابدي أيضاً ، أما السماء فكانت مخصصة للكنيسة الانكليزية ، وقد حمدت ربي لانه انعم علي بأن انشأ مع هذه الجماعة ، وكانت نشأة رائعة عوضتني عن كوني لم أولد انكليزياً .

وحين ذهبت الى المانيا اكتشفت ان الالمان فخورون بكونهم المان بقدر مايفخر الانكليز بكونهم انكليز ، وكانوا يتحدثون عن الانكليز قاطبة بأنهم من اصحاب الحوانيت ، ولم يرتابوا أبداً انهم اعظم من الانكليز بكثير ، في الفن ، والعلم ، والفلسفة .. وقد صدمتني هذه الحقيقة في كنيسة هيدلبرغ ، ولاحظت ان التلاميذ الذين ازدحموا عند ابواب الكنيسة بدوا شديدي الايمان ، وبدت عليهم فعلاً جميع المظاهر التي تدل على انهم مؤمنون بدينهم بقدر ماكنت مؤمناً بديني ، وقد عجبت لذلك لانني لقنت ديني طبعاً ولانني لقنت ايضاً ان دينهم مزيف وديني صحيح .

واعتقد ان طبيعتي لم تسمح لشعوري الديني ان يكون قوياً ، أو لعلي في ريعان شبابي صدمت صدمة عنيفة بسبب مارأيته من تناقض بين اصول الدين وسلوك رجال الدين الذين اتصلت بهم ، مما ادخل الشك الى نفسي ، وإلا فمن الصعب ان اصدق ان هذه الفكرة البسيطة التي خطرت لي في كنيسة هيدلبرغ كان لها مثل هذه النتائج المهمة في نفسي ، فقد غيرتني هذه الخاطرة كأنما ولدت في المانيا الجنوبية ونشأت بطبيعة الحال كاثوليكياً ، وشق علي ان أتعرض للعذاب الابدي دون ذنب ارتكبته ، وثارت نفسي لهذا الظلم ، وكانت الخطوة التالية سهلة ، وانتهيت الى أن معتقد المرء لايؤثر في مصيره قيد انملة ، والله لايمكن ان يحكم على الناس لانهم اسبانيون او هوتنتيون[1] ، وكان من الممكن ان توقف عند هذا الحد ولو كنت أقل جهلاً لتبنيت أحد أشكال عبادة الله التي كانت دارجة في القرن الثامن عشر ، لكن المعتقدات التي غرست فيّ كانت تغمر صدري ، فاذا ماحاول أحدها أن يبرز طغت عليه العناصر الاخرى ، واخيراً تهاوى ، كبيت من الورق ، ذلك البنيان المرعب الذي لم يستند الى محبة الله بل الى الخوف من جهنم .

وعلى أي حال ، كف عقلي عن الايمان بالله ، وشعرت بنشوة حرية جديدة ، ولكننا لانؤمن بعقولنا فقط ، وفي اعماق نفسي ظل يراودني الفزع القديم من جهنم ، وبقي انتصاري النفسي معكراً بشبح ذلك القلق الوراثي .. لقد كففت عن الايمان بالله ومازلت في اعماقي أؤمن بالشيطان .

(١) الهوتنتيون : شعب عريق يسكن حول رأس الرجاء الصالح . — المعرب —

حاولت ان اتخلص من هذا الخوف حين صرت طالب طب ودخلت عالماً جديداً..
لقد قرأت عدداً ضخماً من الكتب وعلمت منها أن الانسان آلة تخضع لقوانين آلية، وحين تتلف الآلة يبلغ الانسان نهايته، ورأيت الناس يموتون في المستشفى فأكدت احساساتي الفزعة ماقرأته في الكتب، واكتفيت بأن اؤمن بأن الدين وفكرة الاله اختراعان ركبهما الانسان كوسيلتين للعيش ومثّلا في وقت من الاوقات - ولعلي اقول حتى هذه الاوقات - قيمة من قيم بقاء الاصلح، ولكن هذا الامر ينبغي أن يفسر تفسيراً تاريخياً، وهو لا يعني أي شيء واقعي. واعتبرت نفسي من الذين لا يؤمنون الا بالمحسوس ولكن، في دمي وفي عظامي، بقيت انظر الى الاله كنظرية ينبغي ان يرفضها الانسان العاقل. واذا لم يكن هناك إله يستطيع ان يلقيني طعماً للنيران الابدية التي لن تتعرض لها كذلك اية نفس اخرى، واذا كانت لعبة قوى آلية، وكان دافع الحياة هو القوة المسيطرة، فكيف استطيع ان أرى في الخير ذلك المعنى الذي لقنته في السابق؟.. وبدأت اقرأ علم الاخلاق، وخضت بضميري عدة مجلدات هائلة، وانتهيت الى ان الانسان لا يستهدف سوى لذته، وانه حين يضحي بنفسه للآخرين يتوهم انـــه يبحث عن شيء آخر سوى ارضاء نفسه، ومادام المستقبل مجهولا فعلى المرء ان يتشبث بكل لذة يقدمها له حاضره، وانتهيت الى ان الخير والشر من الاعراف التي وضعهـا الانسان لخدمة مآربه، وليس للحر ان يراعيها إلا ضمن النطاق الذي يلائم اغراضه. ووضعت ذلك كله في مايشبه (القول المأثور epigrom) وكانت بي آنذاك ردة الى الأقوال المأثورة التي كانت طراز العصر، وقلت في نفسي: «اتبـــع ميولك وعين لك على الشرطي الواقف على الزاوية».. وما أن بلغت الرابعة والعشرين حتى كانت لي فلسفتي

الخاصة الكاملة التي استقرت على مبدأين : نسبية الاشياء ، وظرفية الانسان ، وقد علمت فيما بعد ان الاول منهما لم يكن اكتشافاً بكراً ، واما الثاني فربما كان عميقاً ولكنني مهما طالت بي الحياة ، فلن اتذكر ما كنت اعنيه ، مع انني لم اكتشفه الا بكد الذهن .
وفي احدى المناسبات قرأت قصة استأثرت بلبي ، وهي موجودة في احد مجلدات اناتول فرانس (الحياة الادبية La Vie Littéraire) .

وقد مضت سنوات عديدة منذ عهدي بها وبقي منها في ذاكرتي مايلي : « ارتقى العرش مرة ملك شرقي شاب ، وكان تواقا الى ان يقيم العدل في الناس فأرسل الى حكماء القوم وامرهم ان يجمعوا حكمة العالم في كتب حتى يتمكن من الاطلاع عليها فيسلك سواء السبيل ، وانصرفوا ثم عادوا اليه بعد ثلاثين سنة مع قافلة من الجمال تحمل خمسة آلاف مجلد ، وقالوا له : لقد جمعنا هنا كل ماعرفته الحكماء عن التاريخ ومصير الانسان ولكن الملك كان منهمكاً في امور الدولة لايستطيع أن يقرأ كل تلك الكتب ، فأمرهم أن يختصروا هذه المعرفة في عدد من الكتب اصغر . وعادوا بعد خمس عشرة سنة وجمالهم تحمل خمسمئة كتاب فقط ، وقالوا : ايها الملك تجد في هذه الكتب كل مافي العالم من حكمة ، ولكن الكتب كانت كثيرة واعاد الملك الحكماء ليختصروها ومرت السنون وعادوا بمالايزيد عن خمسين كتاباً ، وكان الملك متعباً هرماً ولم يكن وقته يسمح بقراءة القليل من هذه الكتب فأمر الحكماء بأن يختصروا الكتب ويجمعوها في كتاب واحد يعطيه جوهر المعرفة الانسانية حتى يعرف اخيراً ماينبغي ان يعرفه . وانصرفوا وتابعوا عملهم وعادوا بعد خمس سنوات وكانوا قد أسنّوا وهرموا ووضعوا نتيجة جهودهم في يد الملك ولكن الملك كان في ساعة الموت وليس في مقدوره ان يقرأ الكتاب الذي احضروه . »

لقد كنت ابحث عن كتاب كهذا الكتاب ، يجيب دفعة واحدة عن جميع الاسئلة التي حيرتني حتى أسوي الامور وانهيها على خير مايرام ، وانفذ خطة حياتي دون عائق ،

وقرأت وقرأت وانقلت من الفلاسفة الاتباعيين الى المحدثين معتقد انني ربما اجد ضآلتي عندهم ، ولكنني اكتشفت انهم لايجمعون على امر الا قليلا ، ووجدتني اقتنع بالجانب النقدي من مؤلفاتهم ، ولكن حين اصل الى الجانب الانشائي لااستطيع إلا ان ادرك انهم لاينالون موافقتي ، مع انني في الغالب لم اتبين تماماً ماهو وجه الخطأ عندهم ، ووقر في نفسي ان الفلاسفة ، بصرف النظر عن علمهم ومنطقهم وتصانيفهم ، يدينون بمعتقدات دون اخرى ، خضوعاً لامزجتهم التي تفرض عليهم الاتجاهات الفكرية ، والا فلست افهم لماذا يختلف بعضهم عن بعض بمثل هذا العمق بعد ان مضى على الفلسفة ما مضى من الزمن ، وحين قرأت – لا اذكر اين – ان (فيخته) قال ان نوع الفلسفة الذي يتبناه الانسان يعتمد على طبيعة ذلك الانسان ، فقد خطر لي انني ربما كنت ابحث عن شيء غير موجود ، وبدا لي حينذاك انه مادامت الفلسفة لاتحوي حقيقة شاملة يمكن ان يقبلها كل انسان ، وان كل ماتحويه حقيقة تتفق مع نفسية الفرد ، فالحل الوحيد عندي هو ان اضيق بحثي وافتش عن فيلسوف يلائم تفكيره ، لانني واياه من نوع واحد من الرجال ، والاجوبة التي يمكن أن يعطيها للاسئلة التي حيرتني ينبغي ان تشفي غليلي لانها الاجوبة الوحيدة التي يمكن ان تتفق مع مزاجي .

واخذت فترة من الزمن بفلسفة (التجريبيين Pragmatists) . وكنت قد اخفقت في اكتساب الفائدة التي توقعتهـــا من الكتابات التي كتبها اساتذة الجامعات الانكليزية الكبرى في فلسفة ماوراء الطبيعة ، وبدا لي انهم مهذبون الى درجة لا تسمح لهم بأن يوضعوا في صف الفلاسفة الكبار ، ولم استطع ان اقضي على الشك الذي انتابني في انهم احياناً يخفقون في ايصال مناقشة الى نهايتها المنطقية مخافة ان يؤذوا زمـــلاء لهم تربطهم بهم علائق اجتماعية . امـــا التجريبيون فكانت تتمثل فيهم القوة والحياة ، والبارزون فيهم احسنوا الكتابة وبسطوا القضايا التي لم اكن قادراً على تميـــيز رأسها من ذنبها ، ولكنني لم استطـــع رغم ما بذلته من جهد ان اقنع نفسي بما يقولونه من اننا نصمم الحقيقة لتوافق حاجاتنا العملية ، ولا بد لي من القول : ان المنطلقات الاساسية التي ترتكز عليها المعرفة كلها أمر مقرر لا بد من قبوله سواء لاءم اغراضنا او لم يلائمها ،

ولم ارتح الى الفكرة التي تقول ان الله يكون موجوداً اذا سكنت نفسي الى الايمان بوجوده ، وهكذا لم يعد تعلقي بالتجريبيين شديداً ، واستطبت قراءة برغسون ولكنني وجدته غير مقنع ، ولم أجد عندبندتوغروتشي ما يمت الى ضالتي . ثم انني اكتشفت ان برتراند راسل كاتب ممتع جداً يسهل فهمه ، ويكتب بانكليزية جيدة ، وقرأته معجباً .

لقد رغبت كثيرا في أن أجعله المرشد الذي طالما فتشت عنه ، فهو يتمتع بحكمة دنيوية وعقل سليم ، ثم اكتشفت مع الزمن انه كان مرشداً غير متأكد تماما من الطريق ، وان فكره غير مستقر .. كان اشبه بمهندس تستشيره بشأن بناء بيت فيقنعك ان تبنيه من الآجر ، وبعد أن تقتنع بذلك ، يعود فيعرض لك اسباباً تزين لك بناءه من الحجر ، واما ان تقتنع بذلك حتى يقدم لك اسباباً بنفس القوة ليبرهن على أن أحسن مادة يجدر بك استعمالها هي الاسمنت المسلح ... وهكذا تختلط عليك الامور . لقد كنت أبحث عن طريقة فلسفية متماسكة واضحة الحدود ، كطريقة برادلي التي يفضي كل قسم منها الى الآخر بالضرورة ، فلا يمكن تغيير اي شيء فيها دون أن ينهار البنيان كله ، وهذا ماعجز برتراندراسل عن اعطائه .

وأخيراً انتهيت الى أنني لن أجد الكتاب الوحيد الكامل المقنع الذي كنت افتش عنه ، لان ذلك الكتاب لايكون الا تعبيراً عن نفسي ، وهكذا قررت أن أكتبه لنفسي بدافع من الحماسة لاالتبصر ، وأخذت أدرس بجد الكتب المقررة لطلاب الدراسات العليا المرشحين لأخذ درجة علمية في الفلسفة ، واعتقدت اني بذلك أبني أساساً معقولا لعملي ، وخيل الي انني سأكون أهلا لتأليف الكتاب الذي يراود ذهني بفضل دراسة الكتب الجامعية المذكورة ، وبفضل المعرفة التي اكتسبتها عن العالم خلال السنوات الاربعين التي انقضت من حياتي ، وبفضل الدراسة الجدية للأدب الفلسفي الذي قررت أن أكرس له بعض السنوات . وكنت اشعر أن هذا الكتاب لن تكون له اية قيمة عند غيري سوى مايمكن أن يعطيه من صورة متناسقة لنفس رجل متأمل (مدرك عدم وجود عالم اكثر ملاءمة) ، عاش حياة أخصب من حياة معظم الفلاسفة المحترفين ، وخاض

تجارب اكثر تنوعا . وعرفت جيداً أنني غير موهوب في مجال التفكير النظري فيماوراء الطبيعة ، وصممت على أن آخذ من هنا وهناك نظريات لاتقنع عقلي فقط ، بل تستجيب الى ما أعتقد أنه أهم من العقل ، أي الى مجموع غرائزي ومشاعري وأهوائي المتأصلة ..هذه الاهواء التي تتغلغل في نفس المرء حتى ليصعب تمييزها من الغرائز . ثم اؤلف من هذه العناصر طريقة فكرية تصلح لي وتمكنني من متابعة مجرى حياتي . ولكنني كلما كنت امعن في القراءة كان الموضوع يتعقد وكنت ازداد شعورا بجهلي . وثبطت همتي بوجه خاص المجلات الفلسفية ، حيث كنت اجد موضوعات مطولة جداً ، خيل الي في عماية جهلي انها تافهة جداً ، بينما كانت ذات أهمية كبيرة ، وقد ثبت لي من اسلوب المعالجة ، ومن القياس المنطقي ، والدقة في مناقشة كل نقطة ، والاعتراضات الممكنة عليها ، ومن المصطلحات التي كان الكاتب يعرفها قبل أن يبدأ البحث ، والمصادر التي استشهد بها . ثبت لي من كل ذلك أن الفلسفة ليست الا موضوعاً تنحصر معالجته في الخبراء فقط ، والرجل العادي لايستطيع أن يمني نفسه بفهم لطائفها الا قليلا ، وتبين لي انني احتاج الى عشرين عاماً لتهيئة نفسي كي استطيع انجاز الكتاب الذي يراود ذهني ، فما أكاد انجزه حتى اكون ، كالملك في قصة أناتول فرانس ، على فراش الموت ، أو على أي حال لن استطيع الاستفادة من الجهد الذي بذلته .

وهكذا هجرت الفكرة ، وكل ماأود أن أعرضه من جهودي هو الملاحظات المتفرقة التالية ، ولست ادعي أنها أصيلة مبتكرة ، لا في معناها ، ولا في مبناها . انني أشبه بمتشرد عبأ نفسه بأقصى مايستطيع من تكييف .. بسروال من زوجة مزارع محسنة ، وبمعطف من شيخ ناطور ، وبزوج احذية من كومة قمامة ، وبقبعة وجدها في الطريق .. انها ليست سوى خرق بالية ، ولكنه مع ذلك تكيف معها مرتاحا ،واعتقد أنها تناسبه رغم رثاثتها . فاذا مر بسيد في بزة زرقاء أنيقة ، قبعته جديدة ، وحذاؤه يلمع اعتقد ان السيد يبدو عظيماً جداً ، ولكنه ليس متأكداً أنه سيشعر بالارتياح في تلك الحلة الأنيقة المحترمة كما يشعر في خرقه الرثة .

- ٦٧ -

حين قرأت (كانت) وجدت نفسي مضطراً لهجرة المادية التي شغفت بها في شبابي، وكذلك الحتمية الفيزيولوجية التي رافقتها . وما كنت اعرف وقتئذ الاعتراضات التي انصبت على فلسفة (كانت) لقد آنست في فلسفته دفئاً انفعالياً ، ودفعتني الى تأمل هذا (الشيء بذاته) الذي لا يعرف ، وقنعت بعالم بناه الرجل من المظاهر ، وشعرت بحرية نفسية غريبة ، ولم أقبل المبدأ القائل : ان المرء ينبغي ان يتصرف على نحو قد يجعل من تصرفه قاعدة شاملة .. اذ كنت مقتنعاً تماماً بتنوع الطبيعة الانسانية ، فلم أصدق ان هذا المبدأ معقول ، واعتقدت ان ما كان حقاً عند شخص قد يكون باطلا عند آخر ، فانا مثلا كنت أحب العزلة كثيراً ،ولكنني اكتشفت ان معظم الناس لا يشاركون في هذه الرغبة ، واذا تركتهم وحدهم فانا قاس أناني لا أكترث بهم . والانسان لا يستطيع ان يدرس الفلاسفة المثاليين دون أن يصل الى التماس مع الانانية ، لان المثالية ترتجف دوماً على اطرافها ، والفلاسفة يجفلون منها كما يجفل الغزال الشارد ، ولكن مناقشاتهم تقودهم دوماً اليها ، وبقدر ما استطيع ان احكم ، اعتقد ان الفلاسفة لا ينجون من الانانية الا لأنهم لا يتبعون مناقشاتهم حتى النهاية . وهذه النظرية قلما تخفق في اغراء القاص .. والادعاءات التي تقوم عليها تقع من عمله في الصميم .. وفيها تكامل واناقة يجعلانهـا جذابة جداً .. ومادمت لا استطيع ان افترض ان كل من يقرأ هذا الكتاب له المام بالطرق الفلسفية المختلفة فأرجو ان يسامحني القارىء المثقف اذا اوضحت معنى الانانية solipsism باختصار : « ان الاناني لا يؤمن الا بنفسه وبتجربته ، وهو يخلق من العالم مسرحاً لفعالياته ، وهذا العالم الذي يخلقه يتألف من نفسه وافكاره ومشاعره ولا وجود لشيء غيرها ، وكل ما هو قابل للمعرفة ، وكل حقيقة تتمخض عنها التجربة ، إنما هي فكرة في

ذهنه لا وجود لها بدون ذهنه وهو لا يجد ضرورة ولا امكانية لاقرار أي شيء خارج حدود نفسه ، والحلم والحقيقة عند سيان ، وما الحيـــاة الا حلم يخلق فيه ما حوله من الاشياء ، انه حلم متماسك مستمر ، وحين ينقطع الاناني عن حلمه ينقطع وجود العـالم بما فيه من جمال وألم واسى وتنوع لا سبيل الى تصوره » . انها نظرية كاملة ، عيبهـا الوحيد انها لا تصدق .

ولما شرعت في تحقيق طموحي لوضع كتاب حول هذه الامور واعتقدت انـني ينبغي ان انطلق من البداية ، فقد عملت على دراسة علم اصول المعرفة (Epistemology) ولم اقتنع بأي من النظريات التي تفحصتها ، وظهر لي ان الرجل العادي غير المؤهل للحكم على قيمة هذه النظريات ، ربما وجد نفسه منساقاً لاختيار النظرية التي ترضي استعداداته السابقة (والرجل العادي يظل موضع احتقار الفيلسوف الا عندما يتفق ان تلتقي آراؤه مع آراء الفيلسوف ، وفي هذه الحالة تعود اليه قيمته) . واذا كان لي أن أبـدي الرأي فانني استحسن النظرية التي تقول : اننا لا نستطيـع التأكد من أي شيء سوى كمية معينة من المعلومات الاساسية تسمي (المعطاة the given) ، ووجود العقول الاخرى الـتي تتضمنها . وما تبقى من المعرفة ، حديث خرافة من صنع عقول الناس يستهدف تيسـير سبل الحياة . ومن أجل التكيف في مجرى التطور مع بيئة متغيرة باستمرار ، صنع الناس صورة من قطع لملموها من هنا وهناك لانها توافق مآربهم ، وهذا هو عالم الظواهر الذي يعرفونه ، والواقع هو مجرد افتراض كأساس له ، ولو أنهم اخذوا قطعاً اخرى وجمعوها في صورة اخرى ــ وهذا ممكن فان العالم الجديـد الذي ينتج عن ذلك سيكون متماسكاً وحقيقياً كالعالم الذي يخيل الينا اننا نعرفه

من الصعب ان تقنع اي مؤلف بعدم وجود تداخل شديد بين الجسد وبين العقل ان تجربة فلوبير الذي قاسى من اعراض التسمم بالزرنيخ عندما كان يكتب عن انتحار (ايما بوفاري) ليست الا شاهداً متطرفاً لما يعانيه كل روائي ، فمعظم الكتاب يصابون بالارتجاف أو الحمى او الصداع او الآلام او الدوار حـــين ينهمكون في الكتابة ،

ويشعرون بالمقت بل انهم مدينون لحالات اعتلال اجسادهم بكثير من روائع ما ابدعوه. ولا يكاد يفوت الكتاب - اذ يعرفون ان كثيرا من انفعالاتهم العميقة وكثيرا من افكارهم التي يتوهمون انها تهبط عليهم من السماء قد تكون ناتجة عن كسل في الكبد او حاجة الى الحركة - ان ينظروا الى تجاربهم الروحية بنوع من السخرية لاينتج منه الا الخير، لانهم بهذه الطريقة يتمكنون من معالجتها والتصرف بها. ومن بين النظريات المختلفة حول العلاقة بين المادة والروح التي يقدمها الفلاسفة من اجل الرجل العادي، والتي مازالت تستأثر بقناعتي، مفهوم سبينوزا القائل: ان المادة المفكرة والمادة الممتدة هما شيء واحد ومادة واحدة، وبالطبع من الانسب ان نستخدم كلمة (الطاقة) للدلالة عليها. وما لم اكن قد اخطأت الفهم، اعتقد ان برتراندراسل قد عبر بطريقته الحديثة عن فكرة لاتختلف كثيرا عن فكرة سبينوزا حين تحدث عن مادة محايدة، تكون مادة خاما للعالمين الجسدي والعقلي، وقد حاولت ان اكون لنفسي صورة ما عن هذه الحقيقة، فتخيلت الروح على شكل نهر يشق طريقه في دغل المادة، ولكن النهر هو الدغل، والدغل هو النهر، لان النهر والدغل شيء واحد. ولا يستبعد ان يتمكن علماء الحياة في المستقبل من خلق الحياة في مخابرهم، وعندها ربما اتيح لنا ان نعرف المزيد عن هذه الامور.

- ٦٨ -

ولكن تعلق الرجل العادي بالفلسفة يتخذ طابعا عمليا ، فهو يريد ان يعرف ماقيمة الحياة ، وكيف ينبغي ان يعيش ، واي معنى يمكن ان ينسب الى الكون . وحين يتلكأ الفلاسفة ويرفضون ان يعطو اجابات لهذه الاسئلة ولو على سبيل التخمين ، فانما يتنصلون من مسؤولياتهم . وقضية الشر ، من اهم القضايا الملحة التي تواجه الرجل العادي .

ومن العجيب ان تلاحظ ان الفلاسفة يستعملون وجع الاسنان مثالا كلما تحدثوا عن الشر فيشيرون دوما ، بحق ، الى ان المرء لايشعر بوجع الاسنان عند غيره . ويبدو ان وجع الاسنان في مثل حياتهم السهلة المحروسة ، هو الالم الوحيد الذي يعانون منه كثيراً ، ويمكن ان يستنج المرء ان المشكلة كلها ستوضع على الرف اثر التقدم الذي يحرزه طب الاسنان في اميركا ! وقد خطر لي في بعض الاحيان انه من المستحسن جدا ان يكلف الفلاسفة – قبل ان يمنحوا الدرجات العلمية التي تبيح لهم نقل معرفتهم الى الشباب – بقضاء سنة في الخدمة الاجتماعية بين الاحياء الفقيرة في المدن الكبيرة ، او كسب معيشتهم عن طريق العمل اليدوي ، ولو أنهم رأوا طفلا يموت من التهاب السحايا لاصبحوا خليقين ان يواجهوا المشكلات التي تخصهم بعينين من نوع جديد .

ولو لم يكن الموضوع ذا جدية ملحة لكان من الصعب ان يقرأ المرء الفصل الذي يبحث عن الشر في كتاب (المظهر والواقع Appearance and Reality) دون ابتسامة ساخرة ، انه مهذب بشكل مرعب ، ويترك في نفسك انطباعا بأن الحاق اية اهمية كبرى بالشر امر سيء نوعا ما ، ومع اننا لابد ان نعترف بوجوده الا انه ليس من المعقول ان نحيطه بهذه الضجة الكبرى ، وقد بولغ فيه كثيراً ، على اي حال ، ومن الواضح ان هناك قسطاً من الخير فيه .

وقد رأى برادلي انه لا وجود للألم بوجه عام ، وان المطلق هو الاغنى ، لماينطوي عليه من نشاز وتباين من كل لون .. ويقول برادلي ايضاً : كما ان « المقاومة » والضغط » في الآلة يسعيان الى بلوغ نهاية تتخطاهما من بعد ، فربما كان الحال على هـذا المنوال في المطلق ، ولكن ، على مستوى أرفع بكثير ، وان كان هذا ممكنا ، فلا بد ان يكون حقيقياً لامحالة .. ان الشر والخطأ ايضا يسعيان ضمن خطة أوسع منها ، وهما انما يتحققان بهذا السعي .. انهما يلعبان دوراً في تحقيق « خير » أعلى ، وبهذا المعنى يكونان خيرين دون ان يعلما ذلك .. والخلاصة ان الشر ماهو الا من خداع حواسنا ..

وقد حاولت ان اعرف مايقوله فلاسفة من مدارس اخرى في هذه المشكلة ، فلم اجد الكثير ، ولعل السبب هو ان المشكلة لاتحتمل الاطالة في القول، والفلاسفة يحضون الاهمية طبعا الموضوعات التي يستطيعون ان يتكلموا عنها كثيرا ، وفي القليل الذي ذكروه لااري مايشفيني ، وربما كانت الشرور التي نعاني منها تثقفنا ، وبالتالي تجعلنا احسن من ذي قبل ، ولكن الملاحظة لاتسمح لنا بأن نعتقد ان هذه القاعدة شاملة ، وربما كانت الشجاعة والتعاطف صفتين ممتازتين ، وربما كانتا لاتوجدان بدون الخطر والمعاناة ، وانه لمن الصعب ان ندرك كيف ان (صليب فيكتوريا) الذي يكافأ به جندي جازف بحياته لينقذ رجلا اعمى ، يمكن ان يعزي الرجل بفقد بصره . ان اعطاء الصدقة يظهر الاحسان ، والاحسان فضيلة ، ولكن هل هذا الخير يعوض عن الشر الذي لحق بالاعرج الذي استدعى فقره هذا الخير ؟ ان الشرور حاضرة دوما : من ألم ، ومرض ، وموت احبائنا ، وفقر ، وجريمة ، وخطيئة ، وامل خائب..الى آخر القائمة التي لاتنتهي. واي تفسير لدى الفلاسفة في هذا الصدد ؟ بعضهم يقول ان الشر ضروري منطقا ، لانه يدلنا على الخير ، وبعض يقول : ان في طبيعة الكون طباقا بين الخير والشر ، وكل منهما من الناحية الغيبية (الميتافيزيائية) ضروري للآخر . وماذا قدم علماء اللاهوت من تفسير؟ بعضهم يقول ان الله اوجد الشر في الكون ليبلونا ، وبعض قال : ان الله اوجد الشـــر ليعاقب الناس على خطاياهم . ولكنني رأيت ولدا يموت من التهاب السحايا . وانتهيت الى حل

واحد يتجاوب مع ادراكي ومع خيالي وهو مذهب تناسخ الارواح. فكلنا يعلم انه يقول ان الحياة لا تبدأ عند الولادة ولا تنتهي عند الموت، ولكنها حلقة في سلسلة غير محدودة من الحيوات التي تقرر مصير كل منها نتيجة اعمالها في وجود سابق، والاعمال الصالحة قد ترفع الرجل الى اعالي السماء، والافعال الطالحة قد تنحط به الى اعماق الجحيم. وكل الحيوات لها نهاية حتى حيوات الالهة، والسعادة انما تنشد في التخلص من دورة الولادة والاخلاد الى الحالة الثابتة التي تسمى (النرفانا Nirvana) . ووفقاً لهذه النظرية يسهل على المرء ان يتحمل الشرور التي تدهمه في حياته لشعوره انها نتيجة اخطاء ارتكبها في وجود سابق، ويسهل عليه كذلك بذل الجهد من اجل الخير، اذ يأمل ان يلقى الثواب الاوفى في حياة سعيدة مقبلة. واذا كان الانسان يتحمل آلامه مكرهاً اكثر مما يتحمل آلام الآخرين (لا استطيع ان اشعر بوجع اسنانك كما يقول الفلاسفة)، فان آلام الاخرين تثير سخطه. ومن الممكن ان يسكن الانسان الى آلامه، ولكن الفلاسفة وحدهم، مدفوعين بكمال المطلق يستطيعون ان ينظروا الى آلام الاخرين – التي تبدو غالبا غير جديرة – بعقلية متكافئة. ولو كان مذهب (الكارما[٢] Karma) صحيحاً لكان حريا بنا ان ننظر لتلك الآلام بعطف، ولكن بقوة ايضا. وعند ذلك لا يكون هناك معنى لفورات الانفعال، وتسلب الحياة من لاغائية الالم، وهي حجة المتشائمين التي لا جواب لها. وليس لي الا ان اشعر بالندم لانني اجد ان هذا المذهب يستحيل تصديقه كما هو الشأن بالنسبة لفلسفة الانانية التي تحدثت عنها سابقا.

---

(١) النيرفانا في الديانة البوذية هي نشوة النفس في راحتها الابدية..

(٢) الكارما هي الفكرة البوذية التي تقول ان الروح تلقى الجزاء في وجود مقبل.

المعرب

ولكنني لم انه الكلام عن الشر بعد . ان المشكلة تزداد الحاحا حينما تصل الى ان تقرر هل الله موجود ؟ واذا كان موجودا فأية طبيعة يمكن ان تنسب اليه ؟ وقد اتى علي حين قرأت فيه ، كما يفعل كل انسان ، مؤلفات الطبيعيين التي تشغل الذهن ، وتملكتني الرهبة لتأمل المسافات الشاسعة التي تفصلنا عن النجوم ، والمسافات الزمنية الهائلة التي يقطعها الضوء حتى يصل الينا ، وترنحت لامتداد المجرة الذي لايمكن تصوره . واذا كنت فهمت ماقرأته فيها صحيحا ، فعلي ان افترض ان القوتين الكونيتين الجاذبيـة والدفع ، توازنتا منذ البدء ، فبقى الكون خـلال عصور لاتعد ولاتحصى في حالة من التوازن الكامل .. وفي لحظة ما ، بعد ذلك ، اختل هذا النظام ، وعندما فقد الكون توازنه نجم عنه هذا الكون الجديد الذي يحدثنا عنه الفلكيون ، بما فيه الارض الصغيرة التي نعرفها. ولكن ، ماالذي اخل بتوازن الكون ؟ لقد رأيت نفسي منساقا حتما الى تصور الخالق ومن الذي يستطيـع ان يخلق هذا العالم المدهش المترامي الهائل سوى القادر على كل شيء؟ ولكن شرور العالم تكرهنا على ان تستنتج انه لايمكن ان يكون القوي الخير دون حد . ان الاله ذا القوة التي لاتحد يمكن ان يلام بحق لما في العالم من شرور ، ومن السخف ان ننظر اليه باعجاب او نتجه اليــــه بالعبادة . ولكن العقل والقلب يثور على تصور إله لايجمع كل الخير ، فعلينا اذن ان نقبل فرضية وجود اله لايجمع كل القوة ، ومثل هذا الاله لايحوي في ذاته اي تفسير لوجوده ، او لوجود العالم الذي يخلقه .

ومن الفريد ان تلاحظ ، حين تقرأ الوثائق التي بنيت عليهـا الديانات العظمى في العالم ، الى اي مدى قرأت الاجيال المتعاقبة فيها اشياء أكثر بكثير مما يوجد فيها اصلا . ان معظمنا يضيق ذرعا اذا وجه اليه ثنـاء منمق ، ومن الغريب ان المتدينين يظنون ان

الاله يرضى عن هذا المديح الذي يكيلونه بعبودية ..

حين كنت صغيرا كان لي صديق اكبر مني يلح علي دائما ان اقيم معه في الريف ، وكان متدينا يجمع آله وخدمه كل صباح ، ويقرأ فيهم الصلوات ، ولكنه شطب بقلم رصاص كل المقاطع التي تكيل المدح لله في (كتاب الصلوات العامة) . وقال : لااری شيئا اكثر سوقية من مدح الرجل في وجهه .. ولما كان هو سيدا راقيا ، فانه لم يستطع ان يتصور امكانية كون غير راق ، فيقبل مثل هذا المديح . وفي ذلك الوقت عجبت لشذوذ صديقي ، اما الآن فاعتقد انه اظهر تفهما جيدا .

الناس عاطفيون ، الناس ضعاف ، الناس اغبياء ، الناس يستحقون الشفقة ، ومع ذلك نفترض فيهم ان يحتملوا شيئا هائلا كغضب الله ! انه امر غريب غير وارد . اذ ليس من الصعب ان تغفر للناس خطيئاتهم ، فلو وضعت نفسك في موضعهم يسهل عليك بوجه عام ان تتبين الاسباب التي قادتهم الى الخطيئة ، وبالتالي يمكن ان تجد لهم عذرا . ان في الانسان غريزة طبيعية تقوده الى الغضب ، ثم الى الاعمال الانتقامية اذا ما الحق به الاذى ، ويصعب عليه أن يقف موقفاً محايداً اذا كان الامر يتعلق به ، ولكن شيئاً من التفكير يمكّنه من النظر إلى الموقف من الخارج ، وبالمران تصبح قدرته على غفران الاذى الذي يلحق به كقدرته على غفران الاذى الذي يلحق بالآخرين ، اما مغفرتك للاذى الذي تلحقه بالناس فذلك أمر اصعب بكثير يتطلب بالفعل قوة عقلية فريدة .. ان كل فنان يود لو يؤمن بالناس ولكن الغضب لايستبد له اذا لم يقبل الآخرون مايقدمه لهم . اما الله فلا يقف موقف المتعقل ... انه يلح عليك الحاحاً شديداً لتؤمن به حتى ليخيل اليك انه يحتاج الى ايمانك لكي يؤكد وجوده امام نفسه ، وهو يعد بالثواب من يؤمن به ويهدد بالعقاب المرعب من لايفعل ذلك ، ولست استطيع ان اؤمن بإله يغضب مني لاني لا أؤمن به ، ولست اؤمن باله اقل تسامحاً مني ، ولست اؤمن باله لايتمتع بمزاج مرح ولا بعقل سليم ، ومن قديم اوجز بلوتارك القضية كما يلي : (لأفضلُ كثيراً ان يقول الناس ان بلوتارك لاوجود له في الماضي ولا في الحاضر على ان يقولوا أن بلوتارك

رجل متقلب متغير تسهل اثارة غضبه ويعمد الى الانتقام لاقل الاسباب ويضيق ذرعاً بأتفه الامور .

ولكن ماينسبه الناس الى الله من نقائص لايرضونها لانفسهم ليس برهاناً على ان الله غير موجود ، وانما يبرهن فقط على ان الديانات التي قبلها الناس ليست الا ممرات شقت في دغل لاسبيل الى اختراقه ، ولذلك لايوصل أيٌ من هذه الممرات الى قلب السر العظيم ، وما اكثر المناقشات التي حاولت ان تبرهن على وجود الله ، وارجو القاريء أن يصبر عليّ حتى اعرضها بايجاز .. تقول احدى هذه الحجج : ان لدى الانسان فكرة عن كائن كامل ، وما دام الكمال يتضمن الوجود فالكائن الكامل ينبغي أن يكون موجوداً .. والثانية تقول ان لكل حدث علة ، ومادام الكون موجوداً فلابد من علة له ، وهذه العلة هي الخالق .. والثالثة مستقاة من التناسق وقد وصفها (كانت) بأنها أكثر من غيرها وضوحاً وقدماً وتلاؤماً مع العقل الانساني ، وقد عرضها احدى شخصيات هيوم في (المحاورات) كما يلي : « ان نظام الطبيعة وترتيبها ، والتوافق العجيب بين الغايات النهائية ، والفائدة الواضحة والقصد الواضح لكل عضو وجزء .. ان كل ذلك ينبيء بأوضح عبارة عن علة ذكية ، او مؤلف ذكي » ولكن (كانت) تبين بما يقنع ان ليس هناك مايذكر لتأييد هذه الحجة اكثر من الحجتين السابقتين ، وقدم حجة اخرى عوضاً عنها ، وحجة (كانت) باختصار ، تعتمد على انه بدون إله لايوجد مايضمن ان لايكون الاحساس بالواجب وهماً ، وهو احساس يفترض مسبقاً وجود النفس الحقيقية الحرة ، ولذلك يكون الايمان بالله ضرورياً من الوجهة الاخلاقية ، وهذه الحجة برأي الجميع ، أليق بطبيعة (كانت) الودود منها بذكائه النافذ . والحجة التي تبدو لي اشد اقناعاً من غيرها لم يعد أحد يؤيدها اليوم وتعرف باسم البرهان المعتمد على اجماع الشعوب ، ومؤداها ان جميع الناس مهما تباعدت اصولهم فقد كان لهم نوع من الايمان بالله ، ومن الصعب ان نعتقد ان هذا الايمان الذي نما مع الجنس البشري والذي تقبله احكم الناس : من عقلاء الشرق ، الى فلاسفة اليونان ، الى المدرسين العظام ، ليس

له اساس من الحقيقة ، وبدا الايمان بالنسبة للكثيرين غريزياً وربما - لانستطيع الا ان نقول (ربما) لان التأكد بعيد المنال لاتوجد الغريزة مالم تكن هناك امكانية لارضائها وقد اظهرت التجربة ان سيطرة اعتقاد ما ، بصرف النظر عن المدى الذي يستغرقه ، ليس ضمانة لحقيقته . وهكذا يظهر ان كل الحجج التي تبرهن على وجود الله غير صالحة . ولكنك ، بالطبع ، لاتدحض وجود الله ، لكونك غير قادر ان تبرهن على وجوده ولايمكن ان يتجرد الانسان من الرهبة ومن الشعور بالخور ومن الرغبة في تحقيق الانسجام بين نفسه وبين الكون العظيم ، وهذه العناصر ، لاعبادة الطبيعة والاجداد ، ولا السحر ولا الاخلاق ، هي الاصول الاولى للديانات . وليس من مبرر لان تعتقد ان ماترغبه يوجد ، ولكن يشق عليك ان تحرم من حق الايمان بما لاتستطيع ان تثبته ، ومامن سبب يمنعك من الايمان طالما كنت شاعراً ان ايمانك يفتقر الى برهان ، واظن انك لن تبحث عن براهين ولن تحتاج اليها اصلا ، يكفيك حدسك الداخلي اذا كان طبعك نشدان الراحة في محاكماتك ، ونشدان المحبة التي تقويك وتشجعك .

ان التصوف لايقتضي برهاناً ولا يتطلب بالفعل اكثر من معتقد داخلي ، وهو مستقل عن العقائد لانه يجد دعماً له في جميعها ، وهو شخصي لدرجة ترضي كل عقلية . ان التصوف شعور بأن العالم الذي نعيش فيه ليس الا جزءاً من كون روحي يستقي منه أهميته ، واحساس باله ماثل بعيننا وبرعينا ولقد سرد الصوفيون تجربتهم مراراً باصطلاحات متشابهة جداً حتى أنني لا أفهم كيف يستطيع الناس انكار حقيقتها والحق انني خضت مرة تجربة لا استطيع ان اصفها الا بالكلمات التي استعملها المتصوفون لوصف نشوتهم ، فقد كنت جالساً في احد المساجد المهجورة في القاهرة ، وفجأة ألفيتني مستبشراً كما استبشر « اغناطيوس لويولا » حين جلس على ضفة النهر في مانريزا ، وشعرت شعوراً كاسحاً بقوة الكون وأهميته ، وشعوراً داخلياً عاصفاً بالاندماج مع هذا الكون ، وكدت أحمل نفسي على القول انني كنت في حضرة الله ، انه بلاشك احساس مشترك حرص الصوفيون على الا يلحقوا به قيمة الا اذا كان تأثيره واضحاً فيما يجره من نتائج ،

واظن انه يمكن ان يحدث بعوامل اخرى غير العامل الديني ، والقديسون انفسهم مالوا الى الاعتراف بان الفنانين بان الفنانين قد تحدث لهم مثل هذه الحالة ، والحب ، كما نعلم ، يمكن ان يحدث حالة مماثلة تماماً ، حتى ان الصوفيين انقادوا الى استخدام عبارات المحبين لوصف رؤاهم المباركة ولست اعرف ان كانت الحالة التالية اكثر غموضاً من هذه الحالة التي لم ينجح علماء النفس في تفسيرها ، وذلك ان يخامرك شعور قوي بانك في وقت ما في الماضي خضت التجربة التي تكون على وشك خوضها .. ان نشوة الصوفي حقيقية تماماً ، ولكنها غير صالحة الا لنفسه ، ويتفق الصوفيون والمتشككون على ان هناك غموضاً عظيما يتبقى بعـــد نهاية كل جهودنا العقلية

واذ ووجهت بهذه الحقائق ، وشعرت بالرهبة ازاء عظمة الكون ، ولم اقتنع تماماً بما قاله لي الفلاسفة وماقاله القديسون ، فقد كنت ارجع احياناً الى ما قبل محمد ، وعيسى ، وبوذا ، وآلهة اليونان ، ويهوه ، وبعـــل ، لأفزع الى براهما والاوبانيشاد . ان تلك الروح ، ان كان لي ان ادعوها روحاً ، وهي خلقت نفسها ، واستقلت عن كل وجود آخر ، مع ان كل ماهو موجود ، موجود فيها ، فهي المصدر الوحيد للحياة في كل تلك الحيوات .. ان تلك الروح لها على الاقل من العظمة ما يشفي الخيال .

على انني شغلت بالالفاظ مدة طويلة ، تبيح لي ان ارتاب بما قلت ، وحين اعيد النظر فيما فرغت من كتابته تواً ، لا أستطيع الأن اراه هزيل المعنى .. ان الشيء الوحيد الذي يذكر في الديانة قبل كل شيء هو الحقيقة الموضوعيـــة . والاله الوحيد الذي ذو الشأن هو كائن شخصي رفيع وخير ، ووجوده اكيد بمقدار ماهو حاصل اثنين مع اثنين ، اربعة ... انني لم استطع ان اخترق السر ، وسأظل اؤمن بالظواهر ، والحصيلة العملية لهذا الايمان بالظواهر هي ان تتصرف كما لو كان الله غير موجود .

الايمان بالله ليس أساسياً للايمان بالخلود ، ولكن يصعب الفصل بينهما .. وحتى في ذلك الشكل الغامض لاستمرار الحياة ، المعتمد على فكرة تحلل وعي الانسان اذ ينفصل عن الجسد ، في الوعي العام ، فانك لا تستطيع ان ترفض اطلاق اسم «الاله» على هذا الوعي العام الا اذا انكرنا وجود جدوى او قيمة فنية له .. ومن الناحية العملية نعلم ان الفكرتين ارتبطتا معا ارتباطاً وثيقاً أدى الى الاعتقاد دوماً بأن الحياة بعد الموت هي أقوى أداة تمكن الاله من التصرف في شؤون الجنس البشري ، وهي تقدم للاله الرحيم السعادة الناجمة عن اثابة الخيريين ، وللاله المنتقم الرضى الناجم عن معاقبة الاشرار. وان الحجج التي تثبت الخلود بسيطة جدا ولكنها تظل بغير شأن ، بل بلا معنى ، اذا لم يسبقها تقبل فكرة وجود الله ... على أنني سأحاول تعداد هذه الحجج فيما يلي :

تقوم احداها على أساس اعتبار الحياة غير كاملة ، فنحن ظامئون دوما لارواء نفوسنا ، ولكن قوة الظروف وقصور مقدرتنا يخلفان فينا احساساً بالخيبة يترك للحياة المقبلة أن تصلحه ، وهكذا كان (غوته) يعتقد ان هناك عملا كثيرا بانتظاره رغم أنه انتج انتاجاً غزيرا في حياته .

وهناك حجة قريبة من هذه الحجة مبنية على الرغبة ، فاذا كنا نتصور الخلود ونرغب فيه ، أفلا يدل ذلك على أنه موجود ؟ ان اشواقنا للخلود لاتفهم الا اذا كان ارواؤها ممكناً .

وترتكز حجة ثالثة على مايحل بالانسان من سخط وألم وحيرة حين ينظر الى فقدان الانصاف والمساواة في هذا العالم . ان الاشرار يزدهرون كالشجرة المخضرة ، والعدالة

تستدعي وجود حياة اخرى يعاقب فيها المذنب ويثاب المحسن ، ولا سبيل الى احتمال الشر الا اذا عوض عنه بالخير في المستقبل البعيد ، (والله نفسه بحاجة الى الخلود ليدل الانسان على الطرق المؤدية اليه) .

وبعد ذلك تأتي الحجة المثالية القائلة : الوعي لايفنى بالموت ، لان فنـــاء الوعي لايمكن ادراكه مادام الوعي وحده يستطيع ان يدرك فناء الوعي . وتذهب الحجة الى أن القيم لاتوجد الا في العقل ، وتشير الى أن ثمة عقـــلا علوياً يدرك هذه القيم ادراكا كاملا .

واذا كان الله هو المحبة فالناس قيم له ولا يعقل ان يتاح الفناء لما هو قيمة عند الله وعند هذه النقطة يرد الاعتراض التالي : تدل التجربة ، ولاسيما تجربة الفلاسفة ، انهناك عدداً كبيراً من الناس لا شأن لهم ، والخلود فكرة هائلة جدا لايليق بها أن ترتبط بالناس العاديين ، الذين هم أقل شأناً من أن يستحقوا العقاب الابدي أو النعيم الدائم ، وهكذا أقدم الفلاسفة على الاعتقاد بأن أولئك الذين يمتلكون امكانية الارتواء الروحي سوف يتمتعون باستمرار للحياة يتوقف حين يبلغون الكمال الذي في وسعهم أن يستوعبوه ومن ثم يؤولون الى موت مريح ، أما الذين لايمتلكون مثل هذه الامكانيات فسوف ينالهم الفناء على الفور بيد رحيمة . ولكن حين نأتي الى تحديد الصفات التي تؤهل القلة المختارة لنعمة هذا الاستمرار الحياتي المحدود ، يفاجؤنا ان نكتشف ان الذين تتوافر فيهم هـذه الصفات ، ماعدا الفلاسفة ، قليلون جداً . وعلى أي حال ، لا نستطيع الا أن نتساءل كيف سيقضي الفلاسفة وقتهم حين تكون فضائلهم قد نالت ثوابها المستحق ؟ اننا نسأل هذا السؤال لا ننا نفترض ان الاسئلة التي شغلتهـــم اثنـاء اقامتهم على الارض ينبغي ان تكون قد لاقت الاجوبة الشافية . وليس من حـل الا ان نفترض انهم سيأخذون دروساً في (البيانو) من بتهوفهن ، او يتعلمون الرسم بالالوان المائيـــة تحت اشراف (ميشيل انجيـــلو) ، وسوف يجدهما الفلاسفة معلمـين حاري المزاج ، اللهم الا اذا تغيرت طبيعتها .

وهناك محك جيد يكشف عن قوة الحجج التي تبني عليها معتقدك ، وهو أن تسأل نفسك : هل تقدم على تصرف عملي ذي اهمية بناء على اسباب توازي في قوتها تلك الحجج؟ هل تقدم مثلا على شراء دار معتمدا على الوصف دون ان تكلف محاميا بفحص وثائق ملكيتها ومهندسا بفحص مجاريها ؟ ان حجج الخلود التي تجدها ضعيفة اذا فندتها واحدة واحدة ، ليست اكثر اقناعا اذا اخذتها جملة . انها مضللة كاعلان ينشره بائع الدار في الصحف اليومية ، وهي في رأيي على الاقل غير مقنعة ، ولست ادري كيف يستمر الوعي بعد ان يمحي اساسه الجسدي ،واني متأكد تماما من تلاحم جسمي وروحي حتى انني لااعتقد ان استمرار وعيي بمعزل عن جسمي سيكون في معنى من المعاني استمرارا لنفسي

وحتى لو اقتنعنا بحقيقة الرأي الذي يقول باستمرار وعي الانسان في الوعي العام بعد الحياة ، فليس في ذلك الا عزاء بسيط ، واما ان نكتفي بالتسليم بأن الانسان يستمر باستمرار قوى روحية هو الذي ولدها فذلك ليس الا خداعا لأنفسنا بكلمات بليدة ..ان الاستمرار الوحيد الذي اعترف بقيمته هو استمرار الفرد كاملا .

-٧١-

فاذا تركنا جانبا قضيتي وجود الله وامكانية استمرار الحياة بعد الموت لانهما اعقد من ان يصل المرء فيهما الى قرار يؤثر في سلوكه ، بقي علينا ان نقرر معنى الحياة وفائدتها واذا كان الموت نهاية كل شيء ، واذا كنت لا آمل في ثواب مقبل ، ولا اخشى شراً ، وجب ان اسأل نفسي لم جئت الدنيا ، وكيف ينبغي ان اشق طريقي في ظروفهـــا ؟ والجواب على احد هذين السؤالين واضح ولكنه كريه ،فلايحب معظم الناس ان يواجهوه: ليس للحياة سبب وليس للحياة معنى ومانحن الا سكان افترة قصيرة في كوكب صغير يدور حول نجم صغير هو بدوره جزء من واحدة من المجموعات الشمسية التي لاتحصى . وربما كان كوكبنا هو الوحيد الذي يصلح لاستمرار الحياة ، وربما في جهات اخرى من الكون استطاعت كواكب اخرى ان تشكل بيئة مناسبة لتلك المادة التي نفترض ان الناس خلقوا منها مع مرور الزمن . واذا كان الفلكي ينبىء بالحقيقة فلا بد أن يصل هذا الكوكب الى حالة لا يمكن للاحياء ان يستمروا فيها ، ومن ثم يبلغ الكون ، بعـــد الاحقاب الطوال تلك ، المرحلة النهائية من التوازن التي يتوقف عندها حدوث أي شيء، وستكر دهور ودهور قبل ان يختفي هذا الانسان ، فهل من الممكن اذ ذاك ان نفترض ان هذا الانسان الذي وجد يوما ماله أي شأن ؟ انه فصل في تاريخ الكون ليس له دلالة، شأنه في ذلك شأن الفصل الذي يروي قصص الوحوش الهائلة الغريبة التي سكنت ارض العصور البدائية .

وعلي ان اسأل نفسي اذن عن علاقة هذا الامر بي ، وكيف لي ان اتصرف في هذه الظروف اذا اردت ان استخدم حياتي على أحسن وجه ، وان احصل منها على اقصى

ماتستطيع اعطاءه .. وهنا لست انا الذي يتكلم ، ولكنها صبواتي التي يوجد مثلها عند كل انسان ، تصر على تأكيد وجودي .. انها الانانية التي ورثناها جميعا من تلك الطاقة المترامية في البعد التي سببت بدء الحياة في اعماق الماضي المجهول . انها الحاجة الى تأكيد الذات التي توجد في كل حي وتبقيه حيا ، انها جوهر الانسان نفسه ، وارووازها هو ارواء النفس الذي وصفه سبينوزا بأنه اسمى مايمكن ان نطمح اليه (لانه مامن احد يجهد في تأكيد حياته من اجل اية غاية) . ولنفترض ان الوعي اشتعل في الانسان كوسيلة تمكنه من التصرف ببيئته ، وانه على مدى عصور طويلة لم يصل الى تطور اسمى من ذلك الذي يحتاجه ليعالج المشكلات العملية للحياة ، ولكن يبدو انه نما الى درجة تخطي حاجاته العملية ، ومع نشوء الخيال ، وسع الانسان بيئته لتحتوي ماهو غير مرئي . ونحن نعلم بأية اجوبة جابه الانسان الاسئلة التي القتها نفسه حينذاك . لقد كانت الطاقة المضطرمة في ذاته من القوة بحيث لم يقبل ان يخامره اي شك في اهميته ، وكانت انانيته شاملة جدا ، فلم يستطع ان يتصور امكان انطفائه . وكثير من الناس مازالوا قانعين بتلك الاجوبة يعطون الحياة معنى ، ويصفون السدى الانساني بأنه راحة ..

ان اكثر الناس لايفكرون الا قليلا ، ويقبلون وجودهم في الحياة عبيدا عميا للكفاح الذي يدفعهم ذات اليمين وذات الشمال ، ليرووا دوافعهم الطبيعية ، وعندما يخبو فيهم ذلك الكفاح ، فانهم ينطفئون كما تنطفىء الشمعة . ان حياة هؤلاء الناس حياة غريزية صافية ، ولعل في ذلك اعظم حكمة . ولكن اذا كان وعيك قد ازداد نموا حتى اثار عليك عدداً من الاسئلة الملحة من نوع خاص ، واذا كنت تعتقد بخطل الاجوبة القديمة ، فماذا انت فاعل ؟ واية اجوبة تعطي ؟ لقد اعطى رجلان من احكم اهل الارض اجابتيهما على واحد على الاقل من هذين السؤالين ، فأتى الجوابان بعد تدقيق النظر كأنما يعنيان شيئا واحدا ، على انني لست متأكدا تماما من شدة تطابقهما ، فقد قال ارسطو ان غاية النشاط البشري هي العمل الصحيح ، وقال غوته ان سر الحياة هو ممارسة الحياة . واحسب ان غوته يعني ان الانسان يبلغ ذروة حياته حين يتوصل الى ادراك ذاته ، وكان

وكان قليل الاحترام للحياة اذ تسيطر عليها الاهواء العابرة والغرائز التي لاضابط لها .
ولكن صعوبة ادراك الذات - وهي التي تعني الوصول بكل ملكة من ملكاتك الى قمة الكمال بحيث تنتزع من الحياة اقصى ماتقدر عليه من سرور وجمال وعاطفة وشغف - هذه الصعوبة تكمن في ان مطالب الآخرين تعرقل فعاليتك باستمرار ، فالأخلاقيون وقد اخـــذوا بصواب النظرية ولكنهم اشفقوا من نتائجها ، سودوا صفحات كثيرة ليثبتوا ان الانسان يتوصل الى ادراك ذاته ادراكا كاملا بالتضحية وانكار الذات ،وهذا بالتأكيد مالم يقصده غوته وهو لايبدو صحيحا ايضا اما ان هناك بهجة فريدة في التضحية بالنفس فذلك ليس ينكره الا قليلون ، ثم أن التضحية بالنفس لها من القيمة في ادراك الذات بقدر ماتقدم حقلا جديدا للنشاط ، وفرصة لتطوير جانب من النفس جديـد ، ولكنك اذا رمت ادراك الذات في حدود عدم تداخل محاولتك مع محاولات الاخرين لادراك الهدف نفسه فانك لاتستطيع ان تقطع شوطا بعيدا . .ومثل هذا الهدف يتطلب قدرا من اللامبالاة وانغماسا في الذات ، مما يؤذي الآخرين ،وغالبا مايأتي على الهدف نفسه ولعلنا نعلم جميعا ان الكثيرين ممن قـدر لهم ان يحتكوا بغوته استشاطوا غضبا بسبب أنانيته الجامدة .

قد يبدو من الغرور ان ارفض السير على هدى رجال يفوقونني كثيرا بحكمتهم، ولكن بالرغم من الشبه القوي الذي يجمع الناس ، فلن تجد اثنين يتشابهان تشابها تاما (بصمات اصابعنا اكبر دليل على ذلك) ، ولم ار مايمنعني من اختيار طريقي مااستطعت الى ذلك سبيلا ، وحاولت ان اضع لنفسي تصميا خاصا ، واحسب ان هذا هو مايمكن ان يوصف بادراك الذات ممزوجا باحساس حيوي من السخرية يقلب السيء الى احسن مايكون .. على ان هناك مسألة تعرض لي الان ، سبق ان اجلتها حين عالجت مثل هذا الموضوع في اول الكتاب ، الا انه لم يعد في مقدوري ان اتجنبها ، وبالتالي لابد لي من الاذعان لها ، وهي شعوري بأنني في مواضع كثيرة من الكتاب اعتبرت حرية الارادة امراً مفروغا منه وتحدثت كما لو ان لي القدرة على ان اصوغ مقاصدي واوجه اعمالي وفق مايحلو لي ، وفي مواضع اخرى تكلمت كما لو كنت اقبل بالحتمية . ومثل هـذا الخلط يصبح مدعاة للاسف لو كنت اكتب مؤلفا فلسفيا وهذا مالا ادعيه . ولكن كيف ينتظر مني ، وانا من الهواة ، ان احل هذه المشكلة التي لما يكف الفلاسفة عن المجادلة بشأنها .

لقد كان من الاصوب ان اترك المسألة وشأنها لولا انها من القضايا التي يضطر كاتب الرواية الى معالجتها بوجه خاص لانه يجد نفسه مضطرا ، بسبب قرائه ، الى ان يكون بنيانه متماسكاً ، وقد سبق لي ان اشرت في الصفحات الاولى من هذا الكتاب الى ان الجمهور لايرغب ابدا في تقبل الدوافع الفطرية على المسرح ، والدافع الفطري هو حافز على العمل لايشعر به المرء .. انه متشابه للحدس الذي هو حكم تبنيه دون ان تشعر بالأسس التي استندت اليها ، ومع ان الدافع الفطري له مبرراته الا ان الجمهور يرفض قبوله بسبب غموض هذه المبررات . وقراء الرواية ونظارة المسرحية يصرون على معرفة الاسباب

الكامنة وراء التصرفات ، ولا يعترفون بامكان حدوث الاعمال مالم تقدم بين يديها اسباب مقنعة ، فكل شخص يجب ان يتصرف وفق نفسية معينة، اي انه يجب ان يعمل مايتوقعه الناس منه حسب معرفتهم له . وللمؤلف ان يستعمل الدهاء ليقنعهم بقبول المصادفات والحوادث العارضة التي يسلمون بها في الحياة الواقعية دون ادنى تفكير ، انهم حتميون، والكاتب الذي يتصدى لانحيازهم العنيد هذا ، انما يعرض نفسه للضياع .

ولكنني حين ألقي نظرة على حياتي ، لااستطيع الا ان الاحظ ان كثيرا من الامور التي اثرت تأثيرا اصيلا فيها مردها الى الظروف من حولي، حتى ليصعب ان تنسب لغير المصادفة المحض . ان الحتمية تنبؤنا بأن الاختيار تابع لخط المقاومة الصغرى او الدافع الأقوى ، ولست شاعراً انني اتبعت دائماً خط المقاومة الصغرى ، واذا كنت اتبعت الدافع الأقوى فان ذلك الدافع كان فكرة من نفسي نميتها بالتدريج ، وهنا يرد بشكل رائع مثال الشطرنج ، رغم انه بال مهترىء .. ان القطع في حوزتي ، وعليّ ان اقبل الطريقة التي تتحرك بها كل قطعة ، وعلي ان اقبل حركات الشخص الذي ألعب معه ، ولكن يبدو لي انني املك القدرة على ان احرك القطع من جهتي بملء الحرية وفقاً لما أرغب ، ومالا أرغب . ووفقاً للهدف النهائي الذي وضعته نصب عيني .. ويبدو انني بين حين وآخر استطعت ان اقدم مجهوداً غير بالغ التصميم ، فاذا اعتبرنا ذلك وهما فهو وهم له جدواه ، فالتحركات التي قمت بها كانت خاطئة غالبا، وانا موقن من ذلك الان ،ولكنها اتجهت بطريقة او بأخرى الى الغاية المنشودة . ووددت لو انني لم ارتكب اغلاطاً كبرى، ولكنني لست آسفاً لما حدث ولا أتمنى الان ان ابطل تلك الاغلاط ..

ولست أسفه الرأي الذي يقول ، ان كل مافي الكون يجتمع ليسبب كل مانقوم به من اعمال ، بما في ذلك طبعا الاراء والرغبات . ولن تستطيع ان تقرر ان العمل الذي حدث مجرد من اية حتمية الا حين تجزم الرأي حول وجود او عدم وجود حوادث محتمة تماما وهي التي سماها الدكتور (برود) الاحداث الاصلية العارضة . وقديماً أوضح « هيوم » انه لاتوجد علاقة داخلية بين العلة والاثر يقوى العقل على ادراكها ، ومنذ امد قريب ألقى مبدأ (عدم الحتمية Principle of Indeterminacy) ـ بما اظهره من

حوادث لايمكن ان نعين اسبابها في الظاهر - الريبة في الجدوى الشاملة لتلك القوانين التي بني عليها العلم حتى الان ، ويبدو ان الحظ ينبغي ان يركن اليه ثانية ، ولكن اذا لم نكن مقيدين بمبدأ العلة والاثر ، فلعل حريتنا تبعا لذلك ليست وهما ، وقد تشبث القساوسة والعمداء بهذه الفكرة الجديدة كأنما هي ذيل الشيطان الذي أملوا ان يجروا به الشيطان القديم الى الوجود مرة ثانية ، وانتشر نتيجة لذلك ابتهاج عظيم في قصور حكام الكنيسة ، ان لم نقل في بلاطات السماء ، وربما غنيت على الفور (صلاة الشكر Te Deum) ، ويحسن بنا ان نذكر ان اعظم عالمين في عصرنا ، ينظران بارتياب الى مبدأ (هايزنبيرغ) ، فقد صرح بلانك بأن الابحاث المقبلة ستصل الى حد الغاء الشذوذ عن القاعدة ، ووصف اينشتاين الابحاث الفلسفية التي بنيت على مبدأ هايزنبيرغ بأنها (أدب) واخشى ان تكون هذه الكلمة بديلا مهذبا لكلمة (هراء) . وعلماء الطبيعة انفسهم يخبروننا ان الفيزياء تحرز تقدما سريعا حتى ان المرء لايستطيع ان يحافظ على سويته العلمية اذا لم يتابع بدقة ابحاث المجلات الفيزيائية ، ومن التسرع بالتأكيد ان نبني نظرية على اسس يقدمها علم غير مستقر كالفيزياء ، وقد صرح « شرودنجر » نفسه بأنه يستحيل في الوقت الحاضر التوصل الى حكم شامل نهائي في هذا الصدد اما الرجل العادي فله مـلء الحق في ان يجلس على السياج ، ولعله يكون ذا بصيرة اذا ابقى رجليه مدلاتين الى ناحية الحتمية .

ان قوة الحياة مليئة بالعافية ، والبهجة التي ترافقها توازي كل الالام والمشقات التي تواجه الانسان . انها تجعل الحياة جديرة بأن تعاش لانها تعمل في داخل الانسان وتضيء بلهيبها الساطع ظروف كل فرد حتى تبدو له محتملة ، مهما كانت في الاصل متجهمة . وكثير من التشاؤم ينشأ عن تخيل مانشعره لو كنا في ظروف الاخرين ، وهذا (من بين امور كثيرة) مايجعل الروايات غير حقيقية ، لان القاص يبني عالما عاما من عالمه الخاص ويمنح الشخصيات التي ابدعها من الحساسية وقوة التفكير والمقدرة العاطفية ماهو خاص به ، ومعظم الناس محدودو الخيال ولا يقاسون من الظروف التي تبدو غير محتملة عند واسعي الخيال . ان الافتقار الى العزلة ، مثلا ، يخيفنا نحن الذين نقدرها حق قدرها ، ولكن الفقراء لايشاركوننا هذاالشعور ـ وهم يكرهون العزلة ويشعرون بالامان مع الجماعة ، ولم يفت احداً ممن عاشرهم ان يلاحظ انهم قليلا مايحسدون الميسورين ، وتأويل ذلك انهم لايشعرون بالحاجة الى كثير من الاشياء التي تبدو لغيرهم اساسية ، وهذا من حظ الميسورين ، لان الاعمى وحده هو الذي لايعترف ان حياة الطبقات الفقيرة في المدن الكبرى ليست الا بؤسا وفوضى . ومن الصعب ان يقنع المرء نفسه بأن على الناس ألا يعملوا ، وبأن العمل أمر قابض للنفس ، وبأن عليهم ان يعيشوا دوما مع زوجاتهم واطفالهم على حافة المجاعة ، فلا تحط مطامحهم بعد ذلك الاعلى الفقر المدقع .. واذا كانت الثورة تكفل اصلاح هذه الاوضاع فمرحبابالثورة ولتكن على عجل . اذا حين نرى القوة التي يعامل بها الناس بعضهم بعضا في اقطار اعتدنا ان نسميها متمدنة ، يصبح من التهور ان نعتقد انهم اليوم احسن مما كانوا في الماضي ،ومع ذلك لااخال انه من الغباء والاعتقاد بأن العالم الحاضر بوجه عام يصلح للعيش اكثر مما كان في الماضي الذي يصوره لنا التاريخ ،

وان حالة الاغلبية العظمى من الناس ، على ترديها ، ليست أسوأ مما كانت عليه قبلا ، ويأمل الانسان بحق ان يمحي الكثير من نواحي البؤس التي يعاني منها الانسان بفضل زيادة المعرفة ، وهجر كثير من الخرافات القاسية والاعراف المهترئة ، ونمو مشاعر العطف والمودة . ولابد ان تستمر شرور كثيرة ، فنحن ألاعيب بيد الطبيعة ، وسوف تظل الزلازل تحـــدث الخراب والدمار ، والجفاف يتلف المحصولات ، والفيضانات المفاجئة تدمر المنشآت التي بناها الانسان بأناة ، وحماقات الانسان ستظل تدمر الامم بالحروب . وسيظل يولد اناس لايصلحون للحياة ، فاذا هي عبء عليهم .. ومادام هناك اقوياء وضعاف ، فسوف يظل الضعاف تحت وطأتهم .. ومادام الناس مصابين بلعنة حب التملك ، وأحسبها لن تبارحهم ابدا ، فسوف يحاولون جهدهم ان ينتزعوا مايملكه الضعاف .. وطالما بقيت فيهم غريزة اثبات الذات ، فسوف يمارسونها على حساب سعادة الاخرين . وباختصار ، مادام الانسان انسانا ، فيجب ان يتهيأ لمواجهة كل شر يستطيع الصمود له .

ولست ارى من تفسير للشر سوى انه جزء ضروري من نظام الكون ، والتعامي عنه عمل طفولي ، والنواح عليه عمل لايجدي .. وقد وصف سبينوزا الشفقة بأنها نسائية ، وكان لهذه الصفة صوت اجش على شفتي تلك الروح الناعمة الرقيقة ، واحسبه قصد بذلك ان احساسك العنيف بمالاتستطيع أن تبدله ، ماهو الا اتلاف للعاطفة .

وما انا من المتشائمين ، ولا يحق لي عقلا ان اكون منهم ، لانني كنت محظوظا في حياتي ، وقد عجبت كثيراً لحظي الحسن ، واعتقد ان كثيرا من الرجال الذين هم احق مني لم يحظو بمثل ماحظيت به من حياة سعيدة ، وكان من السهل ان تخيب آمالي عـــلى صخور الحوادث الـتي انتابت غيري من ذوي الكفايات المساوية لي ، او التي تفضلني ، واذا قدر لأحد منهم ان يقرأ هذه الصفحات ، فليعلم انني لاأفاخر فانسب الى مزاياي مانلته في حياتي بل ، الى سلسلة من الظروف غير العادية لااجد لها ايضاحا ، وقد سرني ان اعيش على مافيّ من نقائص عقلية وجسمية ، وما اود ان اكرر حياتي ثانية لانني لااري لذلك طعما ، ولا ارغب ان اعود الى معاناة ماعانيته من آلام ، ذلك انه من بين

اغلاط طبيعتي انني عانيت من آلامي اكثر مما مررت بأفراحي ، لكنني لا امانع في ان اعيد الحياة ثانية اذا تخلصت من نقائصي الجسدية ، ووهبت جسدا اقوى ، وعقلا ارجح ..
ان السنوات التي تمتد امامنا الان يبدو أنها ستكون ممتعة ، والشبان اليوم يدخلون الحياة بتسهيلات لم تتح لابناء جيلي قبلا ، فهم يقاسون من تقاليد اخف وطأة ، ويدركون قيمة الشباب . وحين كنت في العشرين كان عالمي من متوسطي العمر ، وكان علينا ان نجتاز الشباب بأقصى سرعة لكي نبلغ مرحلة النضج . ان شباب اليوم ينالون تهيئة أفضل لمواجهة الحياة في تلك الطبقة الوسطى التي انتمي اليها على الاقل ، ويلقنون اشياء كثيرة مفيدة لهم كان علينا ان نلتقطها بأنفسنا كل بقدر طاقته والعلاقة .. بين الجنسين اليوم سوية اكثر من ذي قبل فقد تعلمت الشابات كيف يكن رفيقات للشبان ، وقد شهد جيلي حركة تحرير المرأة وكان عليه ان يواجه المشكلات التي نجمت عن ذلك : فالنسوة تخلين عن عملهن السابق في تربية الجيل الجديد وخدمته وعن حياتهن السابقة المنفصلة عن حياة الرجال باهتماماتها الخاصة ، واخذن يحاولن الاشتراك في شؤون الرجال وهن غير مؤهلات لذلك ، وعملن على الاحتفاظ بالاعتبار الذي كان من حقهن ، حين كن قانعات بمرتبة دون مرتبة الرجال ، واصررن ، الى ذلك ، على حقهن .. حقهن الجديد المكتسب في المشاركة بنواحي النشاط التي اختص بها الرجال ، والتي لا يعرفن عنها سوى ما يؤهلهن لان يجعلن من نفوسهن مصدر ازعاج ، فقد انقطعن عن اعمال البيت قبل ان يتعلمن اصول الزمالة والاختلاط . وليس من منظر امتع عند سيد مسن من منظر فتاة اليوم بجدارتها وثقتها بنفسها ومقدرتها على ادارة المكتب ولعب كرة المضرب ، والاهتمام الذكي بالقضايا العامة ، وتذوق الفنون ومواجهة الحياة بقدم ثابتة وعين نافذة متفهمة .

وما ابعدني عن ارتداء مسوح الواعظ ولكنني اسمح لنفسي ان اقول : ان الشبان الذين يعملون في المسرح اليوم ينبغي ان يحسبوا حساب التغييرات الاقتصادية التي سوف تبدل احوال المدنية . وفي رأيي انهم لن يعرفوا الحياة السهلة الآمنة التي جعلت كثيراً ممن كانوا في أوج شبابهم قبل الحرب ينظرون الى تلك السنوات نظرة الجيل الذي أعقب

الثورة الفرنسية الى نظام الحكم القديم (Ancien Régime) وكذلك لن يعرفوا حلاوة الحياة . فنحن نعيش على شفا ثورات عظام ، ولست اشك في ان الطبقات الشعبية (البروليتاريا) ، مع ازدياد وعيها لحقوقها ، ستمسك بزمام السلطة في قطر بعد آخر ، وما زال يستبد بي العجب لان الطبقات الحاكمة اليوم تنوي الاستمرار في كفاحها ضد هذه القوى الهائلة ، بدلا من ان تبذل كل جهد لتدريب الكتل الشعبية على مهمات الحكم المقبلة ، لعلها ، حين تأزف ساعتها ، تتفادى بعض ما حل من قوة بالطبقات الحاكمة في روسيا ، وقديماً اخبر دزرائيلي هذه الطبقات ما ينبغي ان تفعله . اما انا فعلي ان اقول بصراحة انني اود لو تدوم الاوضاع الراهنة حتى ينتهي اجلي ، ولكننا نعيش في زمن سريع التغير ، وربما قدر لي ان ارى دول الغرب تخضع لحكم الشيوعية . وقد اخبرني روسي منفي انه حين فقد املاكه وثروته استسلم لليأس ، ولكنه في مدى اسبوعين استعاد هدوءه ولم يلتفت بعد ذلك الى الخسارة الفادحة التي حلت به ، ولست اعتقد انني متعلق بأملاكي المختلفة بحيث اندم طويلا على فقدها ، واذا قدر لمثل هذه الظروف ان تحيق بعالمي ، فسوف ابادر الى محاولة التكيف مع الاوضاع الجديدة ، واذا وجدت الحياة غير مقبولة فلا ظن ان شجاعتي ستخونني حين اعزم على ترك مسرح لم اعد قادراً على تأدية دوري فيه بما يرضيني ، واني لاعجب كيف يذعر الناس من ذكر الانتحار ، فمن المراء ان نتحدث عنه بجبن ، واني لاقر الرجل الذي يضع حداً لحياته بملء ارادته حين لا تقدم له الحياة الا الآلام والمصائب .. أو لم يقل (بلني Pliny) : ان قوة الموت ، حين تشاؤها ، هي افضل ماوهب الله للانسان وسط كل مآسي الحياة ؟ . وبعيداً عن رأي الذين يعتبرون الانتحار خطيئة ـ باعتباره ينتهك قانوناً مقدساً ـ اعتقد ان سبب السخط الذي يثيره الانتحار عند كثير من الناس هو كونه يسفه قوة الحياة ، ويلقي ظلا مرعباً من الشك على قدرة غريزة البقاء على حفظ البقاء ، حين يحيلها الى لاشيء ، وهو اقوى غرائز الانسان .

وبانجاز هذا الكتاب ، أكون قد قدمت موجزاً كافياً للنمط الذي صممته لحياتي ،

واذا امتد بي العمر فسأعمل على تأليف كتب اخرى أسلي بها نفسي ، وآمل ان اسلي بها القراء ايضاً ، وان كنت اعتقد انها لن تضيف شيئاً اساسياً الى نمط حياتي هذا ، فالدار مبنية سلفاً ، وربما لحقتها بعض التحسينات ، من شرفة تطل على مناظر جميلة الى أرواق مشجر يرد حرارة الصيف ، وربما ادركني الموت قبل ان افعل ذلك .. ولكن الدار قد شيدت ولن يضيرني ان يبدأ الهادمون عملهم فيها بعد يوم واحد من دفني .

إن الشيخوخة التي أواجهها لاتضايقني . وقد قرأت في مقالة كتبها احد الاصدقاء، ان لورنس العرب قد مات اثناء قيادة دراجته النارية وهي التي تعود أن يقودها بسرعة جنونية ، مترقباً أن تنتهي حياته بحادث قبل ان يفقد سيطرته على قواه ، وبذلك يوفر على نفسه مهانة الشيخوخـــة .. ولو صح ذلك لكان آية ضعف شديد في تلك الشخصية الغريبة المسرحية نوعاً ما ، لانه يدل على افتقار الى الحس السليم مادام النموذج الكامل للحياة لابد ان يحوي مرحلة الشيخوخة الى جانب الشباب والكهولة .. ان جمال الصباح وألق الظهر بديهان،والسخيف هو الذي يسدل الستائر في اثرهما ليهرب من هدوء المساء، والشيخوخة لها مسراتها التي لاتقل عن مسرات الشباب اثراً ، وان كانت تختلف عنها.. ألم يخبر الفلاسفة اننا عبيد انفعالاتنا ؟.. فهل التحرر من سلطانها عمل بسيط؟ والاحمق الذي يظل احمق في شيخوخته ، الم يكن كذلك في شبابه؟ ان الشبان يرتعدون من ذكر الشيخوخة ، لانهم يعتقدون انهم حين يبلغونها سيحتفظون بصبوتهم الى الاشياء التي تكسب شبابهم دفقاً وغنى ، وهذا خطأ صحيح .. ان الرجل الهرم لا يستطيع ان يتسلق الالب، او ينقض على فتاة رشيقة في السرير ، وصحيح انه لايقوى على اثارة الشهوة في الجنس الاخر ، ولكنه مقابل ذلك يستريح من آلام حب لايلقى تجاوباً ،وغيرة تؤرقه وتعذبه ، ويتخلص من سموم الحسد التي تفتك بالشباب نتيجة رغائبهم المتأججة ،وهذه هي المعوضات السلبية للشيخوخة.. ولكن هناك تعويضاً ايجابياً يتجلى في وفرة الوقت عند الشيخ ،وهي حقيقة قد تبدو متناقضة للوهلة الاولى . وفي شبابي عجبت كثيراً حين قرأت ماذكره بلوتارك من ان (كاتو) الاكبر بدأ يتعلم اليونانية في سن الثمانين ، والان زال العجب . ان الشيخ يتصدى لاعمال ينفر منها الشباب لانها تستغرق وقتا طويلا ، ثم ان الذوق

يتحسن مع الكبر فيستمتع الشيخ بالفن والادب بعيداً عن انحراف الذوق الشخصي الذي يفسد احكام الشاب ، ويكون ارضاء الذوق غاية مقصودة لذاتها مجردة من نوازع الانانية البشرية . ويشعر الشيخ بحربة نفسية فتبتهج روحه في اللحظة الحاضرة دون ان تتشبث ببقائها ، ولا غرو فالخطة بلغت نهايتها .. لقد غنى غوته استمرار الحياة بعد الموت لكي يدرك بعض جوانب من نفسه شعر ان وقته في الحياة لم يتح لاتمعقها ، أو ليس هو القائل : ان من اراد ان ينجز امرا ينبغي ان يقيد نفسه ؟.. وحين تقرأ حياته لابد ان تصدمك طريقته في اضاعة وقته على مقاصد تافهة ، ولو انه قيد نفسه بعناية اكثر فربما كان استطاع ان ينمي كل مايمت الى فرديته الخاصة ، وبالتالي لم ير حاجة الى حياة جديدة .

- ٧٤ -

يقول سبينوزا ، ان الحر لايفكر في شيء اقل مما يفكر في الموت . الحق أنه ليس من الضروري ان يلح المرء على التفكير به ، ولكن من السخف ، كما يفعل الكثيرون النفور من اي تأمل فيه ، ويحسن بالمرء ان يجزم الرأي بشأنه . وانه لمن المستحيل ان يعرف المرء ، الا في ساعة الموت ، هل يخيفه الموت ام لا. وقد حاولت مرارا ان اتخيل مشاعري لو ان طبيبا اخبرني انني اعاني من داء عضال ، وان ايامي في الحياة قليلة ، ووضعت هذه المشاعر على ألسنة شخصياتي المختلفة ،حتى صرت اشعر بأن الناحية المسرحية غلبت عليها ، بحيث لا استطيع الجزم بأنها المشاعر نفسها التي سوف احس بها فعلا ،ولست اعتقد ان لي قبضة غريزية قوية على الحياة ، فقد عانيت من عدة امراض ، وعرفت مرة واحدة في حياتي انني كنت على قاب قوسين من الموت ، ثم انهكني التعب حتى فقدت القدرة على الخوف وصار منتهى املي ان اخلص من الصراع ، على نحو ما ، الى ان الموت محتم ولاشأن للاسلوب الذي يواجه به ، ولايلام الانسان في رأيي اذا تمنى ان لايشعر بقدومه ، وان يسعفه الحظ ليقضي نحبه بدون ألم .

وقد دأبت طوال حياتي ان اعيش المستقبل حتى غدوت الان ـ على قصر مايبقى من مستقبلي ـ غير قادر على ترك هذه العادة ، ومازال ذهني ينظر الى الامام بنوع من الارتياح الى اكمال النموذج الذي صممته لحياتي خلال السنوات المقبلة . واحيانا تمر بي لحظات اتحرق شوقاً فيها الى لقاء الموت ، وتستبد بي الرغبة الى ان اطير اليه كما يطير المحب

الى ذراعي حبيبه ، انه يسبب لي الهزة الحماسية نفسها التي كانت تبعثها في الحياة ايام الشباب . ويسكرني التفكير به لانني اتصور انه يوفر لي الحرية المطلقة النهائية ، على انني أرغب في ان تستمر حياتي مادام الاطباء قادرين على ابقائي في صحة معقولة ، فأنا اتمتع بمشاهدة العالم ، ويلذ لي ان اتابع مايحدث فيه ، وان انقضاء آجال كثيرة سار اصحابها في المضمار نفسه الذي كتب لي في الحياة ، يمنحني غذاء مستمرا للتأمل ولتأكيد نظريات كونتها منذ امد طويل ثم انني أتألم لفراق اصدقائي ، ولااستطيع ان اتخلى عن مسؤوليتي تجاه مصلحة بعض الذين ارشدتهم وحميتهم ، وان كنت احسب انه قد آن لهم ، بعد ان طال اتكالهم علي ، ان ينالوا حريتهم مهما تكن النتيجة وانا قانع ان الفراغ الذي سأخلفه في الحياة بعد ان كان لي فيها مكانة معينة لمدة طويلة ، لابد ان يملأ بسرعة ، ثم ان النموذج الذي وضعته لنفسي ينبغي ان يبلغ تمامه ، حتى اذا ماوصل الى غاية لا يمكن اضافة مزيد اليها دون اتلافه ، تكون ساعة رحيل الفنان قد أزفت .

ولكن اذا خطر لاحد ان يسألني الان عن معنى النموذج او جدواه ، فليس لي الا ان اجيبه بكلمة «لا» . انه مجرد شيء اضفيته على الحياة التي لامعنى لها لانني روائي ، فقد شكلت حياتي وفقا لتصميم معين له بداءة ، ووسط ، ونهاية ، كما كنت أركب من حياة الذين قابلتهم هنا وهناك رواية ، او اقصوصة ، او تمثيلية ، وكان في هذا التصميم ارضاء لنفسي ، وسلوى ، وسداد لما شبه لي انه حاجة عضوية .. اننا نتاج طبائعنا وبيئاتنا وانا لم اضع لنفسي النموذج الافضل ، ولا النموذج الذي وددت ان يكون ، بل وضعت مجرد نموذج يمكن تطبيقه ، وهناك نماذج افضل من نموذجي . ولست أصدق انني مجرد متأثر بالوهم الذي يلازم المتأدبين فيحسبون ان افضل نموذج على الاطلاق هو نموذج الفلاح الذي يحرث ارضه ، ويحصد محصوله ، ويستمتع بجهده كما يستمتع بفراغه ، ويحب ،

ويتزوج ، وينجب ، ويموت . والحق انني حين اطلعت على حياة الزراعة في تلك الاراضي الخصبة التي تمنح الخير الوفير دون جهد مضن ، والتي تمثل مسرات الفرد وآلامه طبيعة الجنس البشري ، خيل الي ان الحياة الكاملة يمكن ادراكها تماماهناك ، حيث تسير الحياة من بدايتها الى نهايتها في خط ثابت مستقيم ، كما في القصة الجيدة .



تدفع الانسان انانيته الى رفض الاعتراف بأن الحياة لامعنى لها، وحين يفاجأ بأنه لم يعد قادراً على الايمان بقوة اسمى يمكن ان يتملق نفسه بخدمة غاياتها، يسارع الى اضفاء الاهمية على الحياة ، ببناء قيم معينة ، وراء تلك القيم التي تحوط مصالحه الآنية . وقد اختارت حكمة الاجيال ثلاثا من هذه القيم ووضعتها في الصدارة ،فاذا استهدفها الانسان لذاتها استطاع ان يضفي على الحياة معنى ما ، وبالرغم من ان المرء يصعب ان يرتاب في انها ذات منفعة حياتية (بيولوجية) الا انها قيم تتسم بمظهر سطحي يوحي بتجردها فيتوهم الانسان انه يستطيع ان يفزع اليها هربا من العبودية البشرية .. ان النبل الكامن في هذه القيم يقوي احساس الانسان المتأرجح بأهميته الروحية ،ويظهر ان نشد انها يبرر له الجهود التي يبذلها ، مهما تكن النتيجة ، وهي اشبه بواحات في بيداء الوجود المترامية ، يقنع الانسان نفسه ، طالما انه لايعرف نهاية اخرى لرحلته في هذه الدنيا ، بأنها على اي حال، تستحق ان يسعى المرء اليها ، حيث يجد عندها الراحة والحل لمشكلته . وهذه القيم هي الحق والجمال والخير .

وفي رأيي ان الحق يحتل مكانه في هذه القاعة لاسباب بلاغية ، ومن عادة الانسان ان يكسو الحق بصفات اخلاقية كالشجاعة والشرف والاستقلال الروحي التي تبدو غالبا في إصراره على « الحق » وان كانت لاتمت اليه فعلا بأية صلة ، ولكن الانسان يجد فيها فرصة كبرى لتأكيد الذات ، فيقدم على اية تضحية تتطلبها ، فيكون اهتمامه اذاً منصباً على نفسه ، لا على الحق ، واذا كان الحق قيمة فذلك لانه حق ، لا لأن قوله شجاعة .. ولكن الحق مجموعة من الاحكام ، ولا يمكن ان نفترض ان قيمته تكمن في الاحكام التي

يتضمنها لافي ذاته ، فالجسر الذي يصل مدينتين كبيرتين هو أهم من الجسر الذي يصل حقلين مجدبين . واذا كان الحق من القيم الاساسية فمن الغريب ان لايوجد من يعرف ماهيته ، ومازال الفلاسفة يختصمون حول معناه ،وانصار المذاهب المتنافسة يسخر بعضهم من بعض ، وفي مثل هذه الظروف يحسن بالرجل العادي ان يتركهم لشأنهم ويقنع نفسه بالحق كما يعرفه الناس العاديون . وهو عندهم امر بسيط جدا ، مجرد تأكيد لموجودات معينة ، وسرد صريح للوقائع ، واذا كان هذا قيمة فلنقر بأن لاشيء مجحود مثلها .ان الكتب التي تبحث في الاخلاق تعطي قوائم طويلة عن الاسس التي يمكن ان يستند اليها الحق شرعاً ، وليت مؤلفي هذه الكتب وفروا على انفسهم هذا العناء ،فقد قررت حكمة الاجيال منذ زمن بعيد انه (لايستحسن ان تقال كل الحقائق) . والانسان ضحى دائما بالحق على مذبح غروره وراحته ومصلحته ، وهو لايعيش في ضوء الحق بـــل في ضوء الايهام .. ومثالية الانسان ، كما يخيل الي دوما هي مجرد جهده لاضفاء ميزة الحق على الحوادث التي ابتدعها ارضاء لغرور نفسه .

- ٧٦ -

اما « الجمال » فهو في حال افضل .. وقد دأبت على الاعتقاد خلال سنوات عدة بأن الجمال وحده هو الذي يسبغ أهمية على الحياة ، وان الهدف الوحيد الذي يجب ان تضعه الاجيال المتعاقبة على سطح الارض نصب اعينها ،هو انجاب فنان بين فترة واخرى ، وكنت متأكداً ان العمل الفني هو تاج فعاليات الانسان والمبرر النهائي لكل البؤس والكل العناء الذي لانهاية له ، ولكل الجهود الخائبة في دنيا الانسان . وخيل الي انه لابأس ان تكون ملايين مغمورة من البشر ، ولدت ، وعاشت ، وماتت ، في سبيل ان يتمكن ميشيل انجلو من رسم أشكال معينة على سقف كنيسة « سيستين » ، وفي سبيل ان يتمكن شكسبير من كتابة بعض الاحاديث ، وكيتس من نظم بعض القصائد . ومع انني عدلت هذه الاراء المتطرفة فيما بعد – وذلك بتصنيف الحياة الجميلة مع منجزات الفن التي تعطي وحدها معنى الحياة، وظل الجمال هو القيمة الاولى عندي – الا انني هجرت هذه الاراء من زمن بعيد .

واكتشفت بادىء ذي بدء ان الجمال توقف كامل ، وحين فكرت في موقفي من الاشياء الجميلة وجدت انه يتلخص في الحملقة والاعجاب ، وكانت هذه الاشياء تعطيني انفعالا بديعا ، ولكنني لم استطع الاحتفاظ به ولا استعادته ، وانتهت اجمل الاشياء بالعالم الى املالي ، ولاحظت انني حظيت بارتواء أطول ، امام الاعمال الفنية المبتدئة ، لانها لم تبلغ بعد ذروة النجاح ، وبذلك ، فسحت المجال لنشاط خيالي . اما في الاعمال الفنية العظمى فقد حسبت لكل شيء حسابه ، اذ لامجال فيها للزيادة ، وقــد تعبت من مجرد التأمل السلبي ، وخيل الي ان الجمال كذروة القمة في الجبل ، اذا مابلغتها لايبقى امامك الا ان

تعود ادراجك ، والكمال لايخلو من البلادة ،ومن مهازل الحياة .. اننا جميعاً نصبو الى بلوغه بينما يحسن بنا ان لانستكمل اسبابه تماما .

واحسب اننا نعني بالجمال ذلك الشيء الروحي او المادي ، وغالبـا المادي ، الذي يرضي حاسة الجمال عندنا ، وهذا الكلام يفيدك عن الجمال بقدر مايفيدك عن الماء قولك انه مبلول . وقد قرأت كتبا كثيرة لاكتشف ان ماتقوله المراجـع لايفيد الا ايضاحا بسيطا ، وعرفت معرفة وثيقة عددا كبيرا من المهتمين بالفنون ، واخشى انني لم اتعـلم منهم ولا من الكتب شيئاً مجدياً جدا في هذا الصدد ، ومن اعجب الاحكام التي انتهيت اليها ان الاحكام الجمالية ليست ثابتـة .. ان المتاحف تعج باشياء اعتبرها مثقفو جيل من الاجيال جميلة ، ولكنها تبدو لنا اليوم عديمة القيـمة ، وقد شاهدت في حياتي الجمال يتبخر من القصائد واللوحات ، التي كانت جميلة الى عهد غير بعيد ، كما يذوب الجليد تحت شمس الصباح . ومهما بلغ بنا الغرور ، يجب ان لانعتقد بأن احكامنا نهائية ، فان مانعتبره جميلا قد يكون قبيحا في جيل آخر ، وما نحتقره اليوم قد يرفعه جيل ما الى مرتبة الشرف.. والخلاصة ان الجمال نسبي في حدود حاجات الجيل ، ومن العقم ان نطبق على الاشياء التي نعتبرها جميلة مقاييس جمالية مطلقة . واذا كان الجمال احدى القيم التي تعطي الحيـاة أهمية فهو شيء يتغير ابدا ، وبذلك لايمكن تحليله لاننا لانكاد نتـــذوق الجمال الذي شعر به اجدادنا الا بمقدار مانستطيـع ان نـتنشق عبير الورود التي استنشقوها .

وقد حاولت ان اعرف من الذين كتبوا في علم الجمال ماهي تلك الخاصية في الطبيعة البشرية التي تمكننا من ان نحس بانفعال الجمال ،وماهو هذا الانفعال بالضبط .. لقد اعتاد الناس ان يتحدثوا عن الغريزة الجمالية ، والاصطلاح يعني ان للجمال مكانا بين الدوافـــع الرئيسـية للانسـان كالجوع والجنس ، وان له صفة نوعية ترضي ميل الفلاسفة الى المجرد ، وهكذا يكون الجمال مشتقا من غريزة للتعبير ، وفيض من الحيوية ، واحساس صوفي بالمطلق ، وخلاف ذلك مما لااعرفه .. اما انا فوددت لو اقول انه ليس غريزة ابدا ، ولكنه حالة جسمية عقلية مبنية من جهـــة على بعض الغرائز القوية ، ومن جهة اخرى مختلطة

بالطبائع الانسانية الناتجة عن عملية النمو ، وبالظروف العامة للحياة الانسانية اما ان الجمال ذو صلة وثيقة جدا بالغريزة الجنسية ، فذلك ظاهر في اجماع الناس على الاعتراف بأن الذين يتمتعون بحس جمالي ، أعمق من المعتاد ، متطرفون جنسياً الى درجة مرضية غالبا . وقد يكون في التركيب «العقلي الجسدي» للانسان شيء يجعل بعض الاصوات والانغام والالوان جذابة بنوع خاص ، وبذلك يمكن التحدث عن السبب الجسدي في ادراك الجمال ولكننا نعتبر الاشياء جميلة ايضا لانها تذكرنا بموضوعات واناس واماكن سبق ان احببناها ، او أسبغ عليها مرور الزمن قيمة عاطفية عندنا . ونحن نجد الاشياء جميلة لاننا نتعرف عليها ، والعكس صحيح ايضا اذ نجد بعض الاشياء جميلة لانها تفجؤنا بجدتها ، وهذا كله يعني ان الترابط ، اما بالتشابه ، او بالتباين ، يدخل في انفعال الجمال بشكل رئيسي ،ولا اعرف بين المفكرين من درس تأثير الزمن في خلق الجمال ، فنحن لاندرك جمال الاشياء كلما تعمقنا في معرفتها وحسب ، بل يزيد من جمالها عندنا ابتهاج الاجيال المتتالية بها ، واحسب ان هذا الامر يعلل ظاهرة اجماع الناس اليوم على جمال بعض الاثار التي لم تحظ بانتباه عظيم وقت ظهورها ، وانني لاشعر ان قصائد (كيتس) اجمل اليوم مما كانت يوم نظمها ، فقد اغنتها انفعالات كل اولئك الذين وجدوا السلوى والقوة في حلاوتها وهكذا نجد ان انفعال الجمال ليس امرا بسيطا نوعيا ، بل هو شيء معقد مكون من عناصر مختلفة ومتباينة في الاغلب ، وليس من حق عالم الجمال ان يقول انه لايجدر بك ان تتأثر بلوحة او لحن لانهما يملآن نفسك باثارة غرامية ، او يسيلان دموعك بتذكيرك مشهداً مر عليه الزمن ، او يسموان بك الى اشراق صوفي بما فيها من ارتباطات .. ان هذا من حقك انت ، وهذه النواحي جزء لايتجزأ من انفعال الجمال ، شأنها شأن الاعجاب المجرد بالتوازن والتركيب .

ماهو بالضبط رد فعل الانسان امام العمل الفني العظيم ؟ وماهو شعوره حين ينظر مثلا الى لوحة الدفن لتيتيان في اللوفر ، او يستمع الى الحماسية في اوبرا « مايسترسنجر »؟ انني اعرف شعوري ، فهو اثارة تمنحني احساسا بالانتعاش عقليا ، ولكنه ممزوج بالحس

وتمنحني شعورا بالرضى يخيل الي انني اميز فيه قوة دافعة وتحرراً من الروابط التي توثق الانسان ، وفي الوقت نفسه تخامر نفسي رقة مفعمة بالتعاطف الانساني ، واشعر براحة وسكينة وسمو روحي .. وبالفعل ، حدث في بعض المناسبات انني كنت أتأمل بعض اللوحات او التماثيل ، او استمع الى موسيقى معينة ، فيثور في نفسي انفعال عميق لا استطيع ان اصفه الا بالكلمات نفسها التي يستعملها الصوفيون لوصف اتحادهم مع الله ، ولهذا السبب قلت دوماً ان ذلك الشعور بالاتحاد مع حقيقة كبرى ليس وقفا على المتدينين فقط ، ويمكن بلوغه بطرق اخرى غير الصوم والصلاة (ولكنني ساءلت نفسي مافائدة هذا الانفعال ؟) انه بالطبع متعة وبهجة في حد ذاته ، وهذا حسن ، ولكن ماذا فيه حتى يكون ارفع من اللذات الاخرى ارفع منها الى حد ان اعتباره بين اللذات يعني الحط من شأنه ؟.. وبعد ، هل كان (جيرمي بنثام) سخيفا جدا حين قال : ان انواع السعادة متساوية ؟ واذا كانت كمية السعادة متساوية ، فلعبة (غرز الدبابيس) تعطي لذة كلذة الشعر !.. وقد اعطى الصوفيون جوابا غير ملتو فقالوا : ان الاشراق لا قيمة له مــالم يمد الشخصية بالقوة ، ويزيد من قدرة الانسان على العمل الصحيح ، فقيمته اذاً كامنة في الاعمال .

وقد اتاح لي القدر ان اعيش مع عدد كبير من الناس يتمتعون بحاسة تذوق الجمال ، ولست اقصد المبدعين ، وهناك فرق كبير في رأيي بين الذين يبدعون الفن وبين الذين يتمتعون به ، فالمبدعون انما يقومون بعملية الخلق بسبب ذلك الحافز الداخلي الذي يحملهم على عرض مافي انفسهم ، واذا توافر الجمال فيما يخلقونه فما ذاك الا مصادفة نادراً ماتكون من بين اهدافهم .. ان هدفهم هو اراحة انفسهم من ذلك العبء الذي يثقل عليهم ، ويستعملون لذلك وسائل تسهل لهم طبيعتهم استخدامها ، كالقلم ، والالوان ، والصلصال .. وانما اقصد الان من جعلوا همهم الاول في الحياة تأمل الفن وتذوقه ، ولم ار في هؤلاء مايستحق الاعجاب ، فهم مغرورون راضون عن انفسهم ، ينظرون باحتقار الى الذين يقومون بأعمالهم المتواضعة التي رماهم بها القدر ، بينما هم أعجز الناس عن تولي مهام الحياة

العملية ، ولانهم قرؤوا عدداً ضخماً من الكتب ، وشهدوا عدداً مثله من اللوحات، فهم يظنون انفسهم أعلى درجة من غيرهم ، ويفزعون الى الفن ليهربوا من واقع الحياة .. ومن خلال احتقارهم السخيف للامور العادية ، ينكرون قيمة الفعاليات الاساسية في الحياة الانسانية .. انهم ليسوا بأفضل من مدمني المخدرات، بل اسوأ منهم ، لان مدمن المخدرات مهما يكن امره ، لايترفع عن الناس ولا ينظر اليهم من عل .

ان قيمة الفن تكمن في أثره ، كما هو شأن الطريقة الصوفية ، واذا لم يستطع الفن ان يعطي سوى اللذة ، مهما كانت هذه اللذة روحية خالصة ، فليس يترتب عليه شيء ذوبال، بل لا يكون في نتائجه اهم من تناول اثني عشر محارة ونصف لتر من (المونتراشيه)... واذا كان الفن عزاء فلا بأس بذلك ، مادام العالم يعج بالشرور المحتمة ، ويحسن بالمرء ان يكون له تراث ينفرغ اليه من حين لاخر، لابقصد الهرب من الواقع ، بل ليمد نفسه بقوة جديدة تعينه على الصمود ، لان الفن ، اذا جاز ان يعد من بين القيم الكبرى في الحياة ، فيجب ان يعلم الناس التواضع والاعتدال والحكمة والحلم .. ان قيمة الفن ليست الجمال ، بل العمل الصحيح .

ومادام الجمال قيمة كبرى من قيم الحياة، فمن الصعب ان نصدق ان الحاسة الجمالية التي تمكننا من تذوق الجمال وقف على طبقة معينة ، ومن المستحيل ان نعتقد بأن شكلا من اشكال الادراك الحسي تحتكره النخبة يمكن ان يعد ضرورة للحياة الانسانية ، ومع ذلك فان هذا هو مايدعيه علم الجمال.. وعلي ان اعترف بأنني كنت ارتاح ارتياحاً شديداً للاعتقاد بأن تذوق الفن وقف على القلة المختارة ، وذلك ايام الشباب الغر ، ايام كان الفن عندي تاج الجهد الانساني ومبرر الوجود (وكان يشمل جمال الطبيعة ايضاً لانني كنت ، ومازلت ، اميل كثيرا الى التأكيد بأن جمال الطبيعة نشأ على يد الانسان كما نشأت اللوحات والسيمفونيات) ، ولكنني سرعان ما اضربت عن هذه الافكار ، فالفن لايمكن ان يكون اقطاعا لفئة معينة ، وانا اميل الى الاعتقاد بأن الاثر الفني الذي لايتذوقه الا اشخاص تلقوا تدريباً خاصاً ليس بشيء ، شأنه في ذلك شأن الفئة التي تتذوقه ، ولا يكون

الفن عظيماً مرموقاً الا اذا امكن ان يتذوقه جميع الناس ، والفن الذي يخص عصبة دون غيرها ليس الا لهوا ، ولست ادري لم يصار الى التمييز بين الفن القـــديم والفن الحديث ، فالفن واحد وهو حي ، ومحاولة تقسيم حياة الفن بناء على ارتباطات تاريخية او ثقافية او اثرية ضرب من اللغو . وليس يغير من واقع الحال شيئاً ان يكون التمثال منحوتا بيد يوناني قديم او فرنسي محدث ، والمهم اولاً وآخراً ان يبعث فينا الهزة الجمالية ، وان تحركنا هذه الهزة الى العمل والانتاج . واذا كان لتأثير الفن ان يتعدى إلانة النفوس وارضاءها ، فعليه ان يقوي الشخصية ويزيد من قدرتها على العمل الصحيح . وما اقل ما احب الوعظ ، ولكنني لا استطيع الا ان اقبله هنا ، ذلك ان العمل الفني يقاس بما يعطيه من ثمار ، واذا كانت ثماره غير صالحة فهو معدوم القيمة ، ومن الحقائق الشاذة التي تفرضها طبيعة الاشياء ولا اجد لها تفسيرا ان الفنان يمارس تأثيره التوجيهي اذا لم يستهدفه عامداً ، وتكون موعظته ابلغ اثراً اذا لم يشعر انه يقف موقف الواعظ ، فالنحل ينتج الشمع لاغراضه الخاصة دون ان يشعر ان الانسان يستخدمه لمنافع مختلفة .

وهكذا اذن يستحيل ان ننسب الى كل من الحق والجمال قيمة ذاتية .. فماذا عن « الخير » ؟.. اود قبل ان اتكلم عنه ان القي نظرة على الحب ، لان هناك فلاسفة اعتقدوا انه يجمع كل الناس فاعتبروه اسمى القيم الانسانية ، واتفقت الافلاطونية والمسيحية على اعطائه اهمية صوفية . ثم ان الابعاد المختلفة لكلمة (الحب) تضفي عليه انفعالا يجعله اشد اثارة من الخير الواضح الذي يبدو ازاءه بليداً نوعاً ما . وللحب معنيان ، احدهما الحب الصافي البسيط ، واعني به الحب الجنسي ، والثاني « الحب العطف » ، واحسب ان افلاطون نفسه لم يميز بينهما تمييزاً دقيقاً ، ويخيل الي انه ينسب النشوة والاحساس بالقوة والشعور بانتعاش الحيوية - وهي الامور التي ترافق الحب الجنسي ينسبها الى النوع الثاني من الحب الذي يسميه الحب السماوي ، والذي افضل ان اسميه « الحب العطف » ، وبهذا ويعديه افلاطون برذيلة الحب الارضي التي لا يمكن ان تستأصل شأفتها ، فالحب يمضي والحب يموت ، والمأساة الكبرى في الحياة لا تكمن في فناء الناس بل في توقفهم عن الحب ، فاذا ماتوقف عن حبك من تحبه فذلك شر عظيم من شرور الحياة لا سبيل الى تفاديه ، وحين اكتشف (لاروشفوكو) ان بين كل محبين اثنين واحداً يحب ، والاخر يدع نفسه تتلقى الحب ، فقد جعل من هذا الواقع الشاذ أمثولة من شأنها ان تمنع الانسان الى الابد من احراز السعادة الكاملة في الحب ، ومهما تنكر الناس للحقيقة وتهجموا عليها ، فليس من شك في ان الحب يعتمد على افرازات معينة في الغدد الجنسية ، وعند الاغلبية العظمى من الناس لا تستمر هذه الغدد في الاستجابة للمؤثر نفسه الى مالانهاية ، ولكنها تذوى مع كر السنين .. ولكن الناس يتهربون من مواجهة هذه الحقيقة ، ويسترونها بالنفاق ، ويخدعون انفسهم بأنهم يستطيعون ان يتقبلوا انطفاء الحب راضين ، لانه يؤول الى مايسمونه بالمودة

الصادقة المتينة ، كأنما المودة تمت بصلة الى الحب .. ان المودة تنتج عن العـــادة واتفاق الاهتمامات والتلاؤم والرغبة في المصلحة ، وهي راحة لا انتعاش . ونحن مخلوقات طبعت على التغير ، والتغير هو الجو الذي نتنفس فيه ، فهل يعقل ان تخرج الغريزة عن هذه القاعدة وهي تلك التي تحتل المرتبة الثانية في القوة بين جميع الغرائز ؟. لسنا الان الاشخاص انفسهم الذين كانوا في العام الماضي ، وكذلك احباؤنا ، وما اسعدنا اذ نستطيع مع تغيرنا ان نحب الاشخاص الذين تغيروا .. اننا في معظم الاحوال نبذل مع تغيرنا جهودا عاطفية بائسة لكي نحب في شخص مختلف ، الشخص الذي احببناه سابقاً ، وماذاك الا لان قوة الحب تبدو حين تأسرنا قوية جداً حتى لنقتنع انها خالدة ابداً ، فاذا ماأخذت تتلاشى شعرنا بالخجل ، واخذنا بغباء نلوم انفسنا لضعفنا ، بينما يجدر بنا ان نقبل هذا التغير في عاطفتنا كأثر من آثار طبيعتنا الانسانية ، ولكن تجربة الجنس البشري ادت به الى ان يلفع الحب بمشاعر مختلطة ، فكان عند بعضهم موضع الشك ، ونال عند بعضهم من اللعن ما ناله من الثناء عند الآخرين ، وقد دأبت النفس الانسانية في صراعها من اجل الحرية على ان تعتبر الاستسلام النفسي الذي يتطلبه الحب ، باستثناء فترات محدودة ، سقطة تنال من الكرامة ، والسعادة الناجمـــة عن الحب قد تكون اعظم سعادة يمكن ان يتوصل اليها الانسان ، ولكنها نادراً ماتكون صافية ، وهي اشبه بقصة تنتهي بخاتمة محزنة ، وما اكثر الذين نقموا على قوة الحب ودعوا ربهم غاضبين ان ينجيهم من عبثه . لقـد تعلق الناس بقيوده ولكنهم كرهوها لانهم يعرفون انها قيود ، والحب ليس أعمى دائمـا ، وما أقل الاشياء التي تسبب بؤساً اشد مما ينتج عن الحب العنيف لانسان تعرف انه لايستحق الحب.

ولكن « الحب لا العطف » يتصف بهذا التغير الذي هو الداء المستعصي في الحب ، على انه في الحقيقة لايخلو دائماً من الدافع الجنسي ، وهو اشبه بالرقص ، اذ يرقص المرء فتلذ له الحركة الايقاعية ، وليس من الضروري ان يرغب في الذهاب الى الفراش مع شريكه ، رغم ان الذهاب عمل ممتع اذا لم يصحبه مايسبب الاشمئزاز . وتتصعـد الغريزة الجنسية في « الحب العطف » ، ولكنها تسبغ على الانفعال شيئا من دفئ وطاقتها الحيوية .. ان هذا الحب اجمل جانب من جوانب الخير ، وهو يسبغ البهاء على الصفات الصلبة الـتي تؤلفه ،

ويقلل من صعوبة ممارسة تلك الفضائل الصغرى كضبط النفس وكبح جماحها والصبر والنظام والاعتدال ، وهي العناصر السلبية وغير المنعشة التي تدخل في تكوين الخير .. ان الخير هو القيمة الوحيدة التي لها من المظاهر في هذا العالم مايوحي بأنها تستحق ان تكون غاية لذاتها ، أما الفضيلة فانها تعوض عن نفسها بنفسها ، ويخجلني ان أتوصل اخيراً الى نتيجة مبتذلة كهذه . ولقد كانت غريزتي حرية ان تدفعني - في سبيل احراز التأثير - الى انهاء كتابي ببعض التصريحات المذهلة المحيرة ، او بفظاظة ساحرة يضحك لها قرائي ويعتبرونها صفة مميزة . وما أقل ماتبقى عندي لاقوله مما لايمكن التماسه في الكتب او سماعه على المنابر ولقد جشمت نفسي مشقة مسيرة متطاولة لانتهي الى اكتشاف مايعرفه كل انسان من قبل !!

ان حاسة الاحترام ضامرة عندي ، وفي العالم منه كميه اكبر بكثير مما يطاق ، وهو ينسب الى موضوعات كثيرة - غير جديرة به ، ولا يتعدى غالباً الولاء التقليدي الذي نقدمه لاشياء لانرغب ان يربطنا بها اهتمام فعال ، واحسن ولاء يمكن ان نقدمه لشخصيات الماضي العظيمة ، كدانتي وتيسيان وشكسبير وسبينوزا ، هو ان لانعاملهم باحترام بل نمحضهم الألفة نفسها التي نحس بها لو كانوا معاصرين لنا ، وبذلك نمنحهم اقصى مانستطيع من تقدير ، لان الألفة اعتراف بأنهم احياء يسعون بيننا .

على انني حين وقعت بين حين وآخر على الخير الحقيقي ، شعرت بالاحترام يدب في قلبي طبيعيا ، ويبدو انه لم ينتقص من احترامي هذا كون اهل الخير ، احيانا ، في درجة من الذكاء ادنى قليلا مما وددته لهم واذكر انني في ايام طفولتي التعيسة تعودت ان احلم ليلة اثر ليلة ان حياتي في المدرسة كانت أضغاث احلام ، وانني سأستيقظ منها لارى نفسي ثانية في البيت مع امي التي سبب لي موتها جرحاً مضت عليه الان خمسون سنة ولما يلتئم تماماً . ومنذ زمن بعيد لم يعد يراودني ذلك الحلم ، ولكنني لم افقد تماماً الاحساس بأن الحياة التي اعيشها سراب اختلط فيه الحلم بالواقع ، الا انني حتى اثناء ممارسة دوري في الحياة ، كنت استطيع ان انظر اليها من مسافة بعيدة ، واتبينها بالرغم من السراب الذي كانته .

وكلما قلبت النظر في حياتي ، بما فيها من نجاح ، واخفاق ، واغلاط لانهاية لها ، وخداع ، ووصول ، وافراح ، واتراح .. خيل الي انها تفتقر الى الواقعية ، وانها مجرد ظلامات غير مادية ، وقد يرجع ذلك الى ان قلبي الذي لم يصب الراحة في اي مكان ظل مسرحاً لاشواق الى الله والى الخلود عميقة موروثة لم يستطع عقلي ان يجاريها .. وفي غمرة افتقاري الى الافضل زين لي احيانا ان اتظاهر امام نفسي بأن مارأيته من خير عند كثير من الذين صادفتهم في دروب الحياة ، كان له نصيب من الواقع . ولعل الخير ليس سبباً من اسباب الحياة ولا تفسيراً لها ، ولكنه نوع من التبرير .. انه ليس تحديا ولارداً، ولكنه نوع من تأكيد استقلالنا في هذا العالم الجامد بشروره المحتمة التي تحيق بنا من المهد الى اللحد ، انه الرجع الذي يرد به المزاح على عبث القدر المأساوي . وخلافاً للجمال يمكن للخير ان يكون كاملا دون املال ، وهو اعظم من الحب لان يد الزمن لاتعبث ببهجته . ولكن الخير يظهر في العمل الصحيح ، ومنذا الذي يستطيع ان يحدد العمل الصحيح في هذا العالم الذي لامعنى له ؟.. وليس الخير عملا يستهدف السعادة ، ولكن اذا نتجت عنه السعادة فيها ونعمت . وقد ألح افلاطون ، كما نعلم ، على انسانه الحكيم ان يهجر هدوء حياة التأمل الى ضجيج الحياة العملية ، ومن ثم يضع داعي الواجب فوق رغبة السعادة . ولعلنا جميعا اتفق لنا في بعض المناسبات ان نتبنى اتجاها لاننا نعتقد انه صحيح ، مع اننا متأكدون انه لن يتمخض عن سعادة في الحال او في المستقبل فاين اذن العمل الصحيح .. اما عندي فأحسن جواب اعرفه هو الجواب الذي جاء على لسان (فرى لويس دوليون Fray Luis de Leon) وان السير عليه في رأيي ليس من الصعوبة بحيث يتخاذل امامه الضعف الانساني وتخور طاقته ، وبه استطيع ان انهي هذا الكتاب .. يقول دوليون: وماجمال الحياة الا ان يتصرف كل امرىء بانسجام مع طبيعته وعمله .